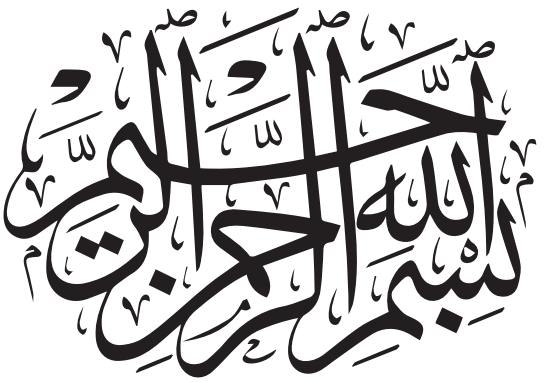
بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2016/226/د)
يتحمّل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنّفه ولا يعبّر
هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

المملكة الأردنية الهاشمية

ISSN 0258 - 1094







مجلة مجمع اللغة العربية الأردني

مجلة علمية محكمة تعنى بنشر البحوث والدراسات في اللغة العربية

عدد خاص

بمناسبة مئوية الدولة الأردنية

١٤٤٣ هجرية – ٢٠٢١ ميلادية

الهيئة الاستشارية للمجلة

الأستاذ إبراهيم شبّوح	تونس
الأستاذ الدكتور رشدي راشد	مصر
الأستاذ الدكتور رمزي بعلبكي	لبنان
الأستاذ الدكتور عبد العزيز المانع	السعودية
الأستاذ الدكتور سامي شلهوب	سوريا
الأستاذ الدكتور عبد السّلام المسدّي	تونس
الأستاذ الدكتور هاني هياجنة	الأردن
الأستاذ الدكتور عبد الفتّاح الحجمري	المغرب
الأستاذ الدكتور عبد المجيد حنّون	الجزائر
الأستاذ الدكتور محمد باقري	إيران
الأستاذ الدكتور محمود السيّد	سوريا
الأستاذ الدكتور عبد الحميد مدكور	مصر
الأستاذ الدكتور رسول بلاوي	إيران

هيئة التحرير

الأستاذ الدكتور
خالد الكركي
رئيس التحرير

الأستاذ الدكتور
سعيد التل

الأستاذ الدكتور
محمد عدنان البخيت

الأستاذ الدكتور
عبد المجيد نصير

الأستاذ الدكتور
سمير استيتية

الأستاذ الدكتور
محمد حسّور

الأستاذ الدكتور
محمد السعودي
الأمين العام للمجمع

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
تقديم	٩
أولاً: أبحاث الأساتذة المستكتبين	١١
١- مستقبل اللغة العربية في التعليم العالي في الأردن - - - أ.د. عبدالمجيد نصير	١٣
٢ - العمل المعجمي بين التخطيط والتنفيذ، رؤية تطبيقية على معجم ألفاظ الحياة العامة في الأردن - - - أ.د. سمير استيتية	٢٩
٣ - حسن البرقاوي رائداً لنهضة اللغة العربية في الأردن ١٩٢٥ - ١٩٦٩م - - - أ.د. سمير الدروبي	٧٥
٤ - قراءة في كتاب (تاريخ الطب الحديث في الأردن وفلسطين منذ القرن التاسع عشر) للدكتور كامل العجلوني، عضو المجمع - - - أ.د. موسى الناظر	١٧٩
٥ - لغة الشعر عند البارودي بين التقليد والتجديد - - - أ.د. إبراهيم السعافين	٢٠٥
٦ - المجال التاريخيّ في الأعمال العلميّة لمجمَع اللُّغة العربيّة الأردنيّ - - - د. المهدي الرواضية	٢٣١
ثانياً: أبحاث مختارة من الموسم الثقافي ومجلة المجمع	٢٦٩
١ - ابن رشد في أدبه - - - أ.د. عبدالكريم خليفة	٢٧١
٢ - اللغة والأسلوب في شعر (عرار) - - - أ.د. محمود السمرة	٣٣١
٣ - العشرينات والعشرينيات - - - أ.د. ناصر الدين الأسد	٣٤١
٤ - في سبيل تعريب التعليم الجامعي في العلوم الطبيعية، مشاكل وحلول - - - أ.د. أحمد سعيدان	٣٥١
٥ - دور عضو هيئة التدريس في تعريب التعليم العلمي الجامعي - - - أ.د. إحسان عباس	٣٦٧

تـــقـــديـــــــم

انطلاقاً من حرص مجمع اللغة العربية الأردني على المشاركة الفاعلة في احتفالات المملكة بمئوية الدولة الأردنية، وضمن الفعاليات والنشاطات العديدة التي نفذها احتفاء بالمناسبة؛ فقد ارتأى أن يصدر عدداً خاصاً من (مجلة مجمع اللغة العربية الأردني) بهذه المناسبة الغالية.

وقد استكتب لهذا العدد ثلة من الأساتذة، جاءت أبحاثهم متنوعة، تحمل همّ العربية وتستشرف مستقبلها، وترصد منجزات المجمع، وأضاف لها مجموعة من الأبحاث اختارها من الموسم الثقافي ومجلة المجمع، نُشرت في بدايات مسيرة المجمع.

هذا العدد همزة وصل بين ماض عريق وحاضر أصيل، فقد التقت على صفحاته أقلام ثلة ممّن رحلوا عنا من الرعيل الأول بعد أن وضعوا لبنات هذا الصرح، مع إسهامات لزملاء لهم تسلموا هذه الأمانة ويتابعون باعتزاز رسالتهم النبيلة في خدمة هذه اللغة المباركة.

تناولت أبحاث القسم الأول موضوعات مهمة: مستقبل اللغة العربية في التعليم العالي في الأردن، العمل المعجمي بين التخطيط والتنفيذ: رؤية تطبيقية على معجم ألفاظ الحياة العامة في الأردن، حسن البرقاوي رائداً لنهضة اللغة العربية في الأردن ١٩٢٥-١٩٦٩م، قراءة في كتاب (تاريخ الطب الحديث في الأردن وفلسطين منذ القرن التاسع عشر)، لغة الشعر عند البارودي بين التقليد والتجديد، وأخيراً المجال التاريخيّ في الأعمال العلميّة لمجمَع اللّغة العربيّة الأردنيّ.

واشتمل القسم الثاني على أبحاث مختارة للأساتذة الأوائل الذين كانوا في نشأة المجمع وتأسيسه والذين رفعوا لواء العربية وحملوا همها: الأستاذ الدكتور عبدالكريم خليفة، الرئيس السابق للمجمع، والأستاذ الدكتور محمود السمرة، والأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد، والأستاذ الدكتور أحمد سعيدان، والأستاذ الدكتور إحسان عباس.

ولكل الأساتذة الشكر الجزيل، للأوائل على ما قدموا وأنجزوا، وللأساتذة المستكتبين على ما كتبوا ودوّنوا.

ونحن إذ نقدم هذا العدد الخاص، فإننا نأمل أن يكون تعبيراً عن اعتزازنا بمئوية الدولة، وإننا نعاهد أنفسنا أن نكمل مسيرتنا في الدفاع عن العربية الشريفة.

والله ولي التوفيق

أولاً: أبحاث الأساتذة المستكتبين

مستقبل اللغة العربية في التعليم العالي في الأردن

الأستاذ الدكتور عبدالمجيد نصير
عضو مجمع اللغة العربية الأردني
أستاذ الشرف – جامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية

ونسأل: هل للغة العربية مستقبل في التعليم العالي في الأردن؟ والسؤال في حد ذاته بدعة يجب أن تكون منكرة. لأن مثل هذا السؤال لم يطرحه الفيتناميون عندما استقلوا عن فرنسا في خمسينات القرن الماضي، وكانت جامعاتهم تعلم بالفرنسية؛ ولم يطرحه الفنلنديون أيضاً، وإن كان عدد سكان فنلندة أقل من عدد سكان الأردن؛ ولم يطرحه الأتراك في دولتهم الجديدة عندما أنشأوا لغة تكاد تكون جديدة شبه مستقلة عن اللغة العثمانية، وكتبوها بالحرف اللاتيني، بل ولم يطرحه المغتصبون الصهاينة في فلسطين عندما قرروا إحياء لغة شبه ميتة، وأن يكون التعليم بها على كافة المستويات، ونجحوا. ولا حاجة لضرب أمثلة أخرى.

إن حالنا في الأردن غريبة جداً. فأكثر أهل العلم يتفقون على ثراء اللغة العربية ومرونتها ومقدرتها على الاستيعاب؛ وأن لها تاريخاً مميزاً عندما استوعبت علوم الأقدمين من هنود وإغريق وغيرهم، وأنتج فيها علماؤها نتاجاً علمياً في مختلف الفنون على مدى عدة قرون. بل ويزداد العجب عندما نعلم أن نهضة

محمد علي، حاكم مصر، في العلوم النظرية والتطبيقية، في بداية القرن التاسع عشر، كانت وسيلتها اللغة العربية. وأن الكلية الإنجيلية السورية (أصل الجامعة الأمريكية في بيروت) بدأت بتدريس الطب باللغة العربية وظلت كذلك حتى احتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢. كما أن الجامعات السورية، ظلت تدرس باللغة العربية كل تخصصاتها، ولحقت بها جامعات عراقية وسودانية وليبية.

إذن، أين المشكلة؟ من الواضح أن المشكلة ليست في اللغة، وإنما في الإنسان الذي يوظفها توظيفاً كاملاً أو ناقصاً. في هذه المقالة نتصدى لهذه القضية وتوابعها.

دعونا نبدأ أولاً بالقوانين ذات العلاقة. ونبدأ **بقانون التربية والتعليم رقم (٣) لسنة ١٩٩٤ وتعديلاته.** ففي الفصل الثاني وعنوانه "فلسفة التربية وأهدافها"، نقرأ في المادة (٣/ب/٤): "اللغة العربية ركن أساسي في وجود الأمة العربية وعامل من عوامل وحدتها ونهضتها". ونقرأ في المادة (٤/أ): "استخدام اللغة العربية في التعبير عن الذات والاتصال مع الآخرين بيسر وسهولة".

ثم نأتي إلى **قانون التعليم العالي والبحث العلمي رقم (١٧) لسنة ٢٠١٨**، ونقرأ عن غايات التعليم العالي والبحث العلمي في المادة (٣/ب): "ترسيخ العقيدة الإسلامية وقيمها الروحية والأخلاقية وتعزيز الانتماء الوطني والقومي". وكذلك، في المادة (٣/و): "اعتماد اللغة العربية لغة علمية تعليمية تعلمية في

مختلف مراحل التعليم العالي، ودعم التأليف العلمي بها والترجمة منها وإليها، واعتبار أي لغة عالمية لغة مساندة لها".

وأخيراً، نقرأ في **قانون حماية اللغة العربية رقم (٣٥) لسنة ٢٠١٥**، في المادة الثامنة:

"أ- يلتزم المعلمون في مراحل التعليم العام وأعضاء هيئة التدريس في التعليم العالي باستخدام اللغة العربية في التدريس.

ب- اللغة العربية لغة البحث العلمي، وتنشر البحوث بها، ويجوز النشر بلغات أجنبية بشرط أن يقدم الباحث ترجمة للبحث باللغة العربية، تعميماً للفائدة للجهات ذات العلاقة".

كما نقرأ في المادة (١٣):

"تلتزم مؤسسات التعليم العالي الرسمية والخاصة والمؤسسات التعليمية على اختلاف أنواعها ودرجاتها بالتدريس باللغة العربية في جميع العلوم والمعارف، باستثناء ما تقرره وزارة التربية والتعليم ووزارة التعليم العالي والبحث العلمي بهذا الخصوص".

إذن، هذا هو الشق القانوني والسياسي بالنسبة للتدريس باللغة العربية. وعلى الرغم من أن قوانين الجامعات الأردنية منذ إنشائها قد نصت على أن التدريس أصلاً بالعربية، وأنه قد مضى ست سنوات على صدور قانون حماية اللغة العربية، فلا يزال التدريس في التخصصات العلمية في كل الجامعات الرسمية والخاصة باللغة الإنجليزية ولا نجد أي حركة في الجامعات ووزارة التعليم العالي

لتطبيق هذه القوانين. ولا توجد دراسات لتحديد أين الخلل، ومن ثم إصلاحه. وعلى أي حال، فمشكلتنا مع اللغة العربية تتعدى تعريب التعليم العالي. ونراها تبرز في منحيين آخرين مخيفين. أولهما، اللافتات التجارية التي نراها على المحلات التجارية بأنواعها، وسواء أكان ذلك في المدن أم القرى، في منشأة تجارية أو خدمية صغيرة أو كبيرة. فلوثة التسمية بالإنجليزية، ولا أقصد الكتابة فقط بل حتى الأسماء تنتشر وتتوسع كفيروس لا يعالج، بل إن عدداً من المقاهي والمحلات تترفع أن تكتب أسماءها بحروف عربية، بل تستعمل اسماً أجنبياً مكتوباً بالإنجليزية. ولقد سلكت بلدية إربد الكبرى هذا المسلك الخاطئ عندما كتبت أسماء المناطق التابعة لها بحروف إنجليزية فقط. هذا مع أن قانون حماية اللغة العربية النافذ يمنع ذلك. ولكن اللغة العربية وحمايتها أيتام على مآدب لئام.

والمنحى الخطير الآخر هو انتشار المدارس الخاصة التي تدرس بالإنجليزية، وتشجع طلابها على الحديث بهذه اللغة في المدرسة والشارع والبيت، حتى صارت اللغة العربية غريبة في بيوتهم. وقد شكا لي عدد من الأصحاب من أن أحفادهم لا يتكلمون العربية حتى في البيوت.

إن المشكلة الأساسية، في نظري، هي داخل أنفسنا، تبدأ من كيفية نظرتنا إلى وجودنا كأمة، وإلى كيفية فهم هويتنا، وما هي العوامل الأساسية التي تشكل شخصيتنا، وما هو مستقبلنا في العالم، وما هو دورنا ورسالتنا للحضارة العالمية، وما دور اللغة العربية في كل هذا.

في بداية الفتوحات الإسلامية أيام أبي بكر وعمر بن الخطاب، فهم المسلمون دورهم. واختصر ذلك ربعي بن عامر، المحارب الأمي الذي لم يدخل مدرسة، ولم يتثقف بثقافات عصره، الذي أرسله سعد بن أبي وقاص ليفاوض رستم، قائد جيش الفرس، قبيل معركة القادسية. فعندما سأل رستم ربعيّاً، ما الذي جاء بهؤلاء الأعراب إلى بلاده؛ وكانوا قبائل متناحرة يفشو فيها الجوع والتناحر؛ وكنا نمن عليكم ببعض الميرة، قال: "إن الله ابتعثنا، لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة". فماذا يمكن أن نجيب سائل اليوم عن دورنا في الحضارة الإنسانية، ومكاننا في التقدم العلمي والتكنولوجي. والجواب واضح، إن تعريف أمة لم يعد ينطبق علينا، وإننا نعيش في أنظمة متنافرة، وبل وفي داخل البلد الواحد نجد التناقضات المهلكة؛ فأنى لنا أن يكون لنا دور مهم في الحضارة الإنسانية. ومن الأدلة الإضافية على تأخرنا تواضع المحتوى العربي على الشابكة الذي لا يتجاوز ٤% بغض النظر عن مواد هذا المحتوى. والرقم المخيف الآخر هو معدل الوقت الذي يمضيه العربي في القراءة. فحسب تقرير لمنظمة الإسكوا قبل سنوات، كان هذا المعدل (٦) دقائق فقط، وجميعُ ما نشره العالم العربي على مدى قرنين لا يعادل عدد ما نشرته اليونان في سنة واحدة.

والسؤال المهم هنا، هل اللغة عامل تقدم لناطقيها أم عامل تخلف؟

من واقع الأمم الحالي، وواقع دولها، نجد أن كل أمة تقدمت في مقاييس العلم والتكنولوجيا، ومن ثَم الاقتصاد وما يتبع ذلك، تؤكد اهتمامها بلغتها الوطنية،

وتجعلها السبيل للتقدم والتميز ووضوح الرؤية وتحديد الشخصية الوطنية. وعدا بعض الدول، وبخاصة في إفريقيا، إضافة إلى الهند، التي ليست لها لغة وطنية، فاعتمدت لغة أوربية لغة رسمية، فإن هذه الدول قدمت لغتها، في كل ميدان، بل وأجبرت غيرها أن تعترف بذلك. فالاتحاد الأوربي الذي يضم خمساً وعشرين دولة، وعلى الرغم من توحيده كثيراً من مناحي الحياة على مستوى الاتحاد بل والشعوب، لم تتنازل دولة عن أهمية لغتها الوطنية، وبقي الاعتبار للغة كل بلد على سواء، حتى وإن كان ذلك البلد مالطا التي عدد سكانها أقل من نصف مليون. ولم يدّعِ أحد في أي بلد أن لغته عائق عن التقدم العلمي والتكنولوجي. لذلك لا يمكن أن تكون اللغة عائقاً في سبيل التقدم العلمي والتكنولوجي. ولنا في تجارب الأمم الأخرى خير قدوة، إضافة إلى التجربة الغنية من تاريخ حضارتنا العربية الإسلامية على مدى قرون.

لتجاوز هذه المعضلة، نحتاج إلى ثقافة جديدة، إضافة إلى قانون حماية اللغة العربية وتطبيقه. نحتاج إلى ثقافة تغرس فينا الاعتزاز بأمتنا، وهويتها، وشخصيتها، وأهميتها، ورسالتها العالمية. ولا ريب في أن دور اللغة العربية في ذلك عظيم. وإذا ما قارنّا اعتزاز الأجيال السابقة، ومنها جيلي، بلغتها بما هو الحال اليوم، نجد الفرق كبيراً جداً، والسبب هو ما حصل عليه جيلي من ثقافة وما يحصل عليه جيل اليوم. فنحن بدأنا بدراسة كتب القراءة التي كانت مملوءة بقصص ومقالات تغرس في النفوس حب الأمة ولغتها وقيمها العليا، وتؤكد تميزها. وكنا في سبيل ذلك، نحفظ آيات وسوراً من القرآن الكريم، ونصوصاً من بليغ أقوال الفصحاء

من شعر ونثر وخطب. ولم يكن شرطاً أن نعرف معنى كل كلمة، بل كان من المهم أن نغذي مسرد المفردات العربية في ذاكرتنا. وهذا ما لا نجده في كتب القراءة والمطالعة اليوم. ومن المفزع أيضاً، أن مجموع المفردات عند طالب أردني في السابعة من عمره أقل من نصف عدد المفردات لطالب أوربي مهما كانت لغته.

إنه من المهم جداً، أن نغير مناهج اللغة العربية في المدارس وأساليب تدريسها، وألا نهتم بالتقليد الأعمى لما ينقل إلينا أو يفرض علينا من ثقافات أخرى. لقد كان الطالب لا يقبل في الأزهر إلا إذا جاء حافظاً للقرآن الكريم وهو في سن أقل من عشر سنوات. ونجد اليوم الملايين من الشباب الغض في العالم الإسلامي، ومن غير العرب الذين يحفظون القرآن كاملاً لا يخرمون فيه حرفاً. وأنا أدعو إلى أن تتركز الدراسة والتدريس في أول صفين على اللغة العربية على الأقل، قراءة وحفظاً وإملاء ومحادثة، مع قليل من علوم أخرى، دون أن تنافس اللغةَ العربيةَ أي لغة أخرى أجنبية، مع تشجيع الجميع على الحديث باللغة العربية السليمة في كل الأحوال، وفي جميع وسائل الاتصال المرئية والمسموعة والمكتوبة. ومن وسائل التشجيع المباريات والجوائز، والقراءة والأناشيد. وتكون مع ذلك برامج تهدف إلى إعادة الثقة بالنفس، وبأهمية أمتنا، ومعنى وجودنا، برامج بعيدة عن الكلام الإنشائي الأجوف.

ومن المهم أيضاً متابعة هذا الغرس الطيب، بأن تظل اللغة العربية هي اللغة الأولى في التدريس لجميع السنوات، يمارسها كل المعلمين. فمعلم التاريخ كما معلم الرياضيات وغيرهم، هم أيضاً يعلمون باللغة السليمة، ويحرصون على رعايتها

عند طلابهم في جميع كتاباتهم. ولقد أدركت أستاذي المرحوم محمد درويش رجب، الذي علمنا الرياضيات في الصف الثاني الثانوي، وهو يصحح لغتنا ونحن نشرح على اللوح، وفي امتحاناتنا على الورق. وكنت أفعل ذلك مع طلابي وبخاصة في أوراق إجابة الامتحانات.

وعندئذ، سيكون التعليم في الجامعات باللغة العربية تحصيل حاصل. هكذا، نبدأ تطبيق أهداف التعليم بشقيه العادي والعالي. وأنصح بإعادة قراءة الأهداف المذكورة آنفاً.

والمشكلات الأخرى هي في الأساتذة والتأليف والنشر. وسأهتم أولاً بالأساتذة الجامعيين. وهم السبب الأبرز لنجاح تعريب التعليم الجامعي أو فشله. تبدأ المشكلة من دراسة هؤلاء الأساتذة في جامعات أجنبية. فأكثر الأساتذة الجامعيين في العلوم النظرية والتطبيقية هم من خريجي جامعات أجنبية، ويتعلمون بغير اللغة العربية؛ وحتى في الجامعات العربية، فإن اللغات الأجنبية لها السيادة في التدريس والتعلم والتأليف. وهذا له الأثر الأعظم في تكوين تفكيرهم والتعبير عنه. فإذا كان الطالب تعلم بالإنجليزية، فإن الكتاب مؤلف بها أيضاً، وبها سمع المحاضرات، وشارك في النقاش، وتحدث مع أساتذته وزملائه، وكتب بها. وعاش معها سنوات مهمة من عمره الثقافي والعلمي والتكويني. لذلك، وإن كانت لغته الأم هي العربية، وهي في هذه الحال لهجة عامية، إلا أن وعاء فكره والسبيل للتعبير عما في هذا الوعاء هو بالإنجليزية. ثم نطلب منه أن يدرس ويؤلف بالعربية! هذا طلب غير مقبول أو غير ممكن. أنى له أن يحول ما في فكره من الإنجليزية إلى

العربية ليحاضر بها ويؤلف بها، وهو غير قادر وغير مستعد! فلا عجب أن نجد استنكاراً من هؤلاء الزملاء واستنكافاً عن التدريس بالعربية. ذلك أن التدريس بالإنجليزية أسهل وأكثر راحة. فهو لا يحتاج إلى إعداد محاضرته إعداداً شاملاً كاملاً بلغته العربية، لأنه لا يستطيع، ولو حاول لخرج منه العجب إلى حد الفضيحة، والستر مطلوب. فالكتاب الأجنبي موجود، وإخراجه جميل، وطبعته أنيقة، وتأتيه نسخة مجانية من الناشر. ولا يحتاج لقراءة النصوص إلا كلمح البصر، ذلك أن لغته الإنجليزية ليست قوية، والقراءة متعبة، ولا يحتاج حتى لحل مسائل كثيرة (مثلاً في الرياضيات!)، إذ تكفيه الأمثلة المحلولة؛ بل لا يكلف نفسه حل المسائل التي يقترحها لطلابه.

وعلى هامش هذا الكلام، أذكر أني قدمت كتاباً لي وللدكتور بسام الناشف في الحسبان (مساقا ١٠١، ١٠٢) في السنة الدراسية ١٩٩٧-١٩٩٨ لكي يقرأه الزملاء في قسم الرياضيات في جامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية قبل اتخاذ القرار باعتماده، وهو بالعربية، تكاد تكون كلماته أقل من نصف كلمات الكتاب الأمريكي في الموضوعات نفسها. وإذا ببعض الزملاء ينبهونني على بعض الأخطاء. فسألتهم هل تقرأون الكتاب الأمريكي كلمة كلمة؟ قالوا لا. إذن، كتابنا له ميزتان أؤكدهما: أولاً، أنه خال من الحشو ومكتوب لطالب جامعتنا، وثانياً لأنه بالعربية، فقراءته أسهل وأسرع وأسلس. وهذا أدعى لاعتماده، بل وللتأليف والتدريس بالعربية.

ومن هنا نبدأ عملية التعريب لتنجح. ولنجاح التعريب، نحتاج إلى عوامل أخرى، أهمها الكتاب والمكتبة العلمية والنشر والمكافآت.

الأستاذ الجامعي

الأستاذ الجامعي هو العماد الرئيس لتعريب التعليم، محاضرة ونقاشاً وتأليفاً. والبداية تكمن في قناعته بأهمية لغته العربية في شخصيته، وهوية أمته وأثرها في رسالته ورسالة أمته؛ ومدى اعتزازه الحقيقي بهذه اللغة، ومدى تعرفه على قوتها في التعبير، وتاريخها المشرف في التعبير عن العلوم في العصور الماضية، وكيف حولها علماؤها من لغة أدب وشعر ولغة أعراب في البوادي، إلى لغة استوعبت كل المعارف النظرية والتطبيقية المعروفة، وأنها كانت الوعاء للإبداع أيضاً. وأنها لغة حية بقدر ما يسكب أهلوها المثقفون والمفكرون والمبدعون وقادة الرأي في جسمها من دماء قوية غنية؛ وأن هذا من مسؤوليتهم ورسالتهم. فإذا نجحنا في ذلك مع الأستاذ وبخاصة الجامعي، فقد نجحنا، وذلك بإشراف قيادة قوية تقود سفينة التعريب في بحر متلاطم من الثقافات واللغات وسوء الظنون بل والعداوة المكشوفة أحياناً. ونوجز أهم الخطوات للوصول إلى ذلك:

١- نفث روح الاعتزاز باللغة العربية، وأهمية سيادتها على غيرها من اللغات، بل وتحبيبها إلى أهلها. وبما أن المرء عدو لما يجهل، فالبدء يكون بتعليم اللغة نحواً (بسيطاً) وكتابة ومحادثة ومحاضرة وحفظ نصوص من قرآن وشعر وأدب، وتشجيع قراءة عدد وافر من الكتب المناسبة. وتكون البداية في امتحانات مستوى تحدد مستوى الأستاذ قبل دخوله غرفة الصف. ثم إخضاعه لدورات مكثفة تعلمه اللغة العربية كما ذكرنا آنفاً، ولا بد من

مواصلة الدورات لرفع مستوى إتقان الأستاذ للغته. وربما عمل جوائز سنوية ولكل مستوى في كل جامعة رسمية أو خاصة، لتشجيع التنافس والتقدم.

٢- تشجيع التأليف بها وبخاصة الكتب التدريسية، في مختلف مستويات التدريس، بما فيها مستوى الدراسات العليا، وحتى في البحوث العلمية، كما جاء في قانون حماية اللغة العربية. كذلك، جعل تأليف كتاب تدريسي أو غيره باللغة العربية مقام بحث مقبول للترقية إذا وفّى بالشروط النافذة. وسنذكر في فقرة أخرى شروطاً أخرى حول التأليف. والمهم، أن يتعامل الزملاء مع الكتاب المؤلف بالعربية كما يتعاملون مع كتاب أمريكي مؤلف بالإنجليزية؛ لا أن يأنف أحدهم من أن يدرس كتاباً كتبه زميل أو زملاء في جامعته أو جامعة أخرى. وربما في البداية ألا يكون من أهداف المؤلف الربح المادي، وإن كان هذا لا يمنع من مكافأة مناسبة حسب نظام واضح يطبق على الجميع.

وفي الوقت نفسه، تشجيع ترجمة الكتب الأجنبية التدريسية من أي لغة أجنبية، ويكون للكتاب المترجم التعامل المناسب وكأنه كتاب وطني مؤلف.

النشر الجامعي

لا ريب في أن نشر الكتاب الجامعي عامل في غاية الأهمية لنجاح هذا الكتاب مؤلفاً أو مترجماً. ومن تجربتي الشخصية وتجارب زملاء آخرين، أجد أن النشر ليس أمراً بسيطاً أو فردياً، أو مسؤولية دور نشر صغيرة لا تستطيع أن تغامر

بتكاليف كبيرة وهي غير واثقة من نجاح ما تنشر. لذلك عندي اقتراح في غاية الجرأة على مستوى الأردن.

إنني أدعو إلى تأسيس دار نشر جامعية، ليست غايتها الربح المادي، تساهم فيها كل جامعة بما لا يقل عن مليون دينار؛ وعلى مستوى الأردن، ذلك يعني شركة مساهمة خاصة رأسمالها لا يقل عن ثلاثين مليون دينار. ولهذه الشركة إدارة مستقلة يحاسبها مجلس أمناء تنتخبه الجامعات حسب شروط متفق عليها. وبالإضافة إلى الأحكام العامة الموجودة في قانون الشركة، فقد يضع مجلس الوزراء نظاماً خاصاً لدار النشر هذه، يضمن الإشراف والمحاسبة والمتابعة.

وكما في شركات النشر الكبرى في البلاد الأجنبية، يكون لهذه الشركة، طواقم فنية، تعنى بتمحيص الكتب، وخلوها من الأخطاء، وإخراجها في حلل قشيبة، وأن تكون طباعتها على أحسن ما يكون حرفاً وشكلاً وورقاً وتجليداً.

وعندما يتقدم مؤلف كتاب جامعي تدريسي أو مرجعي بمسودة الكتاب، أو بمشروع الكتاب وتفاصيل محتوياته، والأهداف التي يسعى إلى تحقيقها إلى الشركة، تقوم الشركة بوساطة محكمين مختصين بدراسة المسودة أو المشروع. ويقدمان تقريرهما الفني النزيه، لكي تتخذ الشركة القرار المناسب. ومع وجود تعليمات للنشر، سيعرف المؤلف ما له وما عليه في كل ما يختص بكتابه. وبعد إقرار الصيغة النهائية للمسودة، تقوم الشركة بطباعته بعدد النسخ المناسبة. وتكون حقوق الطبع تامة للشركة. وبما أن غاية الشركة ليست الربح المادي، فإن سعر نسخة الكتاب

سيكون منخفضاً ليشجع الطلاب على شرائه، والحفاظ عليه في مكتباتهم الخاصة. وتقوم الشركة بتسويق الكتاب لدى أعضاء هيئة التدريس أصحاب العلاقة. ومن المستحب، أن يكون لدى أساتذة مساق ما أكثر من كتاب لأكثر من مؤلف يختارون منها. فالتنوع قوة، وأدعى لحسن الاختيار؛ كما أنه يغني المكتبة الجامعية، التي قد تصير مع الزمن، واقعاً عالمياً له حضوره المادي والمعنوي. وكما في الكتب الأجنبية، فإنه قد تصدر لكتاب ما عدة طبعات منقحة، مستفيدة من واقع تدريسه، وما يقدمه الزملاء المدرسون من ملاحظات لمؤلف الكتاب.

ونشير إلى أن الكتاب الأردني الناجح سيجد طريقه إلى الجامعات العربية خارج الأردن. وفي هذا الانتشار فوائد وسمعة طيبة. ولنا في تجربة مجمع اللغة العربية الأردني قدوة حسنة. فقد ترجم المجمع كتباً تدريسية من الإنجليزية في نهاية سبعينات القرن الماضي، في الرياضيات والفيزياء والكيمياء والأحياء والجيولوجيا. والغريب أن الزملاء، وهم من الجامعة الأردنية، الذين ترجموا هذه الكتب وحصلوا بسبب ذلك على مكافآت مجزية، لم يختر أيٌّ منهم أيَّ كتاب مترجم ليكون كتاباً تدريسياً في جامعته. ربما لأنهم لم يرغبوا في التدريس بالعربية، وربما لأن الإدارة الجامعية لا تشجع، بالإضافة إلى وجود كثير من الأخطاء المطبعية في كتب الرياضيات كما أعلم. وكنت حينئذ في جامعة اليرموك الجديدة، فاخترت أن أعلم كتب المجمع في الرياضيات، إلا أنني أوقفت الأمر بعد أول سنة لكثرة الأخطاء المطبعية، التي أنقصت كثيراً من قيمة الكتاب العلمية وهيبته. على أن كتب المجمع وجدت قبولاً لها خارج الأردن، وبخاصة في ليبيا التي بدأت مسيرتها في

تعريب التعليم الجامعي. ومع أنهم طبعوا كتباً عدة طبعات، إلا أنهم لم يرسلوا فلساً واحداً للمجمع على خلاف الأصول.

وأنا في هذا المقال، لا أقصر حديثي على الكتب الجامعية العلمية، بل على هذه الكتب في جميع التخصصات. ومن تجربة شخصية، فإنني بدأت تدريس مساقات الرياضيات التي كنت أدرسها، باللغة العربية، منذ ١٩٧٩، بادئاً بكتاب عن الرياضيات لطلاب الاقتصاد والإدارة. وأتبعت ذلك بكتب في المعادلات التفاضلية العادية، ثم في أي مساق أدرسه. فكنت أحضر المادة باللغة العربية، وأقدمها لطلابي محاضرة وكتاباً أولياً أنشره على حسابي، لا أبغي أي ربح مادي. واستطعت أن أكتب أكثر من عشرين كتاباً منفرداً، إضافة إلى كتب في الحسبان كتبتها مع الزميل الدكتور بسام الناشف من جامعة اليرموك. ومنها مساقات ماجستير؛ بل وجعلت أول طالب ماجستير في جامعة آل البيت، يكتب رسالته بالعربية، وكان موضوعها في الحسبان الكسري. وبعد ترجمتها إلى الإنجليزية، أرسلتها إلى مجلة شهيرة متخصصة في هذا الموضوع، فقبلتها على الفور ونشرت. وفي السنة الدراسية ٢٠٠٧–٢٠٠٨ كنت في إجازة تفرغ علمي قضيتها في جامعة برشلونة، متفرغاً لكتابة مؤلف بالعربية في تاريخ الرياضيات. وأزعم أن الكتاب هذا ليس له نظير بالعربية أو الإنجليزية، لسببين رئيسين: الأول، أني اقتحمت تاريخ الرياضيات في القرن العشرين بكثير من التفصيل، مما لم يفعله أي كتاب إنجليزي. والثاني أني أعطيت رياضيات الحضارة العربية الإسلامية حقها مما لا تجده في أفضل الكتب الإنجليزية أيضاً. ومسودة الكتاب في حوالي ٧٠٠ صفحة، عدا

الرسوم والتوضيحات والفهارس. ومع أن مجمع اللغة العربية الأردني أخبرني قبل سنوات رغبته في نشر الكتاب، إلا أن التلكؤ مني؛ وآمل أن أتغلب على ذلك في أقل من سنة.

وأضيف إلى ما سبق حاجة المكتبة العربية والقارئ العربي إلى كتب ميسرة عامة بمستويات مختلفة، تقدم الجوانب المختلفة من المعرفة، بلغة مبسطة، وأساليب مشوقة. وهذا الأمر، أيضاً سيكون من مسؤوليات دار النشر التي اقترحناها سابقاً. ويسعدني أن أذكر أن عندي مسودة كتاب عنوانه "**الرياضيات في كلمات: المعلومة والبهجة والمتعة**" يقدم الرياضيات للقارئ العربي مهما كان مستواه؛ يعرفه بها، وبعدد من ميادينها، وبعض تحدياتها، وصفحات مبهجة من حياة الرياضيين وغرائبهم، مما يشوق القارئ، ويغني تجاربه. وربما نشر مثل هذا الكتاب سيغري ويشجع زملاء آخرين لكي يكتبوا في موضوعاتهم كتباً عامة للتثقيف.

وأين موقع مجمع اللغة العربية الأردني من ذلك كله؟

إن قانون المجمع وقانون حماية اللغة العربية يجعلان للمجمع سلطة معنوية وتنفيذية في تعريب التعليم بجميع مستوياته. فالمجمع مسؤول عن تطبيق اللغة العربية في المدرسة والجامعة والشارع؛ وهو مسؤول عن تقدم اللغة العربية وتيسير أمورها من نحو وإملاء ومحادثة وغير ذلك. وهو مسؤول عن سك المصطلحات في كل الميادين ونشرها والحرص على استعمالها. وقد خطا المجمع خطوات كثيرة في هذه الميادين وغيرها. بل وأنشأ إذاعة لا تذيع إلا باللغة العربية

السليمة ليبرهن للناس كافة حيوية اللغة، ويسر استعمالها، وحسن جرسها على الآذان. كما أنه، وعلى الرغم من ميزانية متواضعة، ينشر الكتب التراثية والمؤلفة والمترجمة، لا ليكون دار نشر، بل دار إرشاد وريادة عسى أن تتبعه مؤسسات أخرى وبخاصة الجامعات. وأرى أن اقتراحنا المذكور آنفاً سيوحد الجهود والرؤية والمال، ويخط الأساليب الناجعة لجعل اللغة العربية لغة علم وتعليم وتأليف ونشر؛ لغة الحاضر الصارخ والمستقبل الواعد لهذه الأمة، وهي تبني شخصيتها المميزة، وتسترجع نفوذها العالمي، وتبني على أمجاد سامقة. وتبقى الأفكار عرائس من الشمع، تطبيقاتها واستعمالاتها تهبها الحياة.

العمل المعجمي بين التخطيط والتنفيذ
رؤية تطبيقية على معجم ألفاظ الحياة العامة في الأردن

الأستاذ الدكتور سمير شريف استيتية
عضو مجمع اللغة العربية الأردني

الملخص

يهدف هذا البحث إلى استقراء العلاقة بين الوجهين النظري والعملي في بناء المعاجم اللغوية، واستقراء خصائص معجم ألفاظ الحياة العامة في الأردن في ضوء التخطيط اللغوي. ولما كان هذا المعجم هو الأول من نوعه في المعاجم العربية، وهو الذي يهدف إلى جمع الألفاظ العامة من الميدان، فمن المتوقع أن تكون فيه اجتهادات وأنظار قابلة للمناقشة.

قُسّمَ هذا البحث على مطالب يسعى كل واحد منها إلى مناقشة قضية من قضاياه، منها القضايا التي تربط معجم الألفاظ العامة بغيره من الأعمال المعجمية الأخرى، ومن قضاياه ما هو بيان لطريقة هذا المعجم التنظيمية في إثبات الألفاظ العامة وطريقة شرحها، ومنها ما هو بيان تفصيلي لظاهرة الغريب في هذا المعجم، وما يمكن أن يقدمه هذا المعجم لفكرة أطلسة ألفاظ الحياة العامة في الأردن، واختص آخرها بذكر بعض ما أغفله هذا المعجم.

توصل البحث إلى نتائج جزئية منبثّة في مواطنها من البحث، وأخرى عامة تتمثل في ما يأتي: تحقق في هذا المعجم كونُه خطوة من خطوات التخطيط اللغوي، وتطوير العمل المعجمي، وأن له سمات يختلف بها عن سائر المعاجم، وأنه قد حقق خطوات عملية نحو أطلسة الألفاظ العامة الشائعة في الحياة اليومية في الأردن.

اتبع هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي الذي يركز على وصف الظواهر اللغوية كما هي، ويكشف بالتحليل عن علاقة كل ظاهرة لغوية بغيرها، ويستنتج من النتائج ما يصعب أن يُتوصل إليها بغير تحليل.

الكلمات المفتاحية: التخطيط اللغوي، معجم ألفاظ الحياة العامة.

dictionary, the strange words, the shortfall words, and the benefit of the target dictionary in building a language atlas for the daily life words in Jordan. The mentioned dictionary can be depended on in realizing this objective.

Taking into consideration that this topic needs to be identified by describing the obtained data and analyzing their meta language relations the descriptive analyzing methodology has been chosen to deal with in this study.

The study ended up with main results such as the target dictionary missed main topics and a lot of lexemes which were necessary to be dealt with. However this dictionary is expected to be a source for other studies and linguistic activities.

Key words: common words, language atlas.

Lexicology between Theory and Practice

An Applied study to the Common Lexemes in the Every Day Life in Jordan

By Samir Steitiya

Abstract

This paper aims at analyzing the correlation between the theoretical and practical phases of lexicology. It also aims at clarifying features of the dictionary of common words of everyday life in Jordan in light of language planning. Accordingly the problem of the study has been titled as follows: Lexicology between Theory and Practice – an Applied Study to the Common Lexemes in the Every Day Life in Jordan.

This paper has been divided into sections in which each is concerned with one problem. The following problems have been chosen to discuss: mental and practical phases of lexicology and their correlation with dictionaries, groups of dictionaries, their correlation with the target dictionary of this study, with concentration on the features of the target

المقدمة

المعجم هو المكنز اللغوي الذي يتضمن مفردات اللغة، يحصي منها ما تقع عليه الذاكرة اللغوية من ألفاظ. وهو المجال الذي يتسع للحدود القصوى الممكن الوصول إليها من مفردات اللغة، ويأتي على ما بين هذه الحدود من مفرداتٍ. هذا هو التصور العام للمعجم. وإذا كانت القواعد النحوية المحدودة هي التي تضبط النظام النحوي لبناء الجملة، فإن مفردات اللغة طيعة لهذا الحصر من أجل ذلك البناء، فهي على سعتها تقبل بأن تنطوي تحت عناوين محدودة، فهي أسماء وأفعال وأدوات. والأسماء على سعتها تقبل الحصر تحت عناوين محددة، فهي إما أسماء مشتقة وإما جامدة، وهي أسماء صريحة أو غير صريحة، وهي أسماء معربة أو مبنية، وهي مسندة أو مسند إليها، فكلما اتسعت اللغة بألفاظها وجدت النظام النحوي ضابطًا لوجودها في الجملة، فالألفاظ على سعتها محصورة بضوابطها. ومن هنا نعرف أهمية مرونة سعة الألفاظ في مقابل هذه الضوابط. ولما كان النحو والصرف هما المجالين اللذين يبحثان في ضوابطهما، فإن المعجم هو الذي يحفظ مادة اللغة الأساسية وهي الألفاظ.

هذا البحث مبني على محورين أحدهما العمل المعجمي وعلاقته بالتخطيط، والآخر تطبيق قواعد العمل المعجمي على معجم ألفاظ الحياة العامة في الأردن، ومدى التزام هذا المعجم بضوابط العمل المعجمي. لقد كان في هذا المعجم اجتهادات عديدة، وهي قابلة للنقاش. وقد خالف هذا المعجم الطرق التي كانت متبعة في إعداد المعاجم من قبل، خالفها في أشياء، ووافقها في أشياء أخرى. وربما

كان الاجتهاد في طريقة ترتيب المادة داخل الحقل الواحد أجرأ هذه الاجتهادات، فهمزة الوصل ليست من حروف المعجم، ولكنها عُدّت وكأنها من حروف المعجم. ومثل ذلك ما عوملت به همزة القطع المزيدة على الأصل، فقد عُدّت هذه الهمزة وكأنها من أصول الكلمة. وهو بذلك يسير على نسق معاجم اللغات الأوروبية، وهي خطوة لها ما يسوّغها في هذا المعجم.

وقد أغفل المعجم بعض الموضوعات مثل الألوان والدراما والنشرة الجوية. أما الألوان فقد ذكر القليل منها في أماكن متفرقة، مع أن مفردات هذا الموضوع جارية بكثرة على ألسنة الناس في حياتهم اليومية في الأردن. وقد أغفل موضوع الدراما فلم يجعل له مجالًا خاصًّا، على ما نعرفه من اهتمام الناس بالدراما، وجعل الأرصاد الجوية ضمن مجال العلوم، وكان وضعها مستقلة بمجالها أولى من تضمينها في مجال العلوم.

مشكلة الدراسة

استنادًا إلى العلاقة القوية بين إعداد المعاجم الوظيفية والموسوعية من جهة، والتخطيط اللغوي من جهة أخرى، وتبعًا لما يترتب على تلك العلاقة من أهميةٍ في بناء معجم لألفاظ الحياة العامة في الأردن، فقد صيغت مشكلة الدراسة على النحو التالي: العمل المعجمي بين النظرية والتطبيق- دراسة تطبيقية على معجم ألفاظ الحياة العامة في الأردن.

الدراسات السابقة

أجريت دراسات على هذا المعجم، اطلعت على اثنتين منها هما:

١ . دراسة الدكتور جعفر عبابنة ذات العنوان: معجم ألفاظ الحياة العامة– ما له وما له عليه. نشرت هذه الدراسة في أعمال الموسم الثقافي لمجمع اللغة العربية الأردني، لسنة ٢٠١٥. وفيه استعرض الدكتور عبابنة المنطلقات العلمية التي بُني عليها هذا المعجم، وهي إشكالية التفريق بين الألفاظ العامة والعامية، والألفاظ العامة والخاصة. واستقرأ الدكتور عبابنة بعض الألفاظ العامية التي كان واضعو المنهج قد نصّوا على أنهم سيتجنبونها. وتوقف الدكتور عبابنة عند مسائل كثيرة من مزايا هذا المعجم، وبعض الهنوات التي كان من الممكن تجنبها.

٢ . دراسة الأستاذين وليد العناتي، وسهى نعجة ذات العنوان: "معجم ألفاظ الحياة العامة في الأردن– دراسة لسانية معجمية". ونشرت في المجلة الأردنية للغة العربية وآدابها، المجلد الخامس، العدد الثاني، ٢٠٠٩.

هدفت هذه الدراسة إلى الوقوف على إيجابيات هذا المعجم وسلبياته وفق النظرية العامة في بناء المعاجم اللغوية. وهو الهدف الذي سعى الدكتور عبابنة إلى تحقيقه في الدراسة السابقة، وتسعى دراستي هذه إلى تحقيقها كذلك.

المطلب الأول: التخطيط والعمل المعجمي

التخطيط اللغوي مجموعة من العمليات العلمية التنفيذية المستمرة التي تتعلق بوجود اللغة، ويجمعها هدف واحدٌ هو الحفاظ عليها في حاضرها ومستقبلها. هذا هو التصور العام لمفهوم التخطيط اللغوي. تتحقق هذه الرؤية في عدد من

الإجراءات والخطوات العلمية العملية هي: دراسات علمية محدّدة تصوّر واقع اللغة في المجتمع، وتحديد المعايير والوسائل التفصيلية التي تصل إلى هدفها في أن تكون اللغة الأمّ هي لغة الخطاب في الاجتماعات، وفي وسائل الإعلام، وفي الاجتماعات الرسمية وشبه الرسمية والخاصة، وفي الندوات، والإعلانات، والزيارات الرسمية، والمخاطبات المكتوبة، وفي التعلم والتعليم في جميع المراحل الدراسية. لهذا كان التخطيط اللغوي عملية دائمة يتولاها كل جيل بما يناسب التطور الحضاري والاجتماعي، فقيام جيل بما عليه بمقتضى تلك الخطط لا يُعفي الأجيال اللاحقة من القيام بواجبها.

ولمّا كانت اللغة هي هوية المجتمع فمن الطبيعيّ أن يكون من مقتضيات التخطيط أن تكون الدولة نفسها هي التي تنفذ سياسة هذه الهوية في الداخل والخارج، باللغة الرسمية للبلاد، ليس بسبب أنها تحكم ذلك المجتمع فقط، ولكن لأن التمسك بها تمسكٌ بالوجه الحضاري للأمة، وصورة من صور الحِفاظ على هذا الوجه. إن المجتمع والدولة هما قطبا الحضور الوجودي والسياسي للأمة، ومسؤوليتهما مشتركة في التخطيط والتنفيذ، كُلٌّ بما هو مُتاحٌ له في التشريعات والقوانين الخاصة بالتخطيط اللغوي المستمر.

ليس الحفاظ على اللغة مطلبًا اختياريًّا، ولكنه مطلب وجوديّ، يرتبط وجوده بالوجود الحيوي المؤثر للأمة. إن الحفاظ على اللغة، وحمايتها من أن تحلّ الألسنة الأخرى محلها لا يكون بغير التخطيط العلمي. هذا لا يعني أن تغلق الأمة باب

لغتها في مواجهة محيطها وعصرها، ولكنه يعني أن التعايش مع الحاضر لا ينفصل عن التاريخ الحضاري للغة.

"هناك مشكلات كثيرة تواجِهُ اللغة العربية، بخاصة في عصر العولمة الذي أصبحت فيه اللغة الإنجليزية هي اللغة الأولى التي تنافس العربية في المجتمع العربي. ومما يقتضيه التخطيط اللغوي وضعُ خطط لغوية لمعالجة هذه المشكلات، إلى جانب اللهجات المحلية التي تستعمل للتداول اليومي، بالإضافة إلى الاتجاهات السلبية نحو استعمال العربية الفصيحة في التخاطب اليومي، إلى جانب التحدي العلمي، وعُسر المناهج التعليمية في المدارس"[١]. هذه المشكلات لا يمكن حلها دون تخطيط علمي قائم على دراسات مسحية تشخيصية، وأخرى علاجية. ومما ينبغي أن يتضمنه التخطيط كذلك وضع الخطط والبرامج لإعداد معلمي اللغة العربية، وإكساب الطلاب الميل إلى قراءة الأعمال العربية الإبداعية ذات المستوى الرفيع.

إعداد المعاجم الكبيرة في العربية ليس بعيدًا عن التخطيط، فهو هدف من أهدافه، ونتيجة من نتائجه. كانت المعاجم الكبيرة في السابق مظهرًا من مظاهر النشاط العلمي الذي يؤديه عالم من علماء اللغة. وقد عهدنا علماء كبارًا، في القديم والحديث، يُعِدّ الواحد منهم بنفسه معجمًا، كما فعل الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٤هـ) صاحب العين، وابن منظور (ت٧١١هـ) صاحب اللسان، والزبيدي (ت١٢٠٥هـ) صاحب تاج العروس. وفعل مثل ذلك عدد من المحدثين منهم بطرس البستاني (ت١٨٨٣م)، صاحب محيط المحيط، وأحمد رضا (ت١٩٥٣م) صاحب

معجم متن اللغة. هذه الجهود الفردية ذات أثر ملحوظ في تكوين الوعي اللغوي العربي، سواء أكان التأثير واضحًا أم كان في حاجة إلى تفحص وتأمل، وإلى دراسات تسجل هذا التأثير.

تغيرت مظاهر الحياة، واتسعت فروع المعرفة أفقيًّا وطوليًّا، فصار إعداد بعض المعاجم والموسوعات العلمية في حاجة إلى جهود جماعية تسترشد بما جاء في المعاجم الكثيرة وسائر المراجع، والوظائف المتعددة التي ورثناها من التراث اللغوي والمعجمي.

أنشئت مجامع اللغة العربية، وعملت على تحقيق الأهداف التي حُدّدت لها بمقتضى قوانينها، فأخرجت عددًا من المعاجم ذات الفائدة للعربية، فقد أخرج مجمع اللغة العربية في القاهرة معجمين رائديْن، هما: المعجم الوسيط الذي نال شهرة واسعة في الأوساط اللغوية والتعليمية في البلاد العربية. ثم أصدر مجمع القاهرة أجزاء من المعجم الكبير، والعملُ مستمرٌّ في إنجازه. وكلفت حكومة قطر مجموعة من العلماء والمتخصصين تأليف معجم تاريخي، وما زال العمل جاريًا على إعداده. وفي الشارقة توجه مجمع اللغة العربية فيها إلى إعداد معجم تاريخي آخر للعربية، وما زال العمل جاريًا على إعداده كذلك. غير أنّ الأمة الواحدة تحتاج إلى معجم تاريخيّ واحد، تجتمع الجهود كلها على إعداده. فالمعجم التاريخي مختلف عن سائر المعاجم، من حيث الهدف الذي من أجله تُبذل الجهود، ومن حيث طريقة إخراجه، والمادة العلمية فيه. وقد يكون نجاح كلٍّ منهما أقل من النجاح الذي يمكن أن يتحقق له لو كان الفريقان فريقًا واحدًا، يبنيان معجمًا تاريخيًّا واحدًا.

تحرير المصطلحات

يتضمن عنوان المعجم ثلاثة مصطلحات صراحة أو ضمنًا يحسن الوقوف عندها، وهذا بيانها:

أولًا: مفهوم العموم

قد يوقِعُ عدم الإحاطة بالفرق بين العموم والشمول في سوء فهم، فتُسجَّل بمقتضى ذلك مآخذ على معجم ألفاظ الحياة العامة. فإذا لم يجد باحث في المعجم كلمة أو أكثر، كان ينبغي أن تكون فيه، قد يُصدر حكمًا بأن المعجم ناقص. يصدر هذا الحكم من صاحبه بسبب التداخل في فهم العموم والشمول؛ فالشمول من حيث الدلالة اللغوية أوسع من العموم، فكل شامل عام، وليس كل عامّ شاملًا. فمصطلح "الحياة العامة" حين يرد في سياق الحديث عن معجم يسجل ألفاظها، يدل على غالبية هذه الألفاظ.

أما مفهوم ألفاظ الحياة الشاملة فيدل على حصر مفرداتها، دون استثناء أيّ منها. بهذا المفهوم لم يتحقق بناء معجم من المعاجم العربية، ولا المعاجم الغربية. فقد استدرك المعجميون اللاحقون على الخليل بن أحمد، وزادوا عليه، واستدرك الزبيدي على صاحب القاموس المحيط في كتاب جليل القدر عنوانه: "التكملة والذيل والصلة". واستدرك المستشرق الهولندي دوزي (ت١٩٠٩م) على المعاجم العربية. فالشمول من حيث المبدأ مطلب نظري. أما إذا كان النقص في معجم الحياة العامة كبيرًا ظاهرًا، فأخشى أنّ هذا يُفقده العموم والشمول معًا، دون أن يُفقده كونه مفيدًا، وأنه أدّى في طريق العموم خطوات كبيرة.

بُني هذا المعجم على تقسيم ألفاظه على مجالات الحياة العامة. وللمجالات الكبرى فيه ألفاظ كثيرة تجعله معجمًا صغيرًا داخل معجم كبير هو معجم ألفاظ الحياة العامة.

ثانيًا: الألفاظ العامة والعامية

ثمة فرق كبير بين الألفاظ العامة والألفاظ العامية، فالأولى هي الشائعة على ألسنة الناس. وهذه قد يكون بعضها من العربية الفصيحة، مما لم يطرأ عليه تغيير، مثل: السماء والأرض، والليل والنهار، أو طرأ عليها تطور يسير لا يُدخلها في نطاق العامية، مثل عبارة: بدل فاقد، يريدون بها: بدل مفقود، أو مما استعارته العربية من غيرها من اللغات، فأبقته على ما هو عليه، أو أجرت عليه تغييرًا يسيرًا، مثل كلمتي "تلفزيون" و"تلفون"، أو ألبسته وزنًا عربيًّا، كما في: "تلفزة"، والفعل "تلفنَ": أجرى مكالمة هاتفية. وأما الألفاظ العامية فهي إما من الفصحى بتحريف شديد، كما في: مُقرطم، وأصلها: مُقطّم، أي مقضوم أو مُقطّع. ومشرتح: ممزق. وإما لغات أخرى مثل: فاميليا، ومعناها: عائلة.

توجهت اللجنة المعجمية التي عُهِد إليها وضعُ خطة المعجم إلى أن يكون المعجم للألفاظ العامة، وتجنب الألفاظ العامية واللهجات المحلية. ومع ذلك تجد كلمات عامية في المعجم كما في: مُقرفش[٢]. وهو الذي اشتدت برودة يديه، وهي ليست في الفصيحة بهذا المعنى. والعوامّ يزيدون الراء في بعض الكلمات للدلالة على المبالغة أو التكرار، مثل: برطل، وأصلها بطل، فهي تدل على المبالغة في

الباطل. ومثل: طربق، للدلالة على المبالغة في ضرب الشيء وجَعْل بعضه مُطبَقًا على بعض.

ثالثًا: المعجم والقاموس

في بعض مراجع البحث معاجم تحمل كلمة (قاموس). القاموس في اللغة هو البحر الواسع والأبعد غورًا كالمحيط مثلًا. لم تكن المعاجم تسمى قواميس قبل القاموس المحيط للفيروزآبادي (ت٨١٧هـ). وقد جعل الفيروزآبادي لمعجمه هذا العنوان لكثرة غوصه في البحث عن المعاني الدقيقة لكثير من ألفاظه. وفي عهد غير بعيد كان العلماء والدارسون في الأزهر خاصة، يرجعون أكثر ما يرجعون إلى القاموس المحيط، وربما تداولوا عبارات تدل على ذلك، كأن يقول الواحد منهم: رجعتُ إلى القاموس، أو ما هو من هذا القبيل، الأمر الذي جعل بعض الناس يظنون أن القاموس معناه المعجم، حتى ظن كثيرون من واضعي المعاجم أنفسهم أن القاموس تعني المعجم، فأثبتوا هذا اللفظ في معاجمهم. وقد يثير هذا حفيظة بعض المتحفظين في القضايا اللغوية، فيحكمون بتخطئة تسمية المعجم قاموسًا. وربما أراد الشيخ أحمد رضا (ت١٩٥٣م)، أن يصحح المفهوم الذي قرّ في أذهان من يُخَطّئون تسمية المعجم قاموسًا حين عَنْوَنَ معجمًا له بـ"قاموس ردّ العامي إلى الفصيح". والصحيح أنه لا خطأ في هذه التسمية، لأن مصطلح القاموس انتقل إلى الدلالة على معنى المعجم. ولو أننا تتبعنا مصطلحات وألفاظًا كثيرة في مختلف العلوم، وسائر جوانب الحياة، لوجدنا أن دلالاتها قد انتقلت إلى دلالات أخرى، دون

أن نتسرع إلى تخطئتها. فانتقال معنى الكلمة إلى كلمة أخرى من قوانين التطور اللغوي.

المطلب الثاني: المجموعات المعجمية

للمعاجم تقسيمات متنوعة، فمنها ما يكون تقسيمه قائمًا على طريقة الاستعمال، ومنها ما يكون مبنيًّا على أساس المضامين العلمية. تقسم المعاجم بحسب مضامينها على ثلاثة أقسام هي: معاجم الألفاظ، ومعاجم المعاني، ومعاجم الموضوعات الخاصة. وهذا بيان ذلك.

أولًا: معاجم الألفاظ

هدف هذا النوع من المعاجم هو جمع ألفاظ اللغة، وذكر دلالاتها في سياقاتها المحفوظة أو المحدَثة. ومن أجلى فوائدها أنها تحفظ اللغة من الاندثار، وتظل رابطًا قويًّا للأجيال بعضها مع بعض. ولولا هذه المعاجم لما كنا قادرين على فهم كثير من الشعر العربي القديم، مثل كثير من شعر الأعشى (ت٧هـ)، والفرزدق (ت١١٠هـ)، وجـرير (ت٥١هـ)، والرّاجز رؤبة (ت٦٥هـ) وغيرهم من الشعراء المتقدمين. أمثلة هذا النوع من المعاجم في القديم: العين للخليل بن أحمد، ولسان العرب لابن منظور، والمعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية في القاهرة، والمعجم الكبير الصادر عن مجمع القاهرة كذلك. ومن أهم أمثلته المعجم التاريخي الذي يتتبع تاريخ الكلمة الواحدة من أقصى عمق لها في التاريخ، إلى آخر ما صارت عليه. وصلة معجم ألفاظ الحياة العامة في الأردن من أهم مصادر المعجم التاريخي.

ومن مزايا هذا النوع من المعاجم أنها تذكر لِلفظ شواهده من القرآن والقراءات القرآنية، والحديث النبوي، والشعر، وتعتني باللهجات العربية، وتقدم دلالات الألفاظ اللغوية في ماضيها والزمان الذي وضعت فيه، فهي – بسعة مجالات المادة المعروضة– أقرب إلى العمل الموسوعي. هذا النوع من المعاجم–بغض النظر عن الحجم والمقدار– هو الأصل في اللغات، وهي في العربية أصل كل عمل معجمي؛ لأن أيّ عمل معجمي لا بدّ أن يعتمد عليها.

ثانيًا: معاجم المعاني

تقدم هذه المعاجمُ المعاني على الألفاظ، بمعنى أنها تستجمع الألفاظ المتعددة التي تدور حول معنى واحد، كما في المخصّص لابن سيده (ت٤٥٨هـ) وهو أجمعُ هذه المجموعة وأوعبها. فائدة هذه المجموعة من المعاجم أنّ كثرة العَوْد إليها توسع نطاق الذاكرة، فتجعلها تتسع لعدد كبير من الألفاظ التي تشترك في معنى محوريّ واحد، وإن كان بينها اختلافات تفصيلية. ويفيد هذا المعجم كثيرًا في دراسة الفروق الدلالية بين الألفاظ المتقاربة أو ما يسمى المترادفة، والمتواردة. ويفيد كذلك في الدراسات المقارنة بين العربية وغيرها في مجال الدلالة المعجمية والتداولية.

ثالثًا: معاجم الموضوعات الخاصة

تضم هذه المجموعة معاجم مُتخصصة، في حقول المعرفة المختلفة، مثل: معجم الأخطاء الشائعة للعدناني الذي وضع فيه عددًا كبيرًا من الأخطاء اللغوية التي تشيع على ألسنة وفي وسائل الإعلام، وذكر وجه الصواب، واستدل على

التخطئة بما هو موجود في كتب التراث اللغوي، من قواعد وأقوال للعلماء، واستدل على تصحيحه بنصوص من القرآن الكريم والشعر وأقوال العلماء أيضًا.

ومن هذه المجموعة: القاموس القانوني الثلاثي لموريس نخلة ورفيقيه. ويعدّ هذا المعجم أوسع معجم قانوني وقفتُ عليه في القانون. وفيه مجموعة كبيرة من المصطلحات القانونية بلغات ثلاث هي العربية، والإنجليزية، والفرنسية. وفائدته كبيرة للمحامين والعاملين في المجال القانوني.

ومعاجم الأعلام ليست عملًا مُحْدَثًا في المعجمية العربية، فهو عمل قديم، فهناك معاجم عن النحاة، وأخرى عن الأدباء، وعن أعلام القرون. وفي العصر الحديث يتصدر معجم الأعلام للزركلي العمل المعجمي في الأعلام، فهو أشهرها، وأكثرها إتقانًا وإخراجًا في اختصار مفيد. ويتبعه في ذلك أحمد علاونة الذي سار على نَسَق معجم الزركلي، واستدرك عليه بجزءين، وله أعمال معجمية كثيرة منها: معجم صور الشعر بكلماتهم، ومعجم المعاقين من الأعلام العرب، ومعجم الأزواج العلماء، ومعجم الأعلام المتساوية من الرجال والنساء، ومعجم العلماء العرب ومكتباتهم، وغيرها من الأعمال المعجمية التي تعد توجهًا جديدًا في موضوعات المعجم العربي.

وهناك معاجم المصطلحات العلمية، وبخاصة تلك التي أصدرتها مجامع اللغة العربية، ومكتب تنسيق التعريب في الرباط. ومن هذه المجموعة أيضًا معاجم المقارنات السامية، مثل معجم المشترك اللغوي السامي والعربي ليحيى عبابنة، وتكملة المعاجم العربية لدوزي، ومعجم الشواهد النحوية لعبدالسلام هارون. وقد

ذكرتُ هذه المعاجم في هذا السياق؛ لأنّ لبعضها صلة بأهداف معجم ألفاظ الحياة العامة في الأردن، وهي جارية على ألسنة الناس في جوانب الحياة العامة في الأردن، ولكنّ المعجم الأردني لم يذكرها.

المطلب الثالث: معجم ألفاظ الحياة العامة

صدر عن مجمع اللغة العربية الأردني معجم الألفاظ الحياة العامة في الأردن سنة ٢٠٠٦. وهذا المعجم هو مركز هذا البحث ومحوره. جاءت فكرة هذا المعجم من طروحات وأفكار قدّمتها بعض المجامع إلى مجلس اتحاد مجامع اللغة العربية الذي عُقد في القاهرة بتاريخ ١٩٩٧/٣/٣٠، واتخذ المجمع القرار (٦) الذي جاء فيه: "تُكَلّفُ المجامعُ أن يُهَيّئ كلٌّ منها مشروع معجم لألفاظ الحضارة المتداولة في بلده، مع تعريف واضح لكل لفظ، وأن يُعنى بضبط الألفاظ، مع ترتيبها ترتيبًا هجائيًّا، ويقدّم مشروع المعجم إلى إدارة الاتحاد في القاهرة"[٣].

تبَنّى المجمع الأردني هذا القرار، وبدأ بتنفيذه، فكان ذلك إعمالًا للتخطيط اللغوي الشامل الذي من أجله تعمل مجامع اللغة العربية. هذا المعجم وخطة العمل التطبيقية فيه يصلحان أن يكونا قاعدة لمشروعات لغوية كبيرة، يفيد منها العلماء، ويفيد منها واضعو المناهج التعليمية، بل واضعو المعاجم الأخرى، ولها فوائد أخرى سيرد ذكرها لاحقًا.

كانت بداية العمل فيه بأن شكل مجلس المجمع الأردني لجنة من أعضائه أُطلق عليها: "لجنة مشروع معجم ألفاظ الحياة العامة"، تكون مهمتها وضع خطة عمل متكاملة لهذا الغرض[٤]. ثم وضعت الخطة موضع التنفيذ، وكُلفت لجان

أخرى من أساتذة الجامعات التالية: الأردنية، واليرموك، والهاشمية، ومؤتة، الإشراف على جمع الألفاظ المستعملة في الحياة العامة في محافظات المملكة، بطرق فنية موحّدة، حُدّدت لهم، حتى يكون العمل موحدًا، وحتى لا تؤدي الاجتهادات المتعددة إلى إعاقة العمل، أو اختلاف بعض ما فيه عن الأهداف المحددة له. بعد انتهاء العمل من جمع المادة اللغوية واستقرائها استقراء عامًّا، كُلفت لجنة علمية النظر فيها وتحريرها.

صُنّفت المادة المجموعة وَوُزّعت على مجالات الحياة العامة ومكوّناتها في الأردن، وأدخلت في الحاسوب. وهذا عمل أكبر من أن يقال فيه إنه "تحرير المادة العلمية"، وهو اللفظ الذي جاء في القرار. وقد جمعت اللجان الميدانية قدرًا كبيرًا من الألفاظ، استُصفي منها بعد حذف المكرر، ما يقرب من خمسة وعشرين ألف لفظ، موزعة على أربعة وأربعين مجالًا تشمل معظم مجالات الحياة العامة في المملكة.

ومما ظهر في أثناء جمع ألفاظ الحياة العامة، أنه كانت تأتي من الميدان إلى اللجان الفرعية في المحافظات كلمات تتكرر كثيرًا، وأخرى قليلة جدًّا، وكانت هذه اللجان ترسل المادة التي جمعها الباحثون إلى المجمع، ولم يكن إحصاء هذه أو تلك هدفًا من أهداف هذا المعجم، فحُذفت القسائم التي فيها تكرار، فاستوى الكثير مع القليل من حيث كونهما من كلمات الحياة العامة في هذا المعجم. كان ينبغي أن يشار إلى التكرار بطريقة فنية لا تخرج العمل عن هدفه. أو أن تحفظ هذه القسائم، لإجراء دراسات أخرى عليها. ولو أنها حُفظت لكانت مما يساعد على

العمل في دراسات أخرى، وفي صناعة أطلس لغوي لألفاظ الحياة العامة في الأردن.

لم تكن اللفظة الواحدة تحسب –في معجم ألفاظ الحياة العامة– باعتبارها من كلمات المدينة أو الريف أو البادية، وظهر المعجم في صورته النهائية على هذا الأساس، مما يعني أن نتائج علمية كثيرة، كان يمكن أن يُتَوَصّل إليها عن طريق هذا التوزيع. في المدينة كلمات لا تجد سبيلًا إلى ألسنة أبناء الريف أو البادية، وفي الريف والبادية كلمات لولا الكيفيات التي يعمل بها الثبات في مواجهة التطور الجارف لما وجدنا لهذه الكلمات أثرًا في المجتمع الأردني.

في الحياة العامة كلمات قديمة وأخرى جديدة، وعدم أخذ هذا الموضوع بعين الاعتبار أفقد العمل كثيرًا من النتائج العلمية التي يمكن أن يستفاد منها في أعمال علمية. لا أتحدث هنا عن طريقة النطق الفردية أو الجماعية للكلمة الواحدة، فكيف يُنطق صوت القاف في المدينة والريف والبادية، وكيف ينطق الكاف في هذه المآلات الجغرافية ليس له محل في هذا المعجم. أتحدث هنا عن كلمات قديمة تبقى مقابل أخرى تزول، فيحل محلها ألفاظ أخرى جديدة. ويستوي القديم والجديد في هذا المعجم، من حيث كونهما من ألفاظ الحياة العامة في الأردن. ولكـنّ هذا –وإن كان من مزايا هذا العمل– فإنّ ما يتجاوزه من الفائدة ليس قليلًا، عند الشروع في إعداد أطلس لغويّ لِألفاظ الحياة العامة في الأردن.

من الألفاظ القديمة التي ما زالت مستعملة في الحياة اليومية في الأردن كلمة الزنبق، فقد كانت مستعملة في الشعر القديم، وأثبتها معجم الحياة العامة، فقد وردت في قول الأعشى:

إذا تقومُ يضوعُ المسْكُ أصْورِة والزنبقُ الوردُ من أردانها شَمِلُ (٥)

ومثل ذلك قول المعْلَوّط:

وحَنّتْ بِقاع الشامِ حتى كأنما لأصواتها في منزل القومِ زنبقُ (٦)

هذا يدل على أنّ بعض ما نستعمله في الحياة العامة ضاربة جذوره في أعماق تاريخ العربية، وأنها برغم هذا التاريخ الطويل لم تتغير. أما ما هو مشترك بين الألفاظ العامة المعاصرة واللغات التي ترجع أصولها إلى جذور عربية فكثير كذلك، مثل اللغة الأكادية. من ذلك مثلًا كلمة: "كيس" يقابلها kiisu في الأكادية(٧)، وكلمة "كوب" يقابلها kuubu(٨)، وكلمة "قِربة" التي تقابلها كلمة kirippu(٩)، وكلمة "قش"، ونظيرها في الأكادية هو kishatu(١٠)، وكلمة "كشافة" التي يقابلها kashaaptu في الأكادية(١١). وهذه الكلمة الأخيرة تدل على أن الكشافة مفهوم قديم، واللفظ بمضمونه ما زال حيًّا إلى الآن، وإن كانت تفصيلاته تختلف بين هذا وذاك.

وقد بُني المعجم على أساس المجالات مرتبة ترتيبًا ألفبائيًّا، بمعنى أنك تجد الكلمة في المعجم، بحسب انتمائها إلى مجالها، وهي في مجالها مرتبة ألفبائيًّا. مثال ذلك أنك إذا أردت أن تبحث عن "إسقاط الجنسية" مثلًا، فستنظر في مجال "الأحوال المدنية" وستجدها هناك.

في المعجم أربعة وأربعون مجالًا مرتبة ترتيبًا ألفبائيًّا، هي:

١. الأحوال المدنية والجنسية
٢. الإدارة
٣. الأدب واللغة
٤. أدوات التنظيف
٥. الأراضي والعقارات
٦. الأطعمة والأشربة
٧. الإعلام: الصحافة، التلفاز، الإذاعة
٨. الأغراض الشخصية
٩. الأمن الداخلي والخارجي
١٠. الإنسان: أعضاؤه، صفاته، علاقاته الاجتماعية، حياته وموته...
١١. الإنسان الطفل
١٢. البريد والاتصالات
١٣. البناء
١٤. البيت: أثاثه، وأدواته ومرافقه
١٥. التأمين
١٦. التجارة والاقتصاد والمعاملات المالية
١٧. التجميل والزينة
١٨. التدخين

١٩. تنظيم المدن

٢٠. التنمية الاجتماعية: الجمعيات الخيرية ومؤسسات الأحداث

٢١. الثقافة والتعليم

٢٢. الحاسوب

٢٣. الحيوانات الداجنة وغير الداجنة: الثدييات، الزواحف والحشرات

٢٤. الدين الإسلامي

٢٥. الديانات الأخرى

٢٦. الرياضة والألعاب والترويح والملاهي

٢٧. الزراعة والنباتات والأراضي

٢٨. السحر والشعوذة

٢٩. السفر والسياحة والفندقة

٣٠. السياسة: الأحزاب، والبرلمان، والعلاقات الدولية

٣١. الصناعة والمهن

٣٢. الطاقة

٣٣. الطب الشعبي

٣٤. الطب والتمريض والصيدلة

٣٥. العلوم: الفيزياء، والكيمياء، والأحياء، والجيولوجيا

٣٦. الفنون: فنون جميلة، فنون شعبية، موسيقا وغناء

٣٧. القضاء

٣٨. القضاء العشائري

٣٩. الكتب والمكتبات والقرطاسية

٤٠. الكشافة والمرشدات

٤١. اللباس

٤٢. المختبر

٤٣. المواصفات والموازين والمقاييس

٤٤. المواصلات: البرية، والبحرية، والجوية.

أُلْحِق بهذا المعجم كشاف تفصيلي شامل للألفاظ كلها الموجودة في المعجم بمجالاته كلها، دون أن يكون ترتيبها في هذا الكشاف على نحو ما هو عليه في مجالات الحياة العامة –كما هو في المتن– فقد رتّبت الألفاظ كلها في هذا الكشاف ترتيبًا ألفبائيًّا، بغض النظر عن المجال الذي تنتمي إليه، وذُكر رقم الصفحة التي ورد فيها اللفظ. على أن أخطاء وقعت في إحالة الكلمة إلى الصفحة مثل كلمة ضريبة التي جاء في الكشاف أنها في ص٧٧٧، وليست موجودة في تلك الصفحة من المتن.

المطلب الرابع: الاختلاف بين معجم ألفاظ الحياة العامة وسائر المعاجم

العلاقة بين هذا المعجم والمعاجم الأخرى تتسع وتضيق بحسب درجة الصلة بين مجال هذا المعجم وسائر المعاجم، وينطبق ذلك على العلاقة بينه وبين مراجع أخرى غير المعاجم.

يختلف هذا المعجم في طريقة إعداد مادته، وفي منهجه وفي مادته، عما كان عليه الحال في إعداد المعاجم السابقة، فمراجع المعاجم غالبًا كانت تنطلق من الجهود العلمية السابقة المدوّنة من معاجم ومراجع علمية ولغوية أخرى، فكل معجم لاحق كان يعتمد على ما سبق من هذه الجهود المدوّنة، إلا الأولين السابقين الذين كانوا يأخذون اللغة من أفواه أصحابها، ومنهم الخليل بن أحمد الفراهيدي. أما معجم ألفاظ الحياة العامة في الأردن فمرجعه هو الميدان، والميدان واسع يتضمن المناطق الإدارية كلها في المملكة. فألفاظ الحياة المستعملة بين الناس دون غيرها هي مادته. ولذلك يُعدّ هذا المعجم عملًا تسجيليًّا لواقع ألفاظ الحياة العامة. وبهذا يظهر أن هذا المعجم مختلف عن المعاجم الأخرى في طريقة الحصول على مادته وشرح ألفاظه.

هناك كلمات في هذا المعجم، ذكرتها معاجم أخرى، مطابقة لما هو موجود في ألفاظ الحياة العامة في الأردن، وهذا كثير في هذا المعجم. لكنّ كلمات أخرى كثيرة واردة في معاجم ومظانّ أخرى، لم يَرِدْ لها ذكر فيه، مع كونها مطابقة لما هي عليه في الحياة العامة في الأردن، من أمثلة ذلك ما يأتي:

١. الخبير القضائي: شخص خبير بتقدير الأضرار المادية أو المعنوية، أو المنافع التي يطالب بها طرف من طرفي الدعوى، وتعهد إليه المحكمة –باختيار الطرفين أو أحدهما مع موافقة الآخر، وقد تختاره المحكمة– ليقدّر تلك الأضرار أو المنافع التي يطالب بها ذلك الطرف.

٢. تقرير الخبير القضائي: التقرير الذي يقدمه الخبير القضائي إلى المحكمة ببيان الأضرار المادية والمعنوية التي تلحق بالمدّعي من قِبَل المدّعى عليه، أو بالمنافع التي يطالب بها، وتستأنس المحكمة بالتقرير، وهي غير ملزمة به، إلا إذا كان قطعيًّا لا مجال للشك فيه(١٢).

٣. تقطيع الحجارة: جاء في ترجمة سعيد الهذلي (ت١١٠هـ) في الأعلام للزركلي: "....كان نقّاشًا....فإذا أقبل المساء رفع صوته بالغناء، فيتسارع إليه فتيان قريش، فيساعدونه في تقطيع الحجارة"(١٣).

٤. خبرة قضائية: مهمة يُكلف بها بعض الأشخاص المتخصصين –يُسَمّوْن الخبراء– لتقدير معلومات ربما لا تتوافر للقاضي نفسه(١٤).

٥. دعوى حقوقية: دعوى متعلقة بحق شخصي مُدَّعى به من قِبل شخص طبيعي أو معنوي، لدى شخص طبيعي أو معنوي آخر.

٦. دعوى عدم الاختصاص: دفْعٌ يقدّمه أحد طرفي الخصومة بأن المحكمة التي تنظر في القضية التي هي محل النزاع أو التقاضي ليست مختصة بالنظر في مثل القضية التي تنظر فيها. وقد يكون إعلان عدم الاختصاص صادرًا من قِبل المحكمة.

٧. رأس العين

يرد هذا الاستعمال في الحياة اليومية اسمًا لمنطقة، وهو وارد بهذه التسمية في عدد من البلاد العربية. وهذا يستدعي أن يكون هذا الاسم مدوّنًا في السجلات

الرسمية، وغير الرسمية المتعلقة بهذه التسمية. وقد جاء هذا التركيب في بيت الأعشى فقال(١٥):

حلفتُ لكمْ على ما قد نعَيْتُم برأسِ العينِ إنْ نفضَ السّقاما

المطلب الخامس: البنية المعجمية لمعجم ألفاظ الحياة العامة في الأردن

يتناول هذا المطلب قضية البنية المعجمية لمعظم ألفاظ الحياة العامة في الأردن، فهو يدرس هذه الألفاظ باعتبار ألفاظها وما شُرحت به. وهذا بيان ذلك:

أولًا: الألفاظ

من المعلوم أن موئل الكلمة في معاجم الألفاظ يكون تابعًا لجذره، أي أن هذا الصنف من المعاجم تطبيق عملي لظاهرة الاشتقاق، بل إنه يجعل الاشتقاق ماثلًا في أذهاننا كلما رجعنا إلى المعجم. فإذا أردت أن تعرف معنى كلمة "اقتفاء الأثر" من المعجم الوسيط مثلًا، فستذهب إلى الجذر الثلاثي "قفو"، ثم تنظر في ما يشتق من هذا الأصل، إلى أن تصل إلى هدفك في موقعه من الكلمات التي اشتقت منه. أما معجم ألفاظ الحياة العامة فالكلمة تطلب من المجال الذي تنتمي إليه. ولذلك وردت عبارة اقتفاء الأثر في "الكشافة والمرشدات"(١٦). وهو بذلك يقيس على ما تسير عليه المعاجم الغربية، ومنها الإنجليزية والفرنسية والألمانية.

نتج عن ذلك أنه لما لم يعد الجذر اللغوي هو المتبع في هذا المعجم، نشأت مشكلتان تتعلقان بما يأتي:

١. مواضع الكلمات التي تبدأ بهمزة وصل، وليست أصيلة في جذرها، ولا هي من حروف المعجم أصلًا. ولبيان ذلك لنعد إلى كلمة "اقتفاء" التي ذكرناها آنفًا. أين

يكون ترتيب هذه الكلمة في موضوعها في هذا المعجم؟ عاملت اللجنة همزة الوصل في بداية الكلمة، وكأنها همزة قطع أصلية في الجذر الثلاثي. وهذا لا يرد في معاجم الألفاظ القديمة ولا الحديثة. وقد ورد مثل ذلك في مواطن كثيرة جدًّا في معجم هذه الدراسة، مما يعني أن همزة الوصل عوملت في هذا المعجم معاملة همزة القطع الأصلية، وكأنها من الجذر الثلاثي في معاجم الألفاظ. فَعل مثل ذلك في كلمات كثيرة منها:

- اكتساب جنسية الأم[١٧].
- اتصال عبر الأقمار الصناعية[١٨]، واتصال عبر الألياف الضوئية، واتصال عبر الهاتف.
- ازدحام، استثمار ... استثمار أجنبي، استثمار تلقائي، استثمار مختلط[١٩].
- استثناء خاصّ[٢٠].
- استشراق، واستطراد، واستفهام[٢١].
- استفتاحية[٢٢].
- استقلال[٢٣].
- استكشاف[٢٤].

٢ - ترتيب مواضع الكلمات التي تبدأ بهمزة قطع زائدة، فهي ليست من أصول الجذر. وعلى ذلك جاءت الكلمات الآتية في معجم ألفاظ الحياة العامة: ١. إرسال ٢. إرشاد ٣. إزاحة، مرتبة على النحو الذي يدل عليه ترتيبها الرقمي. لكنها في المعجم الوسيط تكون مرتبة على النحو التالي: رسل، رشد، زيح، فكلمتان منها

تُطلبان من حرف الراء، والكلمة الثالثة تُطلب من حرف الزاي في المعجم الوسيط. إني أعدّ الترتيب الذي اختاره معجم ألفاظ الحياة العامة اجتهادًا. ومهما يكن من أمر فإن الجمع بين المعجم والاشتقاق إبداع، بل إن ذلك يشهد للمعجميين العرب بدقة جمعهم بين الأشياء. ولو كان هذا في زماننا لعُدّ من أعظم اكتشافات ترتيب المعاجم، بل الاكتشافات العلمية اللغوية عمومًا.

على الرغم من أن هدف المعجم كان محدّدًا من البداية، وهو تدوين ما هو مستعمل في الحياة العامة، فإنه كان يتجاوز ذلك بطريقتين:

أولاهما أنه كان يذكر بعض الكلمات العامية، على الرغم مما جاء في المقدمة من أن المعجم سيكون في منتأى عنها. جاء ما يخالف هذا من وجهين ١. أنه استعمل كلمات عامية، مثال ذلك كلمة: مُعَضرط[٢٥]، وهي صفة الخبز الجاف أو اليابس. كان من المتوقع أن يخضع مثل هذا اللفظ لتقدير اللجنة. ٢. أن اللجنة ربما تكون قد اضطرت لتدوين هذه الكلمة باعتبارها واردة من الميدان، وهي حريصة على المعنى لا على اللفظ. إذا كان هذا المتوقع هو الصحيح فإن عبارة "خبز مقرقد" منتشرة جدًّا في المجتمع الأردني، فهي أولى بالتدوين من تلك. ولكن معجمنا أثبت ما هو خلاف الأولى. وقد أثبت دوزي في تكملة المعاجم العربية عبارة "خبز مقرقد"[٢٦]. ومن ذلك أيضًا كلمة "قرقش" التي تعني: قضم، فهي كلمة عامية وقد أثبتها دوزي أيضًا في معجم تكملة المعاجم العربية[٢٧].

وثانيتهما أنه لم يسجل كلمات مستعملة بكثرة في الحياة العامة، مثل: ترمس، وفقوس، وجعابير (من فصيلة الفقوس)، وعجّة، وقد وردت الكلمة الأخيرة بمعنى

العجاج في معجم ألفاظ الحياة العامة، ولم ترد بالمعنى الدال على نوع من الطعام مشهور في الأردن وفي بعض البلاد العربية، ومثل ذلك كلمة (القوارض) فإنها لم ترد في هذا المعجم، ولكنها جاءت في تكملة المعاجم[٢٨]. ومن الكلمات المشهورة على ألسنة الناس، ولم ترد في معجم ألفاظ الحياة العامة الكلمات الآتية: خيانة عظمى، دعوى الذم والقدح، تقاعد مبكر، مكافحة الفساد، الدوام الرسمي، إذن مغادرة، ممثل رسمي، ممثل دولي، خشبة المسرح، جبنة نابلسية، جبنة عكاوية، جبنة أريش، جبنة صفراء، رخام صحراوي، مكافحة المخدرات.

في تقدير أوّلِيّ جاء معظم المنجَز من الألفاظ العامة في هذا المعجم مركبًا من كلمتين أو أكثر. من حيث المبدأ لا مانع من ذلك، إلا إذا كان التركيب يكفي فيه كلمة واحدة، أو أن جزءَي المركب ينبغي أن يكون كل واحد منهما مستقلًّا بنفسه وتعريفه، من أمثلة ذلك:

١. إسقاط الجنسية[٢٩]. هذا التركيب يتضمن مصطلحين مختلفين، أولهما الجنسية، وثانيهما إسقاط الجنسية. وقد كان من الأصح أن تستقل "الجنسية" بموقعها وتعريفها فيه، ثم يستقل المصطلح وهو: إسقاط الجنسية، ويستقل بتعريفه. بغير ذلك يكون التعريف "إسقاط الجنسية" مبنيًّا على سابقٍ لم يُعَرّف.

٢. أمين مكتب الأحوال المدنية[٣٠]: كان يتوقع أن يكون هذا التركيب ثلاثة مصطلحات هي: أمين التي تعني في هذا السياق: "مدير"، ومكتب الأحوال المدنية، وأمين مكتب الأحوال المدنية. فهذه مصطلحات ثلاثة كان يحسن أن يكون كل واحد منها مستقلًّا بنفسه، مستقلًّا بتعريفه.

٣. أمين السجل المدني[٣١]: هذا المصطلح مكون من مصطلحين، كان كل واحد منهما حرِيًّا أن ينفرد بنفسه وشرحه: السجلّ المدني، وأمين السجل المدني.

٤. تأمين الخسائر المترتبة على عطب المكائن[٣٢]: هذا التركيب المكوّن من ست كلمات كان يحسن أن يُوزع على ثلاثة مصطلحات يستقل كل واحد منها بنفسه وشرحه، على النحو التالي: تأمين الخسائر، خسائر العطب، عطب المكائن.

٥. خبير تسوية التعويضات[٣٣]: هذا التركيب يتضمن ثلاثة مصطلحات كان يحسن أن يستقل كل واحد منها بنفسه وشرحه: التسوية، خبير التسوية، التعويضات.

وأمثلة هذا أكثر من أن نحصيها في هذا السياق.

ثانيًا: الشرح

لغة التعريف في هذا المعجم دقيقة، منضبطة، لا يوجد فيها زيادة تُمِلّ، ولا نقص مخِلّ. هذا هو الطابع الأساسي لهذا المعجم. ولكن بعض التعريفات زاد ما فيها على ما ينبغي أن يكون، وهو قليل على كل حال. من ذلك ما جاء في تعريف كلمة "زاوية" وهو: "أداة مكونة من ضلعين زاويتهما قائمة، تستخدم في أعمال البناء المختلفة كالنجارة والحدادة وغيرها. وقد تكون من الحديد، أو الخشب، أو الألمنيوم. وتطلق على ركن البيت، وعلى مكان التقاء جهتين من الحائط في الغرفة"[٣٤]. هذا التعريف فيه فضل كلام، وضم مادتين أخريين إلى أصل المادة. فعبارة: "وقد تكون من الحديد أو الخشب أو الألمنيوم" ليست من التعريف، فالمادة التي صنعت منها الزاوية ليست جزءًا من الزاوية نفسها، فهذا فضل كلام.

وأما عبارة "وتطلق على ركن البيت، وعلى مكان التقاء جهتين من الحائط في الغرفة" فتتضمن ثلاث مواد متفرعة عن كلمة "زاوية" وحق كل واحدة منها أن تستقل بنفسها لفظًا وشرحًا، على النحو التالي: زاوية البيت، وزاوية الجدران، وزاوية الحائط. على أن عبارة "مكان التقاء جهتين من الحائط في الغرفة" غير دقيقة، والصواب أمران هما: مكان التقاء الجدارين في الغرفة. هذا التعريف ينطبق فقط على الزاوية التي تكون بين جدارين متجاورين متعامدين في الغرفة. وأما زاوية الحائط فيحسن أن يكون تعريفها هكذا: مكان التقاء جهتين متجاورتين في الحائط.

من أساسيات تعريف المصطلح أن يكون كل تعريف أو شرح خاصًّا بشيء واحد فقط، فإذا انطبق هذا التعريف أو الشرح على شيء آخر، فغير صحيح. وقد ورد مثل ذلك في معجمنا هذا في تعريف القدوم "إحدى أدوات البناء التي يستخدمها الحداد أو غيره في أثناء العمل، وهي تستخدم للطرق والدق"[٣٥]. هذا التعريف ينطبق تمامًا على الشاكوش. لذا، يحسن إعادة النظر فيه.

المطلب السادس: الغريب في معجم ألفاظ الحياة العامة

ليست كلمة "الغريب" غريبة على كثير من المتخصصين في العربية، حتى صار الموغل في الغرابة محل تندر عند بعض الناس. وقد وضع بعض العلماء المتقدمين كتبًا نفيسة في هذا الموضوع. والغريب من الألفاظ عندهم ما لم يكن مستعملًا في زمانهم. أما هذا المعجم فدلالة الغريب –عند النظر فيه– ستة أنواع:

غريب بمعنى أنه ليس موجودًا في أي منطقة من مناطق المملكة، وهذا يتفق بصورة أو أخرى مع المفهوم العام للغريب. وقد تجاوزه هذا المعجم، فليس فيه شيء

من ذلك. فكل ما فيه من ألفاظ جاءت من الميدان، فانتفى بذلك أن يكون أيّ لفظ فيه غريبًا في مناطق المملكة كلها.

وغريب في منطقة أو أكثر، ولكنه مستعمل في سائر مناطق المملكة. وهذا كثير، فبعض ما هو موجود في البادية غريب عند أبناء المدينة، وبعض ما هو موجود في المدينة غريب عن أبناء الريف والبادية.

وغريب باعتباره من مصطلحات مهنة معينة، أو تخصص من التخصصات التي كانت جزءًا من ميدان العمل للمعجم. من ذلك مثلًا كلمة "شِلمون" وهي كلمة يستعملها الصاغة لتصليح بعض القطع الذهبية ورأب كسرها أو لحمِه، فقد تجد أناسًا لم يسمعوا بهذه الكلمة طوال حياتهم، لأنها من أدوات الصاغة فقط. هذا لا ينقض كونها من الكلمات المستعملة في الحياة العامة، مع كونها في الوقت نفسه من الغريب على أكثر الناس. ومثل ذلك كلمة "ثودولايت" وهي من الآلات التي يستخدمها المساحون، ولا يعرفها أكثر الناس كذلك، فهي إذن من الغريب بالمدلول الذي ذكرته. لكن ذلك لا ينفي عن المجتمع تقصيره باستخدام كلمات أجنبية. هذه الكلمة عبرية، وكان يحسن أن تتجاوزها اللجنة لأن في العربية ما هو أدق منها وأحسن وهو "اللحام". صحيح أن هذا اللفظ مصدر، لكنّ العربية تستعمل المصدر للدلالة على الصفة الجامعة، مثل: "رُكّعٌ وسُجود". فكلمة "سجود" جمع، ولكنها تدل على صفة جامعة وهي أنهم "ساجدون".

وتجري هذا الكلمة على ألسنة بعض العوام للدلالة على ما يسمونه: مصّاصة العصير. وكان على اللجنة أن تسقط هذه الاستعمالات.

وغريب باعتبار عدم شيوع بعض الألفاظ مقابل ألفاظ أخرى أكثر شيوعًا، مثال ذلك الكلمتان: كابح وبريك. الكلمتان مستعملتان في الحياة العامة في الأردن، وقد ذكرهما معجم هذه الدراسة. لكن الكلمة الأولى أقل استعمالًا من الثانية، مما يشير بوضوح إلى تقصير المجتمع في نشر الكلمات الفصيحة واستعمالها في الحياة اليومية، وتركِ الكلمات الأجنبية ما دام في العربية ألفاظ تدل على مضامينها.

وغريب باعتبار أن بعض الكلمات والتعبيرات ترد بمعان متعددة، كلها تدل على معنى مركزي واحد، ثم يرد في المعجم على خلاف ما هو عليه في الميدان. من ذلك مثلًا أن اسم الفاعل "فاقد" يرد في استعمالات كثيرة منها: بدل فاقد، وفاقد مائي، وفاقد إنتاجي. هذه الاستعمالات واردة على ألسنة الناس كثيرًا، وتعني: بدل مفقود، ومفقود مائي، ومفقود إنتاجي، أي أن اسم الفاعل يؤدي الدلالة على المفعولية. وأصل هذا الاستعمال من العامية المصرية. ولكن معجم ألفاظ الحياة العامة جعله هكذا: بدل مفقود. هذا يعني أحد احتمالين أولهما: ربما لم تستسغ اللجنة هذا الاستعمال، فجعلته بدل مفقود، على نحو ما هو في الفصيحة، علمًا بأن له وجهًا في العربية الفصيحة. فإذا كان ذلك قد حدث فالأولى أن يُذكر في الشرح أن بدل فاقد تعني: بدل مفقود. والاحتمال الثاني أن تكون إحدى اللجان العاملة في المحافظات هي التي أحدثت هذا التغيير.

وغريب باعتبار أنه كان يستعمل في عهد قريب، ثم استبدل به غيره بسبب اكتشافات علمية جديدة. وهذا معروف في لغات الحوسبة، فلم تكد لغة من لغات

الحوسبة تأخذ طريقها إلى الاستقرار حتى تداهمها لغة أخرى، فتسقط السابقة تلقائيًّا، وتصبح من الغريب الذي لا يعرفه كثيرون.

المطلب السابع: معجم ألفاظ الحياة العامة في الأردن والأطلس اللغوي

الأطلس اللغوي مجموعة من الخرائط الجغرافية لدولة أو إقليم، تتضمن الظواهر اللغوية لتلك المآلات، مدوّنة عليها برموز معينة. ولما كانت الظواهر الصوتية يمكن أن تُحصر في موضوعات ضيقة، فالأطالس اللغوية التي صدرت حتى الآن في الغرب خاصةٌ بالأصوات في دولة أو إقليم متقارب لغويًّا. ولكنّ بعض العلماء أصدروا أطلسًا دُوّنت عليه اللغات الإنسانية الموجودة في العالم الآن.

وضع أطلس للغة الإنجليزية في بريطانيا The Atlas of British English، رُصِدت فيه الظواهر الصوتية في الإنجليزية البريطانية، والخصائص الصوتية المميزة لكل لهجة في المملكة المتحدة. ووُضع الأطلس اللغوي لشمال القارة الأمريكية (الولايات المتحدة وكندا).

إن القسائم التي جاءت من الميدان تحمل ألفاظًا يُفترض أن فيها تكرارات قليلة أو كثيرة. هذا يساعد كثيرًا في بناء أطلس للألفاظ في الأردن. وبعبارة أخرى يمكن أن يعدّ هذا المعجم خطوة عملية في اتجاه بناء أطلس لغوي، بل هو نفسه صورة مكتوبة للأطلس، ولا ينقصه إلا أطلسة ما هو مكتوب فيه، إذا كانت القسائم ما زالت موجودة.

المشكلة الأساسية التي ما زال العلماء يبحثون عن حل لها هي كيف يمكن بناء أطلس للألفاظ من حيث كونها كثيرة تستعصي على الجمع في فئات قليلة؟ أودّ أن أبيّن في هذا السياق أن خطة إعداد أطلس للألفاظ في الأردن ربما يكون مجمع اللغة العربية الأردني سباقًا إليها، لأن العمل الذي سبق بناء المعجم، والألفاظ التي وصل إليها، بتكرارات كثيرة أو قليلة خطة أساسية في بناء الأطلس اللغوي، بشرط أن تكون القسائم التي كانت ترد من الميدان ما زالت موجودة.

المطلب الثامن: موضوعات لم تدخل في المعجم مع وجودها في الحياة العامة باستفاضة.

لم تدخل في المعجم موضوعات واسعة وهي:

١. الألوان لم تلق عناية كافية، فثمة ألوان كثيرة مستعملة في الحياة اليومية مثل: أبيض، وأبيض ناصع، وأبيض ثلجي، وأبيض فضي، وأبيض لؤلؤي، وأبيض سكري، وأبيض لبني.

وأحمر، وأحمر غامق، وأحمر خمري، وأحمر قاني، وأحمر ناري، وأحمر وردي، وأحمر فاتح، وأحمر ياقوتي، وأحمر قرميدي.

وأخضر يانع، وأخضر حشيشي، وأخضر فستقي، وأخضر زيتي، وأخضر بحري.

وأزرق فاتح، وأزرق سماوي، وأزرق غامق، وأزرق كحلي، وأزرق نيلي، وأزرق حبري، وأزرق توتي، وأزرق فيروزي، وأزرق بحري، وأزرق باهت.

وأسود قاتم، وأسود فحمي، وأسود كحلي، وأسمر، وفيراني، وسكني، ورمادي، وكالح.

وأخرى متفرقة مثل: أصفر صحراوي، وأصفر ليموني، وأصفر نحاسي، وذهبي، وترابي، وكستنائي، وخروبي، وحنطي، وبني غامق، وبني فاتح، وفيراني، وبيج، وكاكي، وعسلي، ولحمي، وبرونزي، وزهري، ووردي ونهدي وبنفسجي، وليلكي، وعنابي، وباذنجاني، وبرتقالي، ومشمشي. وغير ذلك مما هو في بابه كثير.

وقد وصفوا الألوان أوصافًا جامعة، يرد الواحد منها جامعًا لعدد من الألوان، مثل: ألوان أساسية، وثانوية، وزاهية، وباهتة، وغامقة، وفاتحة، وكالحة، وألوان قوس قزح.

وقد جعلوا بعض الألوان مُعبّرات عن معان كثيرة مثل: الأيام البيض، وابيضّ وجهُه، والجنس الأبيض، واسودّ وجهه، والقارة السمراء، ونفسه خضراء، وعينه زرقاء (حسود)، والخطوط الحمر، والخطوط الخُضر، ومرض الصفراء، والجنس الأصفر، الحياة ليست إما أبيض وإما أسود. وإشارة المرور الحمراء، والصفراء، والخضراء، وسمّوا بالألوان نباتات مثل: الزنبقة السوداء، والبحار: البحر الأبيض، والأسود، والأحمر، وسمّوا أنهارًا ببعض الألوان مثل: النيل الأزرق، والنهر الأصفر، وجعلوا بعض الألوان رموزًا لبعض الصفات المعنوية، فالأحمر عنوان القوة والتضحية والدماء، والأسود للحزن، والأبيض للفرح، والأخضر للنماء والخصوبة.

٢. خُصّص للغناء والموسيقا موضوع كامل في المعجم، وأُغفل موضوعُ الدراما. وذِكرُ بضع كلمات منها لا يكفي. ومن المعروف أن الدراما من أكثر المؤثرات في حياة فئات كثيرة من الشعب الأردني، بمختلف الأعمار والمستويات الثقافية والتربوية، بل إن بعضها كان سببًا في تغيير بعض القوانين.

٣. للأرصاد الجوية أهمية كبيرة في حياتنا، حتى إن كل إذاعة وكل محطة تلفزة وكل فضائيات العالم تهتم بالأرصاد وتخصص لها نشرة مستقلة. ويرد في بعض وسائل الإعلام تفصيل لبعض ما يكون من أحوال أو تقلبات جوية في فترة زمنية محددة، كأن تكون في كل أربع وعشرين ساعة أو أكثر. لم يخصص في هذا المعجم للأرصاد الجوية مجاله، وجاء ما جاء من ألفاظه في مجال العلوم.

٤. الأفراح والأعراس موضوع كبير في حياة المجتمع الأردني، وكان حَريًّا بأن يكون له باب خاصّ به، ولا يكفي أن ترد كلمات متفرقة في هذا الموضوع أو ذاك.

الخاتمة والنتائج

استعرضت هذه الدراسة قضيتين أساسيتين أولاهما العمل المعجمي وارتباطه بالتخطيط اللغوي، والمشكلات التي يعالجها. وثانيتهما العمل في معجم ألفاظ الحياة العامة الذي أصدره مجمع اللغة العربية الأردني.

تناولت الدراسة خصائص هذا المعجم وسماته الرئيسة، وقابلت بينه وبين خصائص المعاجم الأخرى. وقد استعرضت الدراسة الجوانب الإيجابية في هذا المعجم، وبعض المآخذ التي كان من الممكن –وما زال ممكنًا– تجنبها في طبعة أو طبعات أخرى. ووضحت الطريقة التي اعتمدها المعجم في اختيار الألفاظ التي وردت إليه من الميدان، وكيفية شرحها. وتناولت الدراسة كذلك مسألة الغريب في هذا المعجم، وصنفت الغريب ستة أصناف، ووضحت كل صنف شرحًا وتصنيفًا. وتعرضت الدراسة كذلك لبعض الموضوعات التي كان من الأفضل لو أن المعجم قد جعلها ضمن تصنيفه، ولكنه أغفلها، فسقطت مقادير متفاوتة –بحسب مجالاتها– من ألفاظها. غير أن الدراسة التفتت إلى العلاقة بين هذا المعجم والأطلس اللغوي، وبيّنت أنه على الرغم من صعوبة ترجمة هذه العلاقة في أطلس للألفاظ المستعملة في الحياة العامة في الأردن، فإنّ هذا المعجم خطوة عملية على طريق إعداد الأطلس اللغوي.

أما النتائج العامة التي توصلت إليها الدراسة فهي ما يلي:

أولًا: حدّدت الدراسة العلاقة بين المفاهيم المتقابلة: الألفاظ العامة، ومقابلتيها –باعتبارين مختلفين–: الشاملة والعامية. لم تكن اللجنة المكلفة بالإشراف على إعداد

هذا المعجم قد حدّدت بدقة العلاقة بين هذه المفاهيم، فحصل اختلاط بينها أدى إلى الوقوع في بعض الهفوات. وقد سارت الدراسة في وصفها لبناء المعجم على أساس هذا التفريق.

ثانيًا: وصفت الدراسة الألفاظ، وكيفية بناء المعجم عليها، ووصفت الشرح، وبيّنت ما له وهو كثير، وما عليه وهو قليل.

ثالثًا: وضحت الدراسة مفهوم الغريب في هذا المعجم وقسّمته على ستة أقسام.

رابعًا: أهم ما توصلت إليه الدراسة هو العلاقة بين هذا المعجم –موضوع الدراسة– والأطلس اللغوي، وقد يكون من القريب بإذن الله البدء بوضع تصور علمي للعمل في أطلسة هذا المعجم.

الحواشي والتعليقات

١. عبدالحق، فواز. "**دور التخطيط اللغوي في خدمة اللغة العربية والنهوض بها**" في: أعمال الموسم الثقافي السابع والعشرين لمجمع اللغة العربية، ٢٠٠٩، ص٨٤.

٢. مجمع اللغة العربية الأردني، **معجم ألفاظ الحياة العامة في الأردن**، ص٢١٩.

٣. المرجع السابق، ص (و) من المقدمة.

٤. المرجع السابق ، ص (ز) من المقدمة.

٥. قيس، ميمون (الأعشى) (ت٧هـ/ ٥٧٠م). **ديوان الأعشى**، تحقيق محمد محمد حسين. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣، ص١٠٥، والبيت من البحر البسيط.

٦. ابن منظور، محمد (ت٧١١هـ/ ١٣١١م). **لسان العرب**، تح عامر أحمد حيدر. دار الكتب العلمية بيروت، ٢٠٠٥ (زنبق). ولم أعثر على تاريخ وفاة الشاعر، والبيت من البحر الطويل.

٧. الجبوري، علي ياسين. **قاموس اللغة الأكادية– العربية**. أبو ظبي، هيئة الثقافة والتراث، ٢٠١٠، ص٢٧١.

٨. المرجع السابق، ص٢٧٥.

٩. المرجع السابق، ص٢٦٨.

١٠. المرجع السابق، ص٢٧٠.

١١. المرجع السابق، ص٢٥٨.

١٢. نخلة، موريس؛ روحي البعلبكي؛ صلاح مطر. **القاموس القانوني الثلاثي**. منشورات الحلبي، بيروت، ٢٠٠٢، ص٥٦٠، بتصرف يسير.

١٣. الزركلي، خير الدين (ت١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م). **الأعلام**، دار العلم للملايين، ١٩٩٩، ج٣، ص١٠٢.

١٤. نخلة، موريس، وآخران، القاموس القانوني الثلاثي، مرجع سابق، ص٧٦٩.

١٥. قيس، ميمون (الأعشى)، مرجع سابق (ديوانه)، ص١٩٧، والبيت من البحر الوافر.

١٦. مجمع اللغة العربية الأردني، مرجع سابق، ص١٢٨٩.

١٧. المرجع السابق، ص١.

١٨. المرجع السابق، ص٤٨٤.

١٩. المرجع السابق، ص٣٣٦.

٢٠. المرجع السابق، ص٣٣٦.

٢١. المرجع السابق، ص٢٦.

٢٢. المرجع السابق، ص٣٣٦.

٢٣. المرجع السابق، ص٣٣٧.

٢٤. المرجع السابق، ص١٢٨٩.

٢٥. المرجع السابق، ص٢١٧.

٢٦. دوزي، رينهارت (ت١٣٠١هـ/ ١٨٨٣م). **تكملة المعاجم العربية**، ترجمة محمد النعيمي. الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠١١. ج٨، ص٢٤٤.

٢٧. المرجع السابق، ج٨، ص٢٤٦.

٢٨. المرجع السابق، ج٨، ص٢٢٩.

٢٩. معجم ألفاظ الحياة العامة، ص١.

٣٠. المرجع السابق، ص١.

٣١. المرجع السابق، ص١.

٣٢. المرجع السابق، ص٣٢٨.

٣٣. المرجع السابق، ص٣٥١.

٣٤. المرجع السابق، ص٢٥٧.

٣٥. المرجع السابق، ص٧٢٨.

المراجع

١. الجبوري، علي ياسين. **قاموس اللغة الأكادية– العربية**. أبو ظبي، هيئة الثقافة والتراث، ٢٠١٠.

1. Al-Jboury, A,Yasin. Qamous al- lugha al-Akkadia Al Arabiyya. hay'at al -Thaqafa wal turrath, Abu Dhaby, 2010.

٢. دوزي، رينهارت (ت١٣٠١هـ/ ١٨٨٣م). **تكملة المعاجم العربية**، ترجمة محمد النعيمي. الدار العربية للموسوعات، بيروت ٢٠١١ .

2. Daozy, Rinehart. Takmilat al ma<aajem al <arabiyya. Tarjamet Mohammad al nu<aymy. Al Dar al <arabiyya lil mawsu<aat. Beirut, 2011.

٣. رضا، أحمد (ت١٣٧٢هـ/١٩٥٣م). **رَدّ العاميّ إلى الفصيح**. دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨١م.

3. Ridha, Ahmad (1372 AH/1953 AD). Raddul <aammiyyi ilal faSiih. Dar al raed al <arabiyy – Beirut, 1981.

٤. الزركلي، خير الدين (ت١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م). **الأعلام**، دار العلم للملايين، ١٩٩٩،ج٣.

4. Al-Zerekly, Khair al-Dien. Al- A<laam. Daar al-<ilm lil malayeen, 1999, V.3.

٥. عبابنة، جعفر. "**معجم ألفاظ الحياة العامة– ما له وما عليه** " في أعمال الموسم الثقافي الثالث والثلاثين لمجمع اللغة العربية الأردني، ٢٠١٥.

5. <abaabneh, Ja<far. “ mu<jam ‘alfaath al Hayaatil <aammah- maa lahu wamaa <alayhi “. Fii a<maal majma<il lughatil <arabiyya al Urduniyy, 2015.

٦. عبدالحق، فواز. "**دور التخطيط اللغوي في خدمة اللغة العربية والنهوض بها**" في: أعمال الموسم الثقافي السابع والعشرين لمجمع اللغة العربية الأردني، ٢٠٠٩.

6. <abdel Haqq, Fawwaz “ dawr al-takhTiiT al lughawi fii khidmatil lughatil <arabiyya wannuhuuDi bihaa “ fii ‘a<maal majma<il lughatil <arabiyya al Urduniyy, 2009.

٧. عناتي، وليد؛ وسهى نعجة. "**معجم ألفاظ الحياة العامة في الأردن– دراسة لسانية معجمية**" في: المجلة الأردنية للغة العربية وآدابها، المجلد الخامس، العدد الثاني،٢٠٠٩.

7. <anaatii, waliid & Suhaa na<jah " mu<jam alfaath al Hayaatil <aammah fil Urdunn – diraasah lisaaniyyah mu<jamiyyah, fii: al majjalatil Urduniyya lil lughatil <arabiyya wa Adaabahaa.

٨. قيس، ميمون (الأعشى). (ت٧هـ/٥٧٠م). **ديوان الأعشى**، تحقيق محمد محمد حسين. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣.

8. Qays, Maymoun (7 AH/570 AD) diiwaan al 'a<shaa. taHqiiq Mohammad M. Husein, mu'assatul risalah, Beirut, 1983.

٩. مجمع اللغة العربية الأردني. **معجم ألفاظ الحياة العامة في الأردن**. مكتبة لبنان، بيروت، ٢٠٠٦.

9. Majma<ul lughatil <arabiyyatil Urduniyy . Mu<jam alfaath al Hayatil <ammati fil Urdun. Maktabat lebnan, 2006.

١٠. ابن منظور، محمد (ت٧١١هـ/ ١٣١١م). **لسان العرب**. تحقيق عامر حيدر. دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥.

10. Ibn Mandhour, Mohammad (711 AH/1311 AD). lisan al <arab. taHqiq <aamer Haydar. Dar al kutub al ilmiyyah, Beirut, 2005.

١١. نخلة، موريس؛ روحي البعلبكي؛ صلاح مطر. **القاموس القانوني الثلاثي**. منشورات الحلبي، بيروت، ٢٠٠٢.

11. Nakhlah, Moris; Rohy al-ba<labakky; Salah Matar. Al-Qamous al-Thulathy. Manshourat al- Halabi, Beirut, 2002.

حسن البرقاوي
رائداً لنهضة اللغة العربية في الأردن ١٩٢٥-١٩٦٩م(*)

الأستاذ الدكتور سمير محمود الدروبي
جامعة مؤتة / قسم اللغة العربية
عضو مجمع اللغة العربية الأردني

ملخص

"حسن البرقاوي رائداً لنهضة اللغة العربية في الأردن ١٩٢٥-١٩٦٩م"

يهدف هذا البحث إلى دراسة جهود المعلم حسن البرقاوي في تدريس اللغة العربية في المدارس الأردنية، منذ قدومه إليها معلماً في عام ١٩٢٥م، وحتى تقاعده مفتشاً عاماً ١٩٦٠م.

لقد حظي البرقاوي بإعجاب الأردنيين وتقديرهم، منذ أن كان معلماً في مدرسة تجهيز الكرك لمدة ثماني سنوات، ثم في مدرسة تجهيز أربد لمدة ثلاث سنوات، ثم في مدرسة السلط الثانوية مدة ثمانية عشر عاماً تقريباً، حتى أصبح مفتشاً للغة العربية عام ١٩٥٥م إلى أن تقاعد عام

(*) بحث مهدى إلى أعضاء مجمع اللغة العربية الأردني من تلاميذ البرقاوي الذين رفعوا رايات دعوته إلى التعريب، وهم: أ.د.عبدالكريم خليفة، أ.د.عبدالكريم غرايبة، أ.د.عبداللطيف عربيات، أ.د.إسحق الفرحان، أ.د.إبراهيم زيد الكيلاني -رحمهم الله- وإلى أ.د.محمد عدنان البخيت، أ.د.فتحي الملكاوي -مدّ الله في أعمارهم- وإلى أ.د.همام غصيب الذي أفرد ملفاً تكريمياً خاصاً للبرقاوي، في المجلة الثقافية الأردنية الصادرة عن الجامعة الأردنية عام ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، العدد (٣٨).

١٩٦٠م. ولكن الرجل لم يتوقف عن تعليم العربية حتى آخر أيامه عام ١٩٦٩م.

لقد سعى هذا البحث إلى التعرف على الأسباب التي جعلت الأردنيين طلاباً ومجتمعاً ودولة، يقدرون أستاذهم ويبجلونه، ويحلونه المكانة اللائقة به في عالم التربية والتعليم، فكان أول معلم نال وسام التربية والتعليم من الدرجة الأولى، وسميت باسمه واحدة من كبريات المدارس الثانوية في العاصمة الأردنية عمان، إلى غير ذلك من ضروب التكريم. وحاول البحث الوقوف على أبرز جهود البرقاوي في خدمة اللغة العربية، والعمل على نهضتها في البلاد طوال مدة خدمته وبعدها، وعلى مواقفه المشرفة من قضايا اللغة العربية ودفاعه المستميت عنها.

وقد تناولت في هذا البحث ثلاثة موضوعات:

الأول- قدوم البرقاوي إلى الأردن وعمله معلماً في مدارس الكرك وأربد وعمان والسلط.

الثاني- ما حظي به البرقاوي من إعجاب الأردنيين وتقديرهم، مع الكشف عن الأسباب التي جعلتهم يجلون هذا المعلم، ويخلدون ذكره.

الثالث- جهود البرقاوي وأعماله التي خدم بها اللغة العربية في الأردن.

وأفاد هذا البحث من وثائق وزارة التربية والتعليم، ووثائق المكتبة الوطنية، وشهادات طلاب البرقاوي الأحياء، ومن المذكرات والسير الذاتية، والصحف والمجلات التي صدرت في عهدي الإمارة والمملكة، ومن النزر اليسير الذي وصل إلينا من كتابات البرقاوي ومقالاته، ومن الكُتيب الذي

أصدرته وزارة الثقافة في الأردن عام ١٩٩٠م، وعنونته بـ"حسن البرقاوي المربي والإنسان... ذكرى وتحية" وفيه شهادات بعض طلابه وزملائه وأغلبهم في ذمه الله. واعتمدت في كتابة هذا البحث المنهج التاريخي، علماً بأنني لم أتمكن من الإفادة من أكثر مقالات حسن البرقاوي التي نشرها في صحيفة الجزيرة لأنها لم تحوَّل إلكترونياً بالطريقة السليمة فجلّ أغلبها السواد وأُتلفت أصولها الخطية، أما مقالاته المنشورة في الصحف والمجلات السورية فلم نتمكن من الوصول إليها.

المبحث الأول- قدوم البرقاوي إلى الأردن، وعمله معلماً في مدارسها: الكرك، أربد، عمان، السلط

في سنة ١٩٢٥م اشتدت الثورة السورية الكبرى بقيادة سلطان باشا الأطرش اشتعالاً في جبل العرب، ثم امتد لهيبها إلى حماة وغوطة دمشق والجولان وحمص وغيرها من المدن والأرياف السورية، وازدادت الأوضاع المعيشية والأمنية سوءاً، فقرر البرقاوي في آخر تلك السنة مغادرة سورية، بعد أن قدم استقالته من مدرسة درعا بتاريخ ١٩٢٥/٨/٣٠م، ثم وصل إلى إمارة شرق الأردن، وعين فيها معلماً بتاريخ ١٩٢٥/٩/١٢م.

والبرقاوي المؤمن بضرورة العمل الجاد من أجل نهضة الأمة وتحقيق وحدتها، وجد أن الاستعمار الإنجليزي قد سخر كل سلطاته في خدمة المشروع الصهيوني، وعاف الإقامة في ظل غطرسة المنتدبين الفرنسيين وظلمهم، فتوجه إلى إمارة شرقي الأردن التي قامت قبل ذلك بثلاث سنوات، ورأى في أميرها عبدالله بن الحسين العربي الهاشمي، الأديب العالم، والسياسي المخضرم، أملاً جديداً في وحدة العرب ونهضتهم، وإعادة عزهم ومجدهم، بعد أن مزق الاستعمار الغربي بلادهم، ولم يفِ لهم بوعوده وعهوده في الاستقلال والحرية، وقام بملاحقة الأحرار في كل البلاد الشامية، وعاث فيها نهباً وإفساداً، وتقتيلاً وتشريداً، ونفياً وإبعاداً، وبخاصة بعد معركة ميسلون سنة ١٩٢٠م، إذ هدم الحكومة العربية، وحكم بالإعدام على رجالاتها، وأخرج ملكها وطارده في حوران، طالباً منه مغادرة سوريا فوراً[١].

١- انظر: **الزركلي**، خير الدين: **ما رأيت وما سمعت**، المطبعة العربية، مصر، ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م: ص٤؛ قدري، أحمد: **مذكراتي عن الثورة العربية**. ط١، مطابع ابن زيدون، دمشق، ١٩٥٦م.

ويبدو لي أن البرقاوي كان معجباً بدعوة الأمير عبدالله بن الحسين إلى نهضة العرب من ناحية، وبشخصيته الأدبية، وبراعته اللغوية، التي وصفها لنا عزت سعيد الصليبي قائلاً: "وكان فاتحة الخير قدوم المغفور له جلالة الملك عبدالله بن الحسين إلى الأردن، حامل لواء النهضة العربية الكبرى، ومحرر العرب، وكان -طيب الله ثراه- من عباقرة اللغة العربية والتركية، وناطقاً فصيحاً ملهماً قل نظيره، وكاتباً فذاً، وشاعراً مبدعاً، وصاحب ثقافة عالية، وكان محباً للعلم والعلماء، ويقدرهم حق التقدير..."[١]، علماً بأن الأمير عبدالله بن الحسين، كان دائم العناية باللغة العربية، ومن الأمثلة على ذلك أنه عندما أنجز بناء مدرسة السلط في العاشر من كانون الأول عام ١٩٢٥م، حضر حفل الافتتاح[٢]، وشاهد فيها الشروع في العملية التعليمية، وأكّد في ذلك اليوم التاريخي من حياة التعليم في إمارة شرق الأردن، على ضرورة الاهتمام باللغة العربية، وعلى السعي لإحيائها، وألقيت في ذلك اليوم القصائد الشعرية، وعرضت تمثيلية عربية[٣].

١- **محاسنة**، محمد؛ **الطراونة**، محمد، **الطراونة**، سليمان، **الكركي**، خليل، **مدرسة السلط (سيرة ومسيرة)**. ط١، عمادة البحث العلمي، جامعة مؤتة، الأردن، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م: ج٢، ص٦٥.

٢ - انظر: **المرجع السابق:** ج١، ص٨١-٨٢.

٣- انظر: **المرجع السابق:** ج١، ص٨٠-٨١.

وقد أصبح البرقاوي من المقربين[١] إلى أمير البلاد عبدالله بن الحسين فيما بعد، ونشر الأمير والبرقاوي كثيراً من مقالاتهم الأدبية على صفحات صحيفة الجزيرة، بل كانت مقالات الأديبين تحتل الصفحة الأولى منها أحياناً؛ لأن رئيس تحريرها تيسير ظبيان كان معجباً، ومقدراً لما يكتبه البرقاوي[٢]، حتى قال فيه: "وفي عمان كان -رحمه الله- يزورني في مكتب جريدة "الجزيرة"، ويتحفني بمقالاته وبحوثه، التي تنم عن اطلاع واسع، وثقافة عالية، ودراسات عميقة، فضلاً عما كانت تتسم به هذه المقالات والبحوث من ديباجة مشرقة، وأسلوب بليغ، لا يدانيه فيه أحد من كتاب ذلك العصر"[٣]. وبناءً على ما قاله ظبيان، فإن البرقاوي يعد رائداً من رواد الحركة الأدبية في الأردن، التي ساهم فيها بمقالاته ومساجلاته ومحاضراته.

وعلاوة على ذلك، فإن البرقاوي قد سمع بالنداء الذي وجهته حكومة شرقي الأردن لفتيان الأردن، ولفتيان البلاد العربية في ٢٠ رمضان سنة ١٣٤٣هـ/ ١٣ نيسان سنة ١٩٢٥م، ونُشر على صفحات جريدتها

١- انظر: **العناقرة**، محمد: "**من الرعيل الأول: حسن البرقاوي أستاذ الجيل الأردني**" مقالة منشورة في جريدة الدستور بتاريخ ٣٠ أيار ٢٠٠٩م.

٢- انظر: **صحيفة الجزيرة**، العدد (١٠٠٠)، ١٧ آب سنة ١٩٤٠م: ص١.

٣- **ظبيان**، تيسير: "**فقيدنا البرقاوي**"، ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)**، ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م: ص٥٠.

الرسمية التي قرأها البرقاوي، فوجد لذلك النداء القومي صدى عميقاً في نفسه المشرئبة لوحدة الأمة، والمؤمنة بقوميتها التي هي أساس نهضتها، ومما جاء في ذلك النداء الذي لباه البرقاوي على عجل، فَغذَّ المسير إلى عمان التي غدت قاعدة العروبة الجديدة، التي اقتلعت قبل ذلك بأربع سنوات من دمشق عاصمة العروبة والإسلام، أيام حكومة الملك فيصل بن الحسين، وكان نداء عمان لأحرار العرب بقلم محمد الشريقي، وهو من رجال النهضة العربية، يقول: "هذه بلادك مهوى أفئدة الناطقين بالضاد، ومشرق آمالها، يناديك (يرموكها) الذي كانت وقعته حداً فاصلاً لظفر العرب، وانتصار الشرق على الغرب، أن وثّق صلتك بالعالم العربي، واملأ قلبك بنور المحبة القومية المقدسة ورغبة الجهاد المدني، واغرس في نفوس إخوانك، عواطف الأمل المشترك بين الناطقين بالضاد، وبشر أينما كنت، وأيان استقمت بالروح العربي والثقافة العربية...ها هم الناطقون بالضاد ما زالوا على عتبة النهوض القومي الحديث...ارفع العلم: علم العلم والعمل والإيمان الوطني وعلم المدرسة..."[١].

لقد كان حدس البرقاوي صائباً في أن إمارة شرق الأردن، هي أنسب البقاع لإقامته، ونشر علمه ومعرفته، وحمل رسالته التربوية لأبناء أمته، ولا سيما بعد أن وجد الإمارة ممثلة بأميرها الأديب العالم، والشاعر الخطيب، والسياسي المخضرم، تسعى لاستقطاب المعلمين، والإداريين والعسكريين، وغيرهم من القضاة والعلماء الأكفياء من أبناء سوريا والحجاز،

١- **الشريقي**، محمد: "**الأردني الفتي**"، جريدة "الشرق العربي" ٢٠ رمضان ١٣٤٣هـ/ ١٣ نيسان ١٩٢٥م.

ولبنان وفلسطين، والعراق ومصر، لبناء مؤسساتها الإدارية والقضائية، وللتعليم في مدارسها، ومن رجالات ذلك الرعيل الأول: محمد الشريقي، فؤاد الخطيب، خير الدين الزركلي، محمد علي الحوماني، نديم الملاح، محمد عزة دروزة، تيسير ظبيان، سعيد الكرمي، سعيد الدرة، وحسن البرقاوي الذي وصفه محمد سليم الرشدان بأنه "في طليعة هذا الرعيل الذين قدموا إلى البلاد"(١).

ولا بد من الإشارة هنا إلى الدور العظيم الذي قام به الوطني الكبير، أديب حسين وهبة، الذي تسلم إدارة المعارف في ١٩٢١/٨/٨م، أي في السنة الأولى لتأسيس إمارة شرق الأردن، وأديب وهبة من مواليد السلط سنة ١٨٩٠م تقريباً، وتخرج من الكلية الحربية في إسطنبول، وخدم في الجيش العثماني، ونشأته قريبة الشبه من نشأة البرقاوي الذي أدى الخدمة العسكرية في الجيش العثماني في دمشق.

ولوهبة دور كبير في التوسع في افتتاح المدارس في عهد الإمارة، وفي بناء مدرسة السلط الثانوية، التي وضع حجر أساسها سنة ١٩٢٣م بحضور الأمير عبدالله بن الحسين، وبنيت المدرسة بتبرعات أهالي السلط. وقد أدخل وهبة على المناهج مواد دراسية، ونشاطات مدرسية متنوعة، كالرياضة، والكشافة، وتعليم الأناشيد والموسيقى وغيرها(٢).

١- انظر: **الرشدان**، محمد سليم: "**البرقاوي معلم الأجيال**"، ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)**، ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م: ص٣٣.

٢- انظر: **العطيات**، محمد: **السلط تاريخ وشخصيات**. إعداد وتحرير: محمد العطيات. ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ٢٠٠٩م: ص٢١٨-٢٢٧.

ومن أهم ما قام به أديب وهبة في خدمة المعارف في الأردن، أنه قام بتشجيع أصحاب الكفاءات من المعلمين في الأقطار العربية، على القدوم إلى الأردن، واستعان بخبراتهم، وأفاد من علمهم في النهوض بمستوى التعليم في الأردن، ودفع لهم أعلى الرواتب، تقديراً لعلمهم، ورغبة في قدومهم وتشجيعهم على بذل قصارى جهودهم في تسريع عجلة التعليم في البلاد، وفي غرس التقاليد والقيم التربوية الصحيحة في المدارس، وكان البرقاوي واحداً من هذه النخبة العربية التي سعى وهبة إلى استقطابها، وتشجيعها على العمل في إمارة شرق الأردن[١]، علماً بأن دور وهبة كان عظيماً في بناء مدرسة السلط، عندما كان قائداً للدرك فيها، إذ باشر بجمع التبرعات من أهالي المدينة، وقام بالإشراف على مشروع بناء المدرسة الذي استغرق قرابة ثلاث سنوات[٢].

وقدم من الرعيل الأول على الأردن العشرات من الرجال، الذين وجدوا في الأردن وطناً عروبياً، وفي أهله أهلاً أصلاء كرماء يرحبون بكل عربي جاء لخدمة بلادهم، ونقل علمه ومعرفته إليها، وإن كان قد وفدت بعض العناصر، التي لم تحفظ حق الضيافة الأردنية وكرمها، فأوجس الأردنيون خيفة منها، ورأوا فيها منافساً لهم في وظائفهم وأعمالهم، وبخاصة

١- انظر: **العطيات**، محمد: **السلط تاريخ وشخصيات:** ص٢٢٣.

٢- انظر: **محاسنة**، محمد، **الطراونة**، محمد؛ **الطراونة**، سليمان؛ **الكركي**، خليل: **مدرسة السلط سيرة ومسيرة.** ج١، ص٧٩.

ممن احتكروا الوظائف في بعض الدوائر في محاسيبهم وأزلامهم، وزادوا من تعصبهم ودسائسهم[١].

البرقاوي معلماً في مدارس: الكرك وأربد وعمان والسلط:

أمضى البرقاوي أحد عشر عاماً من عمره في سورية، جندياً وطالباً ومعلماً، ولكنه بقي طالباً جاداً في طلب العلم، خلال خدمته في سلك الجندية، وفي سلك التعليم في مدارس دمشق وحمص ودرعا، التي قدم استقالته من مدرستها بتاريخ ١٩٢٥/٨/٣٠م[٢]، ثم قدم إلى إمارة شرق الأردن، وعين معلماً في مدرسة السلط بتاريخ ١٩٢٥/٩/١٢م، ولكنه نقل في اليوم التالي ١٩٢٥/٩/١٣م. وفي ١٩٢٥/٩/١٤م عين البرقاوي معلماً في مدرسة تجهيز الكرك، التي يبدو أنها كانت بحاجة إلى معلم كفي، يمكن أن ينهض بمستوى تعليم اللغة العربية فيها، لذلك رأت إدارة المعارف ضرورة نقله إلى الكرك، التي بقي فيها البرقاوي معلماً حتى ١٩٢٩/٩/١٥م، علماً بأنه قد رقي درجة في نهاية السنة الأولى من عمله في الكرك التي أمضى فيها أربع سنوات بلا انقطاع.

١- انظر: **محافظة**، علي: **الفكر السياسي في الأردن** (وثائق ونصوص ١٩١٦-١٩٤٦م). ط١، مركز الكتاب الأردني، عمان، ١٩٩٠: ج٢، ص١٧١-١٧٢. وانظر: **الدرويبي**، سمير: "**حسن البرقاوي أستاذ اللغة العربية الأول في عهدي الإمارة والمملكة**". مجلة راية مؤتة، جامعة مؤتة، ٢٠٢١م: المجلد السابع/ العدد الرابع/ ص٣٨-٤٠.

٢- انظر: **وثائق وزارة التربية والتعليم في الأردن**، الموظف **حسن البرقاوي**. إضبارة رقم ٥٨/١١ التي تعود إلى عهد إمارة شرق الأردن، إدارة المعارف العامة (ترجمة حال).

ويبدو أن **متصرف لواء الكرك** –الذي كان دوره كبيراً في إدارة اللواء يومذاك– قد عرف أهمية العمل التعليمي الذي قام به البرقاوي في تدريس أبناء الكرك، ورفعت إليه بعض التقارير من إدارة المدرسة عن تميز البرقاوي في عمله، وغيرته على مصلحة طلابه، وحرصه على إفادتهم، والنهوض بمستواهم في اللغة العربية والدين الإسلامي، وغيرها من المواد التي قام بتدريسها، فرفع متصرف لواء الكرك كتاباً مكتوماً إلى مدير المعارف –وهو بمثابة الوزير في وقتنا الحاضر– في إمارة شرق الأردن، والكتاب صادر عن متصرفية لواء الكرك، ورقمه (١٠/١/١٩٣٠م)، ومؤرخ بـ٣/٧/١٩٢٩م، ونصه:

"**أرجو أن تعلموا، بأن أستاذ اللغة العربية، بمدرسة تجهيز الكرك السيد حسن البرقاوي من خيرة الأساتذة، ومن الذين يغارون على القيام بالواجب، ويحسنون أساليب التدريس، وقد أصبح هذا مشهوداً ومعلوماً عنه، فلذا أرجو أن يقدر المومي إليه من قبل سعادتكم، لكونه أهلاً لذلك**"[١].

قلت: إن شهادة متصرف لواء الكرك للمعلم البرقاوي، على درجة كبيرة من الأهمية؛ لأنها تدل على رأي إدارة معارف الكرك في البرقاوي من جانب، وتعكس رأي أهالي الطلاب، الذين سمعوا من أبنائهم عن هذا المعلم المتألق المعطاء، الذي عزّ نظيره بين من عرفوا من المعلمين من جانب آخر، علماً بأن المتصرف آنذاك كان حاكماً فعلياً في لوائه، وهو دائم السؤال والرصد لأحوال: الدوائر والمؤسسات الحكومية، والمدارس والأمن، وغير ذلك مما يقع في نطاق لوائه، ولذا فإن ما كتبه

١– **وثائق وزارة التربية والتعليم في الأردن**، الموظف **حسن البرقاوي**.

المتصرف في البرقاوي، يعدُّ شهادة شعبية ورسمية، في هذا المعلم الأمين الكفي، الذي لا حدود لنشاطه وإخلاصه في العمل والعطاء، علماً بأن الجادين المخلصين، قد يلقون –في كثير من الأحيان– عداوة وحسداً من العاجزين المقصرين، الذين لم يبلغوا شأوهم في العلم والعمل، وربما لقي البرقاوي حسداً أو تنقيصاً من جهده واجتهاده في التعليم، وذوو النقص مولعون بذم أهل الكمال والفضل، وهذا شيء في خُلق كثير من البشر. ومن المؤكد بأن المتصرف عرف ما يحاك ضد هذا الرجل، وما يدبر له من بعض المعلمين الذين لم يغرد البرقاوي في سربهم، ولم يحطب في حبلهم، ولذا فإن المتصرف رفع كتابه المذكور آنفاً إلى مدير المعارف، إنصافاً للبرقاوي وتأكيداً على أهليته للعمل، وحقه في التقدير والمكافأة على إخلاصه في العمل، والله عزّ وجل يدافع عن الذين آمنوا كما جاء في محكم كتابه العزيز.

وفي نهاية المرحلة الكركية الأولى من عمل البرقاوي في مدرسة تجهيز الكرك، نقل إلى مدرسة تجهيز أربد معلماً بتاريخ ١٩٢٩/٩/١٨م، وبقي فيها حتى ١٩٣٢/٩/١٩م، أي أنه أمضى ثلاث سنوات في أربد، ثم أعيد نقله معلماً إلى مدرسة الكرك ثانية، وباشر عمله فيها بتاريخ ١٩٣٢/٩/٢٢م، وبقي على رأس عمله حتى ١٩٣٦/٩/٣١م، أي أنه عمل في الكرك أربع سنوات أخرى، ولكن رجوع البرقاوي إلى الكرك ثانية، يدل على رغبة الأهالي في أن يكون البرقاوي معلماً لأبنائهم، وعلى العلاقات الطيبة للرجل بأهالي الكرك[1]، الذين كانوا يطالبون برجوعه، لما عرف عنه من صدق في القول، وإخلاص في العمل، علماً بأن البرقاوي كان مقدراً ومكرماً من أهالي أربد والكرك، ودليلنا على ذلك وثيقة حفظت

١–انظر: **البراري**، هزاع: "**حسن البرقاوي: التربوي العتيق باني وجدان الأجيال**" مقالة منشورة على الشابكة (مدونة الأردن Jordan Multimedia) عام ٢٠١١م.

في ملفه الشخصي في وزارة التربية والتعليم، والوثيقة عبارة عن كتاب مكتوم، ممهور **بتوقيع متصرف لواء الكرك**، بتاريخ ١٩٣٦/٨/٢٧م، ورقمه ٢٢٢٥/١/١، وقد رفع متصرف الكرك الكتاب إلى مدير المعارف، طالباً فيه ترقية البرقاوي بناءً على عطائه المتميز، وإخلاصه التام، وأخلاقه الرفيعة، ونص الكتاب:

"إن الأستاذ السيد حسن البرقاوي، الذي نقل إلى مدرسة تجهيز عمان، قد عرفته في أربد، وفي الكرك معرفة تمكنني من أن أقرر بأنه من الأساتذة المشهود لهم بحسن السيرة، والأخلاق الحسنة، والإخلاص التام للوظائف التدريسية، التي كانت مودعة إليه في تلك الجهتين، وأنه يستحق التقدير والترفيع إلى درجة أعلى من درجته الحالية، وأرجو أن تكون هذه الشهادة كافية لشموله بعنايتكم سيدي، وأرسلت نسخة من الكتاب إلى فخامة رئيس الوزراء المعظم"[١].

هذا، وقد أمضى البرقاوي في الكرك أربع سنوات أخرى أي من ١٩٣٢/٩/٢٢م، حتى ١٩٣٦/٩/٢١م، فيكون مجموع ما أمضاه في الكرك ثماني حجج، كان مسك ختامها كتاب متصرف الكرك الآنف ذكره، والذي أشاد فيه بفضل الرجل وعلمه، وإخلاصه، وطالب بترفيعه إلى درجة أعلى. ولم يعد البرقاوي بعدها للعمل في الكرك إلا في أواخر الخمسينيات، عندما جاء مفتشاً لمادتي اللغة العربية والدين الإسلامي، وأفاد معلميها وطلابها، وأعاد ما كان من ذكرياته في الكرك، قبل عشرين عاماً خلت.

ومما هو جدير بالذكر، أن حسن البرقاوي قد تجنس بالجنسية الأردنية أثناء عمله في مدرسة تجهيز الكرك، وذلك في سنة ١٩٣٥م، وقد

١- **وثائق وزارة التربية والتعليم في الأردن**، الموظف **حسن البرقاوي**، إضبارة رقم ٥٨/١١.

وجدت وثيقة في ملفه الوظيفي تشير إلى ذلك، والوثيقة صادرة عن مدير المعارف وممهورة بتوقيعه، وموجهة إلى مدير تجهيز الكرك لتبليغ حسن البرقاوي بأمر تجنيسه، ونص الوثيقة ذات الرقم ٥٤٨/٥٨/١١، والمؤرخة بـ٣ ذي الحجة سنة ١٣٥٣هـ الموافق ١٩٣٥/٢/٦م:

"**أعلمني فخامة رئيس الوزراء بكتابه رقم ١٠/٢١٠ تاريخ ١٩٣٥/٢/٣م أن المجلس التنفيذي في جلسته المنعقدة بتاريخ ١٩٣٥/٢/٢م رقم ٨٠٧ قرر الموافقة على منح أحد معلمي تجهيز الكرك السيد حسن البرقاوي التجنس بالجنسية الأردنية، فأرجو الإشارة إلى اسمه بأنه بات أردنياً**"[١].

ونقل البرقاوي من مدرسة تجهيز الكرك بتاريخ ١٩٣٦/٩/٢١م إلى مدرسة تجهيز عمان وبقي فيها حتى ١٩٣٧/١٠/٣١م، ويبدو أن محافظات الأردن كانت تحرص على الانتفاع بعلمه في اللغة العربية، والدين والتاريخ والرياضيات، مما يفسر لنا تنقله بينها، ومطالبتها بأن يكون البرقاوي معلماً في مدارسها، ثم نقل بتاريخ ١٩٣٧/١١/٣١م معلماً إلى مدرسة السلط الثانوية التي علم فيها حتى ١٩٥٤/٩/١م، عندما قرر تعيينه مساعداً لمفتش معارف لواء البلقاء بتاريخ ١٩٥٤/٩/١م على أن يكون مقر عمله في مكتب مفتش لواء البلقاء في عمان منذ ذلك التاريخ، وفي ١٩٥٥/٥/٤م أصبح البرقاوي مساعداً لمفتش اللغة العربية والدين الإسلامي في وزارة المعارف.

١- **وثائق وزارة التربية والتعليم في الأردن**، الموظف **حسن البرقاوي**.

وبقي البرقاوي مفتشاً مساعداً في وزارة المعارف حتى إحالته على التقاعد اعتباراً من تاريخ ١٩٦٠/٣/١م، علماً بأن كتاب إحالته على التقاعد، الصادر عن رئيس الوزراء بتاريخ ١٩٦٠/٢/١٥م، كان موجهاً إلى سماحة وزير التربية والتعليم، وقد تضمن ما نصه:

"**أرجو النظر في تعيين السيد البرقاوي، بموجب عقد في وزارة التربية، للاستفادة من خبرته في حقل التربية والتعليم**"[١]،

وهو أمر قلما يقع لغيره من المعلمين، وبخاصة إذا علمنا أن البرقاوي قد بلغ السبعين من عمره آنذاك، مما يدل على أن هذا المعلم، قد أصبح من أيقونات هذه الوزارة، ورموزها التي لا تمحى من الذاكرة التربوية عند الأردنيين.

وقد قام وزير التربية والتعليم، بإنفاذ رغبة رئيس الوزراء في الإفادة من خبرات البرقاوي في التربية والتعليم، ووجه إليه خطاباً مهماً مؤرخاً بـ١٩٦٠/٣/٢٣م، وقد رأينا أن نثبت نص هذا الكتاب، الذي يُعدُّ وثيقة مهمة في تاريخ المعلم البرقاوي، ويُعدُّ استثناء لافتاً للنظر في تاريخ وزارة التربية والتعليم في الأردن، التي كانت تُولي المخلصين من معلميها كل التقدير لجهودهم في خدمة وطنهم؛ لأنهم الأعمدة التي قامت عليها النهضة التعليمية في الأردن، وجعل البلاد العربية تتهافت على طلب المعلمين الأردنيين لتعليم أبنائها، ونص الكتاب[٢]:

١- **وثائق وزارة التربية والتعليم في الأردن**، الموظف **حسن البرقاوي**.

٢- **المصدر السابق**، الموظف **حسن البرقاوي**.

حضرة المربي الكبير الأستاذ حسن البرقاوي المحترم

نظراً لإحالتكم إلى التقاعد، كما ينص عليه القانون، وبما أن هذه الوزارة تود الاستفادة من خبرتكم الطويلة، وإخلاصكم في حقل التربية والتعليم، وبما أن لكم جهاداً طويلاً في هذا المضمار، ونظراً لما تحليتم به من تفان وإخلاص في سبيل أبناء هذا الوطن العزيز، أرجو أن تكملوا ما بدأتم به من تعليم النشء، وتوجيهه التوجيه اللائق به. وإني إذ أرجو أن أنال موافقتكم، أتقدم بالشكر لكم، على الخدمة السابقة، راجياً لكم دوام التوفيق.

وتفضلوا بقبول احترامي

وزير التربية والتعليم

وحتى تكتمل لدينا جهود البرقاوي في تعليم اللغة العربية والدين الإسلامي، فإنه لا بدَّ لنا من الحديث عن جهوده العظيمة في تعليم طلاب مدرسة السلط التي كانت هي الثانوية الوحيدة في الأردن عهد الإمارة، وكانت تسمى مدرسة تجهيز السلط، عندما نقل البرقاوي إليها، وفي السنة التالية لنقله أي سنة ١٩٣٨م، تغير اسمها إلى مدرسة السلط الثانوية، التي سمح لها مدير المعارف، بعمل ختم حديدي، يحمل اسمها الجديد: **(مدرسة السلط الثانوية/ شرق الأردن/ إدارة المعارف العامة)**[١].

وطاب المقام للبرقاوي في هذه المدينة التاريخية، التي تتوسط المدن الأردنية، التي أصبح أبناؤها يتوافدون على مدرستها، لإتمام تعليمهم الثانوي فيها، فقد اجتمع في صفوفها طلاب من عمان ومعان، والكرك

١- انظر: **محاسنة**؛ الطراونة، الكركي: **مدرسة السلط سيرة ومسيرة:** ج١، ص٧٨.

وأربد، والطفيلة ومأدبا، والزرقاء والمفرق وغيرها من المدن الأردنية، إضافة إلى طلاب السلط نفسها، وهو الأمر الذي كان له أعمق الأثر في تحقيق بلورة الهوية الوطنية الأردنية وتشكيلها، فطلاب الأردن من شماله إلى جنوبه، ومن شرقه إلى غربه يجتمعون في مدرسة واحدة، يتلقون فيها أفكار أستاذهم البرقاوي وغيره من فضلاء المعلمين، ويتخرجون وقد حملوا معهم ما تعلموه من قيم الوحدة الوطنية بين أبناء الوطن الواحد، وقيم المحبة والتسامح بين أبناء الطوائف المختلفة، وقيم الوحدة العربية، إذ تضم الهيئة التدريسية في صفوفها المعلمين العرب من سوريا وفلسطين، ومصر ولبنان، والعراق والحجاز، ويصدق عليهم جميعاً، ويتجسد قول الشاعر "بلاد العرب أوطاني"، علماً بأن الأردنيين كانوا يعدون "بلاد شرق الأردن جزءاً من البلاد العربية المحررة، الموعودة بالاستقلال، من قبل الحلفاء عامة، وبريطانيا خاصة، قد قامت فيها حكومة عربية مستقلة برئاسة سمو الأمير عبدالله..."[١].

لقد وسمت السلط الثانوية في ذلك الحين باسم "قلعة العلم"، إذ اجتمع فيها أوائل طلاب المدارس في الأردن، وكانت المنافسة على التحصيل العلمي بينهم شديدة، حتى أصبح الحاصل منهم على الشهادة الثانوية في مستوى خريجي الجامعات في زماننا، بل إن دولة عبدالسلام المجالي، وصف لنا في سيرته الذاتية "**رحلة العمر من بيت الشعر إلى سدة الحكم**"، -التي كتبها في الثمانينيات من القرن الماضي- مستوى

١- **الكتاب الأسود في القضية العربية الأردنية**. ط١، مطابع دار الأيتام، القدس، ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م: ص٤.

خريجي مدرسة السلط الثانوية، بأن الحاصل منهم على الشهادة الثانوية، يضارع في مستوى ثقته بنفسه، الخريج الحاصل على شهادة الدكتوراه من أرقى الجامعات العالمية في عصرنا، يقول: "وللحق أقول: إن شعور الخريج من السلط الثانوية يومذاك، يشبه شعور الحاصل على دكتوراه من أعرق الجامعات في أيامنا من حيث الثقة بالنفس"[١].

وقد زودت هذه المدرسة بمكتبة قيمة، فيها كثير من المطبوعات العربية من كتب تراثية ومترجمة، مما تصدره مطابع مصر والشام، وفيها مراجع باللغة الانجليزية والفرنسية والتركية، وكان دور معلمي هذه المدرسة، الذين يحتاجون إلى هذه الكتب، لوضع مناهج المواد التي يدرسونها، كبيراً في تخير كتب مدرستها، وإثرائها بالنافع المفيد من الكتب والمجلات والدوريات، التي يقدرون قيمتها في إفادتهم وتثقيف طلابهم[٢].

ويعود الفضل في طرح فكرة تأسيس هذه المكتبة، إلى سعيد البحرة مدير مدرسة السلط، إذ خاطب البحرة مدير المعارف أديب وهبة المربي الكبير، وصاحب الأيادي البيضاء في متابعة إنجاز البناء الجديد للمدرسة، فقبل وهبة طلب البحرة، وتبرع بكتبه الخاصة لمكتبة المدرسة، فكانت نواة لها، ثم تواصل تزويد هذه المكتبة بالمجلات التربوية والأدبية، وبالمطبوعات الأدبية والعلمية الجديدة، وقبلت هدايا الكتب من المتبرعين، وقدمت هذه المكتبة الرائدة خدماتها للطلاب والباحثين، وسمحت بعارية

١- **المجالي**، عبدالسلام: **رحلة العمر من بيت الشعر إلى سدة الحكم**. ط١، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ٢٠٠٣م: ص٤٧.

٢- انظر: **دفاتر مجلس المعلمين**، مدرسة السلط الثانوية، إمارة شرق الأردن، ١٩٢٩-١٩٤٥م.

الكتب للطلاب والمعلمين، وتشير سجلات المكتبة، إلى أن المعلم وصفي التل، قد استعار كتاب "الأغاني" لوالده مصطفى وهبي التل، شاعر الأردن الكبير الملقب بعرار. وكان البرقاوي منهوماً بقراءة كتبها، وقد خلدت مدرسة السلط اسمه، بأن سمت مكتبتها العريقة باسمه، وأصبحت تعرف باسم "مكتبة حسن البرقاوي"[١].

لقد وجد البرقاوي في مدرسة السلط مرتعاً علمياً خصباً، وبيئة تعليمية صالحة لنشر علمه، وإفادة طلابه، وتوجيههم تربوياً ومعرفياً ووطنياً، يدفعه إلى ذلك ما اتسم به من صفات الخلق الرفيع، والفطرة السليمة، والإخلاص في العمل، والمحبة الصادقة للأرض والإنسان والوطن، وما عرف عنه من العطاء الذي ليس له حدود، وما حباه الله به من مواهب عقلية، وقدرات علمية خاصة، أهلته ليكون معلماً فذاً، وعلماً شامخاً، وشيخاً مبجلاً بين المعلمين الذين عرفهم تاريخ التعليم في الأردن –على كثرتهم– على مدار قرن كامل، ويصدق عليه قول المتنبي:

إذا ما العَالمونَ عَرَوك قالوا أفدنا أيها الحِبرُ الهُمامُ

وشهادة عبدالسلام المجالي الآنفة الذكر في مدرسة السلط، وفي أستاذه البرقاوي لها قدرها، لا سيما أن المجالي ذو فراسة وحنكة، ونظر وبصر، في معرفة أقدار الرجال وتقدير مواهبهم، وهي شهادة لم يشهد بها لمعلم من قبل البرقاوي ولا من بعده، وعدّ البرقاوي نموذجاً من المعلمين يصعب على المرء نسيانه، يقول: "إن الأستاذ البرقاوي نموذج يصعب

١- انظر: **محاسنة**؛ الطراونة؛ الكركي: **مدرسة السلط (سيرة ومسيرة)**: ج١، ص٩١-٩٤.

نسيانه، علمنا وأمتعنا..."[١]. وقد كرر المجالي شهادته لمعلمه البرقاوي فيما بعد، يقول: "نظرتنا إلى المعلمين كانت نظرة احترام وتقدير ممزوجة بشيء من الرهبة، ومما أذكره أن الأستاذ محمد حسن البرقاوي (الصواب: حسن محمد البرقاوي) العالم باللغة، كان لا يحب الروتين، ويدعو أحد التلاميذ لقراءة الأسماء"[٢].

أحب البرقاوي السلط –وكل مدينة أردنية درَّس في مدارسها، بل أحب الوطن كله–مكاناً وسكاناً، وزملاء وطلاباً، وأهلاً وجيراناً، عاش بينهم واحداً منهم معززاً مكرماً، مقدراً مبجلاً، لا يؤتى على ذكره وعلمه، وخلاله ومناقبه، التي أضحت كالروض النضر إلا بالثناء العطر، والإشادة والإعجاب، والدعاء له بالرحمة والرضوان، والروح والريحان.

وغدا التتلمذ عليه، أو مزاملته، أو حضور مجالسه العلمية، من دواعي الاعتزاز، والفخر، والسؤدد والشرف لمن حازه، بل أصبح طلاب الصفوف الابتدائية، يتمنون اليوم الذي يصبحون فيه طلاباً للبرقاوي، وأصبح طلابه ينظرون إليه نظرهم إلى الأب الحاني على أولاده، الساعي لإسعادهم ونجاحهم، وأصبحت كلمة الأب البرقاوي ملباة، وأمره مطاعاً عند طلابه وفي مجتمعه المحلي، وبخاصة في أوقات الخلافات والنزاعات فيما بينهم، وعندما دخلت الأحزاب إلى المدارس، وجندت كثيراً من طلابها، فأصبح منهم اليساري والقومي، والإسلامي والبعثي، وأصبح مدراء المدارس مضطرين لاستشارة الطلاب، وعمل الممكن من طلباتهم خوفاً من إثارتهم

١- **المجالي، رحلة العمر من بيت الشعر إلى سدة الحكم:** ص٤٥.

٢- **محاسنة،** الطراونة، الكركي: **مدرسة السلط سيرة ومسيرة:** ج٢، ص٦٠.

للفتن والمظاهرات داخل المدرسة وخارجها، وبخاصة وقت ارتفاع المدّ القومي، وازدياد التكتلات والأحلاف الدولية التي جرفت الأردن في تيارها اللجب، وأصبح على الحافة في الخمسينيات من القرن المنصرم.

ويسرد لنا عبداللطيف عربيات، في سيرته الذاتية التي صدرت حديثاً، حكاية تكشف لنا عن الدور الكبير الذي اضطلع به البرقاوي في تهدئة الطلبة في مدرسة السلط، وحثهم على عدم تجاوز حدودهم مع مديرهم أو معلميهم –وإن اختلفوا معهم في الرأي الحزبي– يقول عربيات: "... كان المدير يستشيرنا قبل أي إجراء في المدرسة، سواء في تقسيمات النشاطات الاجتماعية والرياضة، أو تعيين عرفاء للصفوف من الصفوف الأعلى على الأدنى، فجئت إلى المدير –وكان واقفاً في وسط القاعة– وقلت له: هل تعين فلاناً عريفاً، وهو يحتاج إلى عريف؟! (وأنا هنا أخطأت)؛ لأن الطلاب سمعوا ما قلت، وقد شعر المدير بذلك، فقال: لا أسمح أن تعطيني أوامر. أنا لا أخاف منك، ولا من حزبك. فقلت له: شكراً، وانصرفت. فحسب أننا سنحرك المشاكل في المدرسة، وكان الوقت بعد نهاية الحصة الأخيرة. وكان المرحوم الأستاذ **حسن البرقاوي له كل تقدير عندنا، ورجل له تقديره عند الجميع**، وهو كبير السن، فناداه المدير دون علمنا، وقال له: اذهب وسوِّ الأمور، وقد حصل كذا وكذا"[1]؛ وفي اليوم نفسه ذهب البرقاوي إلى مجلس فيه بعض العلماء والقضاة من أهل السلط، وكان الطالب عبداللطيف عربيات حاضراً ذلك المجلس، فدخل عليهم

١- **عربيات**، عبداللطيف: **صفحات من حياتي (مراجعات)**: ط١، المطابع المركزية، عمان، الأردن، ١٤٤٢هـ/٢٠٢١م: ص٥٣.

البرقاوي "وفوراً بادر قائلاً: ما هذا يا ابني عبداللطيف؟ أنت مقدر عند المدير، وكل المعلمين، وما كان لك أن تتحدث مع المدير بالصورة التي تمت"[1]. وفعلاً استجاب عربيات لعتاب أستاذه، واستطاع البرقاوي أن يصلح ما فسد من العلاقة بين إدارة المدرسة وطلابها؛ لأنه كان مسموع الرأي، مجاب الكلمة عند الطلاب، وبين الأهالي لما عرفوا من فضله وعلمه، وصدقه وإخلاصه، ولما له في نفوسهم من التقدير والاحترام، ولطريقته الأبوية في النصح والتوجيه والإرشاد والتهذيب.

أمضى الشيخ المعلم البرقاوي ربع قرن تقريباً من عمره في هذه المدينة، ذات التاريخ العريق، والمجد الطارف والتليد، وتعلمت على يديه الأفواج تلو الأفواج، والأجيال تلو الأجيال، لا من السلط وحدها، بل من الأردن كلها، ولذا أطلق عليه اسم "أستاذ الجيل" أو "أستاذ الأجيال الأردنية"، واسم "المعلم العربي المخلص"، وحقاً إنه كان معلماً عربياً مخلصاً في فلسطين، وسورية، والأردن خلال نصف قرن من الزمان.

المبحث الثاني- البرقاوي يحظى بإعجاب الأردنيين وتقديرهم:

والسؤال الذي يطرح نفسه على الدارس لمسيرة البرقاوي التعليمية في الأردن:

لماذا أجمع الأردنيون على محبة البرقاوي، وتقديره وتوقيره؟ لماذا كان أول معلم أردني يمنح أرفع وسام للتعليم في الأردن؟ لماذا أطلق اسمه على إحدى كبريات ثانويات العاصمة الأردنية؟ لماذا لم ينس ذكره طلابه

١- **عربيات: صفحات من حياتي (مراجعات):** ص٥٣.

حتى بعدما أصبحوا من كبار رجالات الدولة الأردنية... إلى غير ذلك من الأسئلة التي تحتاج إلى إجابات مقنعة.

ويبدو لي أن العلل والأسباب التي جعلت طلاب البرقاوي بخاصة، وزملاءه ومجتمعه بعامة، يعجبون به أشد الإعجاب، ويعترفون له بالفضل والكمال –على كثرة من علموهم– ترجع إلى الآتي:

الأول– المعرفة الموسوعية التي تميز بها البرقاوي على أقرانه من المعلمين:

شُهر البرقاوي بإتقانه لسان العرب، وبراعته في علومه وفنونه نثراً وشعراً، وكان حافظاً للقرآن العظيم، قادراً على فسر آياته وتفسيرها، بارعاً في الكشف عن ضروب إعجازه، ونفحات بيانه، وقراءاته ومناسباته. إضافة إلى تفننه في الرياضيات والهندسة، وافتخاره بتفوقه فيهما، ومعرفته بالطبيعيات، وعلوم الشريعة والقانون، والاقتصاد، وعلم النفس، والتاريخ والسير، والفلسفة والمنطق وعلم الجمال إلى غير ذلك من العلوم والفنون التي كان قادراً على تناولها والحديث فيها، ومعرفة مصادرها الأساسية، وقد تبين طلابه وزملاؤه وقراؤه ذلك من خلال دروسه ومحاضراته وكتاباته التي نشرها في جرائد عصره ومجلاته.

لقد بُهر طلابه وسامعوه بالمعارف التي تدفقت على لسانه، من ينابيع صدره وفيض عقله، وشهدت له بالقدرة العجيبة على تسخير كل علومه ومعارفه، وخبراته وتجاربه في دروسه لطلابه، مخاطباً إياهم على قدر عقولهم ومعارفهم، ومراعياً تدرجهم وارتقاءهم في معارج العلم ودرجاته، وناظراً إلى قدراتهم الفردية، وإلى ما بينهم من فروق في القرائح والعلوم،

وساعياً إلى تحقيق التكامل المعرفي لديهم في المقررات الدراسية التي يوليها اهتماماً شاملاً، وفي المعارف العامة التي رأى ضرورتها لتوسيع مداركهم، وزيادة ثقافتهم.

وقد وصف عبدالحليم عباس –الذي كانت المعارك الأدبية محتدمة بينه وبين البرقاوي على صفحات الجرائد– ثقافة البرقاوي، وغزارة علمه، وجميل بيانه، ورونق لغته، قائلاً: "... ثم ينتقل في المواضع التي يخوض فيها بمهارة عجيبة، فبينما هو يبحث في الأدب، ويدلي فيه بآراء موفقة جميلة، –كشأنه في كل ما يقول– إذ به ينتقل فجأة، وبلا سابق إنذار؛ ليشرح لك شيئاً من فلسفة العرب، في علم الهيئة ومدارات النجوم. ثم يحط من السماء إلى الأرض، يبين لك رأيه في سرّ الألوان في الأزهار، وبعد أن يقتل البحث، وينحره نحراً، يكرُّ عليك محدثاً في فلسفة الجمال، وهنا مجال الأستاذ، وموضوعه الذي لا ندّ له فيه ولا ضريب... وهو لا ينسى في كل هذا الحديث، أنه هو مدرس اللغة، والمؤتمن على علم البديع والبيان والتشابيه، فالأسلوب متخير، والجمل منتقاة، لها روعتها ووقعها في الأذن..."[1]. وحق له أن يوصف –بناء على ما قاله عبدالحليم عباس– بما وصف به واصل بن عطاء، شيخ المتكلمين، وإمام المناظرين:

مُلقنٌ مُلهمٌ فيما يُحاولُه جُمٌّ خَواطرُه جَوّابُ آفاق

قلت: إن شهادة عبدالحليم عباس للبرقاوي مما يعتد به، ولها قدرها بين الدارسين، سيما أن عباس أديب مبدع، وكاتب كبير، كشف لنا عن

١– **هاشم**، كاسد مصطفى: **شباب الأردن في الميزان** (مساجلات الملك عبدالله بن الحسين وعبدالحليم عباس). ط١، عمان، ١٩٧٩م: ص٥٥.

جوانب البرقاوي العلمية، ومواهبه الأدبية المتنوعة فهو: لغوي، أديب ناقد، عالم فيلسوف، فقيه مفسر. وما وصُف به البرقاوي يذكرنا بمنهجية الجاحظ في التأليف، التي تقوم على الانتقال من فن إلى فن، ومن علم إلى علم، تشويقاً للقارئ، وتوسيعاً لعلومه ومعارفه، وزيادة في عقله، ولا سيما أن البرقاوي قد أولع بالجاحظ، وتأدب بأدبه، ودرس كتبه، ودرسها لطلابه، لما تمتاز به من نزعة عقلية، تبحث عن العلل والأسباب في كل ظاهرة من الظواهر: الاجتماعية والعلمية والكونية والطبيعية، ولا تقبل الحكم على الموضوعات والروايات والأخبار، إلا بعد تمحيص ونقد، وتدقيق وتحقيق.

وأشار محمد أديب العامري إلى ولع البرقاوي بالعلوم الحديثة، وإصراره على فهم نظرياتها في العلم والاجتماع، والقانون والاقتصاد، والتاريخ والفلسفة؛ لأنه كان مؤمناً بأن "العلوم الحديثة عماد الحياة"[١]، وأنه لا نهضة للأمة دون فهمها والأخذ بها، وقد أفاد كثيراً من ذلك من شيوخه في الأزهر ودمشق، كبهجة البيطار، وطاهر الجزائري، وعبدالفتاح الإمام، والقصاص، والأنسي، والحمصي وغيرهم.

وكان البرقاوي يحض طلابه ويزرع في نفوسهم عدم التفرقة بين العلم والأدب، وأن دارس الأدب لا بدّ له من درس العلوم وفهمها، وبخاصة الرياضيات والمنطق[٢]، وهما من الفنون التي كان ولع البرقاوي بها شديداً،

١- **العامري**، محمد أديب: "**في أربعين البرقاوي**" ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)**: ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م: ص٣٠.

٢- انظر: **العمد**، هاني: "**شهادات معاصري البرقاوي**"، ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)**. ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م: ص٤٨.

وأخذها من كتب المستشرق فَنْدَيك[١]، ودرسها على درويش القصاص شيخ كل من درس الرياضيات في دمشق[٢].

قلت: إن إصرار البرقاوي على دراسة طلابه للعلوم الحديثة، ومواكبة تطوراتها ونظرياتها أولاً بأول، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا بمعرفة اللغات الأجنبية التي تمكن من الاطلاع على هذه العلوم، أو قراءة هذه العلوم بعد نقلها وتحويلها إلى العربية، وهو الأمر الذي أفاد منه البرقاوي؛ كان صدى لدعوة المصلح الكبير الشيخ محمد عبده، الذي أصلح مناهج الأزهر، ولغة الصحافة، وأصلح المحاكم والقضاء، إلى غير ذلك من ضروب الإصلاح ومجالاته التي رفع فيها شعار تعلم العلوم العصرية، التي إن لم نتعلمها، فإننا نحكم على أنفسنا بالهلاك، والتخلف العلمي والحضاري، وقد تشرّب البرقاوي هذه الدعوة الإصلاحية على يدي الشيخ عبدالفتاح الإمام الذي لازمه بدمشق[٣].

١- انظر: **العودات، من أعلام الفكر والأدب في فلسطين.** ط٢، وكالة التوزيع الأردنية، عمان، ١٩٨٧م: ص٦٢.

٢- انظر: **المرجع السابق:** ص٦٢؛ والطنطاوي، علي: **ذكريات.** ط٢، دار المنارة، جدة ١٤١٨هـ/١٩٩٨م: ج٨، ص٢١٩-٢٢٠.

٣- انظر: **العودات، من أعلام الفكر والأدب في فلسطين:** ص٦٢؛ الصاغ، محمد لطفي http//www.aluah.net.

الثاني- إيمانه العميق برسالة المعلم ومحبته للعلم والتعلم:

وقد قبس البرقاوي هذا الإيمان من وحي الكتاب الكريم، وما جاء في التنزيل العزيز، من آيات تعلي من قدر العلماء ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾[١]، وترسّم ما جاء في الحديث النبوي الشريف، وما أثر عن صحابة رسول الله الكريم وتابعيهم من آثار وأخبار، كقوله عليه السلام: "من سلك طريقاً يطلب فيه علماً، سلك به طريقاً من طرق الجنة"، وكذلك جاء في الحديث: "إن العلماء ورثة الأنبياء" وغيرها من الأحاديث الواردة في كتب الصحاح والمسانيد والآثار[٢].

وبناءً على ما جاء في محكم التنزيل، وفي أحاديث المصطفى عليه السلام، التي تحث على طلب العلم، وتدعو الناس إلى طلب الحكمة التي تعني لغة "العلم النافع بأي شيء كان"، فإن البرقاوي قطع جل عمره طالباً للعلم، ومعلماً له في آنٍ واحدٍ؛ لأنه يعد التعليم رسالة مقدسة سامية، وأن المعلمين الصادقين المخلصين لرسالتهم، هم الذين يحملون مشاعل هذه الرسالة الخالدة، ولذا فإن الرجل كان متمثلاً لهذه الرسالة باطناً وظاهراً، قولاً وعملاً، ومدركاً أنها أمانة عظيمة يجب عليه حملها، وأن حملة هذه الرسالة هم خير البرية، ولذا أحيا سواد لياليه في طلب العلم، وأمضى بياض أيامه في تعليمه ونشره بين طلابه؛ لأنه كان موقناً أن تعلم العلم، ونشره بين الناس، طريق موصل إلى الجنة، بل هو باب من أبوابها.

١- **سورة المجادلة**، آية (١١).

٢- انظر: **ابن جماعة الكناني**، بدر الدين الكناني (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م): **تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم**. ط١، دار المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، بلا تاريخ: ص٥-٩.

وقد عبر سليمان المشيني أحد طلاب البرقاوي عن تمثله لرسالة المعلم السامية عندما كتب في الذكرى الأولى لوفاته أي في سنة ١٩٧٠م: "حية هي ذكرى أستاذ الجيل، الذي أنار بالعلم والمعرفة، عقول الآلاف من أبناء هذا البلد، الذين أسهموا في تشييد سؤدده، وبناء نهضته... خالدة هي سيرة هذا الرجل الصالح، العالم العامل، الفاضل المتواضع، الأديب الفيلسوف، الذي كان مثال المعلم المخلص، والصديق الوفي، والمواطن الصالح، **والذي تفهم رسالة المعلم في أسمى صورها، وأروع معانيها**، فلم يبخل بعلمه لحظة على أحدٍ، ولم يقطن برجاً عاجياً، وكان مجلسه يفيض أبداً بنشر العلم والمعرفة"[١].

وأخبرني محمد العطيات أحد طلاب البرقاوي، أنه كان مستعداً لإفادة طلابه في كل الأوقات، إذ كان يتأخر في المدرسة لتعليم من يريد الاستزادة والتوضيح، وكانت له في أيام الربيع حلقة مسائية في وادي السلط الخضر النضر، المُفوَّف بالأزاهير، والموشى بالورد والدحنون، فيتحلق فيها الطلاب حول شيخهم، ويكون مجلسه العلمي هذا مفتوحاً لكل راغب، فيأتي إليه الطلاب زرافات ووحداناً، يجيب فيه عن كل سؤال من المقررات الدراسية، وكانت أكثر الموضوعات دوراناً في مجالسه التي كان يعقدها في الهواء الطلق[٢]، تدور حول التاريخ والفقه واللغة العربية، والوطنية ومحاربة

١- **المشيني**، سليمان: "**في الذكرى الأولى لوفاة أستاذ الجيل حسن البرقاوي**" ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)**. ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م: ص٦٥.

٢- **العطيات**، محمد: **مقابلة شخصية مع محمد العطيات** في بيته في السلط بحضور عبدالكريم الحياري، بتاريخ ٢٠٢١/٦/٢٥م.

الغزاة، وأخبار المناضلين، وبطولات رجال جبل النار وهو الاسم الذي كان يطلق على نابلس والكرك وعجلون والسلط، عندما تصدى رجاله لحملة نابليون، وحرقوا جيشه بقيادة (دوماسي)[١] نائب كليبر في وادي عزون، عند حملته على عكا عام ١٧٩٩م، وما كان من الدفاع العنيد لواليها العثماني أحمد باشا الجزار، الذي أنجده رجال جبل النار في تلك المعركة الرهيبة. وكذلك بطولات عز الدين القسام وغيره من المجاهدين الأبطال، وكان البرقاوي يذكر طلابه بشهداء السلط[٢] الذين سقطوا دفاعاً عن الأرض المقدسة في هذه المجالس، وغيرهم من شهداء الأردن وفلسطين الذين قدموا أرواحهم رخيصة في سبيل الذود عن الأرض المقدسة، وردّ الغزاة الصهاينة الذين يقف وراءهم الاستعمار الغربي الحديث بكل قواه الغاشمة.

وما ذكره سليمان المشيني في ذكرى أستاذه البرقاوي، يكشف لنا عن أبعاد شخصية هذا المعلم المؤمن برسالة التعليم، إذ عُرف بالتقوى والصلاح، وبالتواضع الجم، وعدم الاستعلاء على الطلاب. وتميز بالوفاء والصدق، والعطاء العلمي الذي لا حدود له، والقرب من الناس، ونشر المعرفة بينهم، إضافة إلى علمه الجم، فهو عالم عامل، ذو مواهب متعددة، بل هو أديب من الأدباء، وفيلسوف من الفلاسفة، لذا فإن المشيني يَعده

١- انظر: **النمر**، إحسان: **تاريخ جبل نابلس والبلقاء**. ط١، مطبعة النصر، نابلس، ١٩٦١م: ج٢، ص٤٨٤-٤٨٦.

٢- انظر: **العطيات، السلط تاريخ وشخصيات:** ص٣٢.

مثالاً للمعلم المخلص الذي حمل رسالة المعلم المقدسة في "أسمى صورها وأروع معانيها"[١].

إن شهادة المشيني في أستاذه البرقاوي التي قالها بعد موته، وانقضاء أجله، في غاية الاعتبار والأهمية؛ لأن المشيني عرف البرقاوي معرفة دقيقة، وتتلمذ عليه في أغلب المراحل الدراسية، ونهل الكثير من علمه وأدبه، وتفتحت على يديه ملكته الأدبية، وتخرج به شاعراً كاتباً، ووجد فيه أستاذاً عزّ نظيره بين الأساتذة فكان دوره كبيراً فيما حازه المشيني من ثقافة أدبية ولغوية وتاريخية، وأصبح المشيني بعدها من كبار الشعراء والروائيين والإعلاميين في الأردن، وكان من مؤسسي الإذاعة الأردنية، وكبار كتاب برامجها الإذاعية النافعة الموجهة الرائجة، التي قدم منها المئات للسامعين في الأردن والبلاد العربية[٢]، وعليه فإننا يمكن أن نعد المشيني ثمرة من ثمار غرس المعلم البرقاوي، المؤمن برسالة المعلم، وبسمو رسالة التعليم، التي أدى فيها البرقاوي دوراً محورياً في تعليم الأجيال الأردنية وتخرج به الآلاف منهم، وأصبحوا الرجال الذين نهضت على أكتافهم مؤسسات الدولة المختلفة.

١- **المشيني**، سليمان: "**في الذكرى الأولى لوفاة أستاذ الجيل حسن البرقاوي**" ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)** : ص٦٥.

٢- **انظر: شهاب**، أسامة يوسف: **سليمان إبراهيم المشيني شاعراً وأديباً وإنساناً**. ط١، دار يافا العلمية، عمان، الأردن، ٢٠٠٩م: ص٨-٢٢٩.

فالبرقاوي لمعلمي زمانه، وكل زمان، هو النموذج الأرفع، والدوح الباسق الأفرع، الذي لديه اليقين بأن المعلم المخلص الصادق المؤمن بقضية أمته ووحدتها، هو أساس رقيها ونهضتها، وهو المصنع الذي يتشكل فيه البناء المعرفي لرجال المستقبل، وهو الأساس المتين لكل بناء وطني شامخ.

ولعل فيما ذكره أستاذنا محمود إبراهيم، الذي كان من أقارب البرقاوي، ما يكشف لنا عن أحد الدوافع الكامنة في نفس البرقاوي، الذي رأى في التعليم واجباً وطنياً، ورسالة مقدسة، يقول: "ولقد كان البرقاوي بقية من جيل رأى في التعليم رسالة مقدسة، يمارسها بما يشبه ممارسة العابد لعبادته، وليس في هذا شطط في التعبير؛ لأن التعليم في شريعة الإسلام، وممارسات رجاله الخلص اعتبر دائماً قربة إلى الله"[١].

وأشار هاني خريسات أحد طلاب البرقاوي، إلى تعلقه بمهنة التعليم، وحبه العميق لها، يقول: "لم يكن التعليم بالنسبة للبرقاوي مجرد وظيفة مقررة، بل متعة، لا تعادلها متعة من متع الدنيا، ولذا أصرّ على الاستمرار في التعليم وهو في الإدارة، وبعد أن أحيل على التقاعد وتقدم به السن"[٢]. حقاً لقد كان البرقاوي الجواد السابق المجلي في ميدان التعليم، ولم يتوقف عن أداء رسالته إلا عندما أقعده المرض في الأيام الأخيرة من عمره الحافل بالعطاء والمعرفة ونشر نور العلم، وتبديد ظلمات التخلف

١- **إبراهيم، "الأستاذ حسن البرقاوي ذكريات وأحاديث"**، ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)**: ص١١.

٢- **العطيات، السلط تاريخ وشخصيات**: ص٢٢٩.

والجهل، وكان مصراً في مرضه على العودة إلى المدرسة بعد شفائه، ولكن الأمر كما قال الشاعر العربي:

لنا في الدهر آمالٌ طوالٌ نرجّيها وأعمارٌ قصارُ

هذا، ومما يؤكد مقولة إبراهيم، أنه قلما يخلو كتاب من كتب الحديث، والرقائق والأدب والتصوف، من عقد باب أو أكثر عن فضل طلب العلم، وعن أجر المعلمين، وعن الدعوة إلى الاستزادة من العلم، ومجالسة العلماء، بل كانوا لا يعدون العالم عالماً إلا بعد الرحلة إلى البلاد البعيدة في طلب العلم، ولقاء أشياخه، ولعل البرقاوي اتخذ من القول المأثور "كن عالماً، أو متعلماً، ولا تكن الثالث فتهلك" شعاراً له طوال حياته، فكان –رحمه الله– متعلماً وعالماً.

وفوق ذلك، فإن البرقاوي قد تخرج على يد كوكبة من علماء الشام أمثال: البيطار والقصاص، والحمصي، والإمام، وغيرهم ممن وصف الشيخ علي الطنطاوي عقيدتهم في التعليم بقوله: "ما كنت ولا كثير من إخواني، نعد أنفسنا مجرد معلمين. وما كنا نرانا مسؤولين أمام وزارة المعارف وحدها، نطبق مناهجها، ونطيع أوامرها، بل كنا نعدُّ الجواب للسؤال يوم العرض على الله، السؤال عن تربية الأولاد على ما يرضيه، على الشريعة التي بَعث بها خاتم رسله، عن تخريج أمة جديدة، تؤمن بالله إيماناً خالياً من الشرك كله، الظاهر منه والخفي. تخاف الله، ولا تخاف في الحق أحداً

إلا الله"[١]. حقاً إن ما ذكره الطنطاوي يمثل العقيدة التعليمية عند البرقاوي ويفسر لنا إخلاصه وتفانيه في تعليم الأجيال.

ويرى خالد الكركي أن البرقاوي من الأعلام الذين صنعوا التاريخ الثقافي المعاصر، والحركة التعليمية في الأردن، يقول الكركي واصفاً ثقافة البرقاوي، وجهاده في تعليم أبناء الأردن: "حسن البرقاوي... وقد كانت ثقافته الرفيعة، التي حصلها بالرحلة إلى سوريا ومصر، وملازمة كبار الأساتذة زاد سنواته الطويلة، يوم بدأ رحلة التعليم في سوريا وفلسطين، ثم في الأردن منذ أواسط العشرينات حتى رحيله، زاد الأجيال التي جلست تستمع إليه في ثانويات الكرك وأربد والسلط التي قرأت مقالاته"[٢].

الثالث- الخلق الرفيع الذي تحلى به البرقاوي في تعليمه لطلابه، والروح الأبوية التي تعامل بها معهم:

عرف الرجل بهذا الخلق الرفيع الدمث السجيح في علاقاته مع زملائه، وفي تعامله مع المجتمع الذي يعيش فيه، إذ عرف البرقاوي بالتواضع، وسعة الصدر، والترفع عن سفاسف الأمور، والبعد عن التعاظم والادعاء، ونبذ النفاق والرياء، والترفع عن التمدح والتبجح، وشُهر بالعفو عن المسيء، ونسيان الإساءة، وسلامة الصدر، وعدم حمل الضغائن والأحقاد، وعدم الاكتراث بالزخارف والبهارج والمظاهر الخادعة، وشُهد له بالصدق في القول والعمل، وقوة العزيمة، والجدية في التدريس، والزهد في

١- **الطنطاوي، ذكريات:** ج٣، ص٢٦٢.

٢- **الكركي**، خالد: "**العودات والبرقاوي والغول**"، ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)**. ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م: ص٥٢.

الألقاب والمناصب، والقناعة بما رزقه الله، وعدم الشره على المال، أو التكالب على المكاسب المادية، فقد وصفه عيسى الناعوري بقوله: "ولكن حسن البرقاوي نفسه، لم يبرح قاعات الدرس أكثر من أربعين عاماً: بل ظل معلماً مثابراً، صابراً، مضحياً، مع الفقر والخصاصة، حتى آخر حياته"[١].

ووصفه تلميذه سليمان المشيني، بأنه كان: "ينبوعاً متدفقاً يعطي ولا يأخذ، يعطي من قلبه وفكره، ولم يكنز الكنوز، ويجمع الذهب، ويبني العمارات، فارتحل إلى العالم الثاني غير مبق لأبنائه شيئاً مادياً ذا بال، اللهم إلا الذكر الحسن"[٢]. وقد صدق الناعوري والمشيني في ذلك، فالمال والجاه والسلطان زائل لا محالة، والذكر الحسن هو العمر الثاني للإنسان كما تقول العرب في أشعارها، والعلم النافع باق، وهو ما تركه البرقاوي لطلابه.

وفي ضوء ما سبق، فإن الشيخ الجليل البرقاوي لم يخلف مالاً، ولا أرضاً ولا عقاراً، ولكنه ترك إرثاً عظيماً هو هذه العقول التي علمها ورعاها، وهذه الأجيال التي تعلمت منه وبناها، وانطبعت في أذهانها شذرات علمه، ووقرت في نفوسها نفحات عطائه ونبله، وأشرقت ذكرياته الجميلة التي لم تغرب شمسها المشرقة عن خلد طلابه، وعن ذاكرة الناس الذين تعاملوا معه

١- **الناعوري**، عيسى: "**المعلم حسن البرقاوي في ذكراه الرابعة كان أنموذج المعلم المثابر**"، ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)**. ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م: ص٦٣.

٢- **المشيني**، سليمان: "**في الذكرى الأولى لوفاة أستاذ الجيل حسن البرقاوي**"، ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)**. ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م: ص٦٥.

وخبروه في العمل والحياة، وفي أيام السعادة والشقاء، والشدة والرخاء. ووصفه تلميذه بدري الملقي بأنه واحدٌ من الأساتذة الذين كان كل واحدٍ منهم "نموذجاً للمعلم الجاد، في تلقين طلابه العلم، والمعرفة والخلق الحسن، إلى جانب كسب صداقتهم واحترامهم".

وقد تحدث عنه ضياء الدين الرفاعي، وهو أحد طلابه، قائلاً: "كان حسن البرقاوي بريئاً كبراءة الأطفال، وكان صلباً كصخور الصوان"[١]، ولا شك في أن هذا هو خلق المؤمن الهين اللين الذي يُرجى خيره ونفعه، ويُؤمن مكره وشره.

ويبدو لي أن الأديب الأردني حسني فريز الذي جمعته بالبرقاوي صداقة طويلة، وزمالة العمل في مدرسة السلط الثانوية، قد عبّر لنا بدقة عن جوهر شخصية البرقاوي عندما استرجع ذكرياته مع كثير من أصدقائه، ومنهم حسن البرقاوي، يقول فريز: "يخيل إليّ أننا لا نختار أصدقاءنا، بل إن الحياة نفسها تسوقنا إلى معرفتهم، ثم تتوثق الصلات وتكون الصداقة على أسس المحبة والمبادئ، ويكون ذلك بعد تمرس ومعاناة. أما مع حسن البرقاوي فالأمر لا يحتاج إلى صبر ومعاناة، فإن مجرد لقاء بينك وبينه، وحديث قصير يشدك إليه، ويشده إليك، فإذا بك تحب الرجل"[٢].

أما الكاريزما الخاصة التي اتصف بها البرقاوي، وفرضت حضورها على من اتصل به، وتتلمذ على يديه، أو جمعته به زمالة في العمل،

١- **الرفاعي**، ضياء الدين: "**حسن البرقاوي**"، ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)**. ط١، وزارة الثقافة: ص٧٧.

٢- **فريز**، حسني: **مع رفاق العمر**. ط١، رابطة الكتاب الأردنيين، عمان، ١٩٨٢م: ص٨١.

فيقول عنها فريز: "لقد كان شخصية لا تخطئها العين، ولا يخطئها الفكر، فمن عرفوا الأستاذ البرقاوي لا ينسونه؛ لأن له طابعه المتفرد في الروح، وفي التكوين الجسماني. فقد كان طويلاً ضخماً، شديد القوة، واسع الجبين، كبير الرأس، وفي هذا الكيان الكبير، قلب طفل غرير، وروح شاعر مجيد"[١].

كان البرقاوي معلماً ملهماً، وأستاذاً مؤثراً في طلابه الذين ترك في نفوسهم انطباعات لا تمحى عن علمه ووطنيته وإخلاصه في العمل، وصدقه في الحديث، يقول هاني خريسات أحد طلاب البرقاوي: "وكنا نرى أستاذاً جليلاً، نسمع عن علمه الغزير، وعقله المستنير، وعطائه الكثير، ونحن في الصفوف الأولى، نتمنى أن نسبق الزمن، لنصل الصفوف العليا حتى نتتلمذ على يدي أستاذنا... وعندما أصبحنا تلاميذ البرقاوي، كنا سعداء نترقب حصته التي تملأ عقولنا علماً وأدباً"[٢]. وبناءً عليه، فإن البرقاوي نال إعجاب تلاميذه وتقديرهم، وحاز محبتهم وافتخارهم بالدراسة عليه حتى بعد أن أصبحوا رجال دولة، وقادة جيوش، ورؤساء جامعات، ووزراء ومدراء، ومعلمين وأساتذة جامعيين[٣].

١- **فريز**، حسني: **مع رفاق العمر**: ص٨١.

٢- **خريسات**، هاني: "**المعلم حسن البرقاوي**". ضمن كتاب: **السلط تاريخ وشخصيات**. إعداد وتحرير: محمد العطيات. ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ٢٠٠٩م: ص٢٢٨.

٣- انظر: **الدروبي**، سمير: "**عبدالكريم خليفة محققاً**" مقال ضمن: الموسم الثقافي الثامن والثلاثون لمجمع اللغة العربية الأردني ٢٠٢٠م. منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، عمان، ١٤٤٢هـ/٢٠٢١م: ص٣٢-٣٥.

وبناءً على ما تقدم من فيض الشهادات والمرويات المؤكدة على رفعة أخلاق هذا الرجل، وقوة عزيمته، وبساطته وتواضعه، وقربه من الناس، وقناعة نفسه التي إن دلت على شيء، فإننا نستدل منها على أنه كان أستاذاً قديراً في مدرسة الإخلاص للأمة والوطن، وقدوة صالحة في مدرسة الشرف والخلق السوي، كما هو أستاذ في الأدب واللغة والرياضيات، والدين والفلسفة والمنطق؛ لأنه أدرك دور الأخلاق في نهضة الأمم ورقيها، وتيقن أن "الأخلاق الفاضلة في المشرق قد تطرق إليها الضعف، فأضعف قوى الشرقيين ونفوسهم عن النهوض مع الناهضين، والتسابق مع السابقين من أمم الغرب، والخطر من هذا على المشرق عظيم، يتهدد أهله بناموس الانتخاب الطبيعي القاضي ببقاء الأنسب"[١].

إن الأخلاق الرفيعة، والخلق السوي الذي شهد له به معاصروه وتلاميذه وأصدقاؤه وزملاؤه، قد ورثه لكثير من طلابه، وغرس في نفوسهم الوقوف مع الحق، والجدية في العمل، وغير ذلك من الأخلاق الفاضلة، والمناقب الحميدة، والخصال الرفيعة.

لقد أصبح البرقاوي نموذجاً رفيعاً للمعلم الجاد المخلص، وأيقونة لأجيال المتعلمين الذين تعلموا على يدي معلم معطاء لعقود متتالية، وقد وصف بأنه: "شخصية تعليمية متميزة. لقد استمرت هذه الشخصية في

١- **العظم**، رفيق: "**انحطاط الشرق بانحطاط الأخلاق**". مجلة **المقتبس**، مطبعة الظاهر، القاهرة: المجلد الأول ١٩٠٦-١٩٠٧م، ص٣٤٠.

أثرها على الأجيال في الأردن مدى طويلاً. أتاح لها أن تكون شيئاً متميزاً في حياة التعليم في البلاد، شيئاً لا يمكن إغفاله"[١].

وفوق ذلك، فقد حظي البرقاوي بشهرة مدوية بين طلابه، وبين من جاء بعدهم من الأجيال الأردنية، نتيجة لعلمه وفضله، وطريقته التعليمية المحببة لدى من علّمهم، ومما جاء في الملف التكريمي الخاص الذي اقترحه همام غصيب، ونشره في المجلة الثقافية التي كان رئيساً لتحريرها: "ولعل هذه الشخصية، هي أكثر الشخصيات التعليمية شهرة حتى تتحدث عنها أجيال الخريجين من الشباب. وعلى الرغم من أن أسلوبه –رحمه الله– كان مصدراً من مصادر هذا الحديث المتصل، فإن تمكنه من العلوم الدينية، واللغة العربية اللتين كان يدرسهما، واعتماده على رغبة الطلاب في التعلم بمرح ومودة، دون شدة أو قسوة، كل ذلك كان يجعل درس البرقاوي، إذا أقبل على حصة التعليم، طابعاً خاصاً يتسم بمظاهر الرضى والمحبة"[٢]. علماً بأن البرقاوي كان يرفض الضرب بالعصا، وكل أنواع العقاب الجسدي والنفسي الأخرى، وهو مما كان معمولاً به عند كثير من المعلمين يومذاك.

أما النتيجة الباهرة التي أسفرت عنها أخلاق البرقاوي الرضية المرضية، المستمدة من جذورها العربية الإسلامية، ومن القيم والفضائل الإنسانية، فإنه قد رزق السعادة في طلابه؛ لأنه كان معلماً وأباً، وراعياً

١- **غصيب**، همام: "**ملف تكريمي خاصّ: المرحوم حسن البرقاوي**"، الجامعة الأردنية، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م: العدد (٣٨)، ص٣٠٤.

٢- **المرجع السابق**: العدد (٣٨)، ص٣٠٤.

ومربياً لهم، وحظي البرقاوي بنجباء الطلاب ونوابغهم يتتلمذون على يديه، وينهلون من علمه الغزير، ومورده العذب الكثير الزحام، ثم يتخرجون به حتى أسفرت جهوده وجهاده في التعليم عن عشرات، بل مئات الخريجين على يديه، على مدار خمسة وأربعين عاماً في الأردن. وأغلبهم مجمع على الإشادة بعلمه وفضله، ومن هؤلاء الرجال الذين شهدوا لأستاذهم البرقاوي بالخلود، وبقاء الذكر، لما قام به من أداء لرسالته في التعلم، وتكريس نفسه لخدمة العربية، ورفعة أخلاقه عن كل شائبة، يمكن أن تشين الخلق أو السلوك، ضيف الله الحمود الذي تذكر أستاذه قائلاً: "البرقاوي أحد طلائع المعلمين الأوائل، تخلد اسمه في نفوس طلابه، وتخلدت ذكرياته في أفئدة عارفيه، بل في أفئدة سائر الأردنيين معلماً سابقاً للأدب العربي، وعالماً في الرياضيات، أخلص لواجبه، وأدى رسالته على الوجه الأكمل، ونحن طلابه، سنبقى نذكره بالثناء والتقدير والإعجاب"[1]. وإذا كان طلابه قد وسموه بأستاذ الأجيال، فإن من حقه أن يطلق عليه اسم "المعلم الخالد" كما يقول ضيف الله الحمود، واسم "المعلم العربي" كما يقول حمد الفرحان، و"المعلم القديس" كما يقول سليمان المشيني، ولا شك في أن كثرة هذه الألقاب والنعوت تدل على شرف وسؤدد من لقب بها.

ورسم عبدالحليم عباس صورة جميلة للبرقاوي، الذي شبهه بالماء عذوبة وصفاء، يقول: "هو الماء، وفي الماء عذوبة، وفيه صفاء، ولكن الماء إذا اتسع حجمه فإنه يغرق، ويكون موطن العطب، والبرقاوي يجمع كل هذا، ففيه عذوبة، وفيه صفاء، ولكنه إذا تدفق وهو متدفق، على كل

١- **العطيات: السلط تاريخ وشخصيات:** ص٢٣٦.

حال، خفيف الظل، تأنس به، وقلبه يضيق عن حمل اللؤم الذي لا يعرفه، ولا يعرف المكر والخداع"[١].

وتحدث عنه تلميذه هاني خير، فوصفه بالمربي المكافح الحامل لراية العلم، وأنه "كان يجهد طول عمره، لينكس راية الجهل، ويرفع راية العلم والأدب، ويكرس نفسه لخدمة العاكفين على صياغة القول قراءة وتأليفاً..."[٢].

وحدثني محمد العطيات، أحد تلاميذ البرقاوي في مدرسة السلط، وهو من الموقرين له والمعترفين بفضله وعلمه، بأن معلمه كان عالماً موسوعياً، وكان مرجعاً لزملائه في كثير من الدروس والمسائل التي تصعب عليهم، وقد شاهد ذلك بأم عينه عندما كان طالباً في مدرسة السلط الثانوية. وذكر أيضاً أن البرقاوي يستطرد من موضوع إلى موضوع مما يتصل بالمادة التي يدرسها، خلافاً لأكثر المعلمين التقليديين الذين قلما يحيد أحدهم عن موضوع الدرس. وكانت دروسه مشوقة للطلاب، وبخاصة من كان نابهاً منهم؛ لأنه كان يعود الطلاب على التفكير، فكان يطرح السؤال، فإذا لم يجب أحد من طلابه، فإنه يشرع في الإجابة، وكان منفتحاً على كل الاتجاهات الفكرية الحديثة؛ لأنه كان مؤمناً بحرية الفكر الإنساني، ويرى العطيات أنه من الرواد الذين أحدثوا تغييراً في ثقافة كثير

١- **العطيات: السلط تاريخ وشخصيات:** ص٢٣٦.

٢- **المرجع السابق:** ص٢٣٦.

من طلابه، الذين وجدوا لديه فضاءً ثقافياً واسعاً وحراً ونقياً وإنسانياً متسامحاً لا يعرف التزمت أو التعصب[١].

ومن الذين عرفوا البرقاوي مفتشاً المعلم فوزان الحايك، الذي كان معلماً في مدرسة طارق بن زياد الابتدائية في السلط، وذكر لي: إن البرقاوي سنة ١٩٥٥م قد حضر عندي حصة اللغة العربية التي ألقيتها في الصف السادس الابتدائي، وكان البرقاوي راضياً عن عطائي في الحصة، معجباً به، ثم استدعاني أمام المدير، وأثنى على الطريقة التي قدمت بها الحصة، وعلى حسن إدارتها، وعلى مستوى الطلاب في المادة، فشعرت بارتياح كبير لكلامه وتوجيهاته، وازددت ثقة بنفسي، وحماساً لتدريسي، علماً بأن كثيراً من المفتشين كانوا -آنذاك- يتعالون على المعلمين، ويتعاملون معهم بفوقية، تهدم ما لدى المعلم من رغبة في العطاء والتعليم، والتجويد وتحسين الأداء. وقد سمعت من كثير من زملائي في المدرسة، وفي مدارس السلط الأخرى -وكان بعضهم من تلاميذ البرقاوي- ثناء عطراً، وتقديراً كبيراً للأستاذ البرقاوي، لغزارة علمه، وجلالة فضله، وحميد خصاله، وأنه لا ضريب له بين المفتشين في دماثة الخلق، واحترام الآخرين وتقديرهم، وهو أمر متواتر بين المعلمين، ويشهد به كل من عرف البرقاوي[٢].

١- **العطيات**، محمد: **مقابلة شخصية مع محمد العطيات** في بيته في السلط بحضور عبدالكريم الحياري بتاريخ ٢٠٢١/٦/٢٥م.

٢- **الحايك**، فوزان: **مكالمة هاتفية مع فوزان الحايك** المقيم في عمان، بتاريخ ٢٠٢١/٥/١٣م.

وعندما قابلت فتحي حسن ملكاوي المفكر التربوي المعروف، وسألته عن البرقاوي، كان كلامه قريباً مما ذكره فوزان الحايك عن البرقاوي، الذي وصفه ملكاوي بأنه كان حريصاً على تشجيع المعلمين، وشحذ هممهم لمزيد من العطاء في التدريس، وبث روح الاجتهاد في نفوس الطلاب. وقد أخبرني ملكاوي: أنه في عام ١٩٥٧م أو ١٩٥٨م كان طالباً في مدرسة الزرقاء الثانوية، التي كان مصطفى الشاعر معلم اللغة العربية فيها، فجاء البرقاوي، وحضر إحدى الحصص عند الشاعر، وعندما دخل البرقاوي الصف، كانت له هيبة ووقار، إذ أعطاه الله بسطة في الجسم، وقوة في الصوت، ثم افتتح الحصة بكلام جميل مشوق، جذب انتباه الطلاب جميعاً، واستمع إلى الطلاب وهم يقرأون الدرس، وبدأ بطرح الأسئلة عليهم في القواعد والبلاغة، وكانت إجابات الطلاب الصحيحة تسره جداً، فيثني عليهم ويعززهم، ويشجعهم على مزيد من التحصيل والاجتهاد، أما إذا كانت إجابة أحدهم غير صحيحة، فإنه يحاول توجيهه، وتدريجه في الإجابة الصحيحة، فيشكره على ذلك، ويدعوه إلى مزيد من التقدم.

وفي ختام الحصة، نوه البرقاوي بجهود المعلم في تدريس الطلاب، وشكره على حُسن تدريسه، وكان تعامله معه ودياً أبوياً، فبدا انشراح المعلم واضحاً، من مستوى طلابه في الحصة، وزاد ذلك من ثقة المعلم بنفسه، عندما وجد تعزيزاً وتقديراً من المفتش البرقاوي. علماً بأن كثيراً من المفتشين كانوا يتعاملون مع المعلمين بكثير من الاستعلاء والفوقية، بل التسلط أحياناً، مما يؤدي إلى كبح جماح المعلمين الذين كان لديهم استعداد للعطاء، ورغبة في العمل. وأضاف ملكاوي أنني ما زلت أذكر ذلك اليوم،

الذي جاء فيه البرقاوي إلى مدرستنا، ولم تمح تلك الذكرى من ذهني، على الرغم من مضي أكثر من ستة عقود، علماً بأننا قلما نتذكر أحداً من المفتشين في تلك المرحلة الدراسية، ولكن ذكرى البرقاوي المفتش المهيب، ذي الصوت الجهوري، والأسلوب الساحر الذي ملأ الحصة علماً ونفوس الطلاب ومعلمهم تعزيزاً وتشويقاً، ما زالت عالقة في أذهاننا، وما زلنا نتذكره ونعجب من سعة علمه، وقوة تأثيره في نفوس المعلمين والطلبة على حد سواء، وندعو له بالرحمة[١].

وكان المؤرخ الأردني محمد عدنان البخيت واحداً من الطلاب الذين عرفوا البرقاوي، وحضروا دروسه، وذكر لي: إنه في أواسط الخمسينيات من القرن الماضي، حضر البرقاوي إلى مدرسة ماحص الإعدادية التابعة للبلقاء، وجمعت له جميع صفوف المدرسة في غرفة واسعة –وكان عدد الطلبة قليلاً في تلك الأيام– وألقى علينا عدة دروس في القواعد والإنشاء والبلاغة والعلوم الإسلامية، وكانت دروسه مشوقة جداً، ينبهر الطالب عند سماعها، لما فيها من الفوائد الجمة، التي لم نعهدها عند غيره من المعلمين، واستمرت دروسه من الصباح وحتى آخر النهار، ونحن في غاية الانجذاب إلى دروسه التي قدمها بأسلوب يتسم بالعفوية والبساطة.

ثم حضر المفتش البرقاوي بعد ذلك بسنتين إلى مدرسة صويلح الثانوية، وكان مديرها شركسياً، من أهل العلم والفضل، واسمه أحمد

١- **ملكاوي**، فتحي حسن: **مقابلة شخصية مع فتحي حسن ملكاوي** في مجمع اللغة العربية الأردني بتاريخ ٢٠٢١/٩/٥م.

عبدالرزاق هاكوز، وهو من خريجي الأزهر، فقدم البرقاوي بما يليق به من الإجلال والإعظام، لعلمه وموسوعيته وأدبه، وفضله ونبله، ولما له من سمعة مدوية، وصيت ذائع في وزارة التربية والتعليم، وألقى علينا البرقاوي عدة دروس، شعرنا أنها تفيض من روحه، وتخرج من قلبه، وكأنها النور الذي يتسلل من عقله إلى عقولنا، وكانت دروسه التي قدمها بأسلوبه البسيط المشوق، تتضوع منها رائحة الصدق، ويفوح منها عبير الإخلاص، وبقي كل واحدٍ من الطلاب ملتصقاً بمقعده، لسماع المزيد من درره وشذراته، وحكمه وفوائده[1]، وكما قيل: الكلام الذي يخرج من القلب يقع في القلب، فوقعت محبته في نفوسنا، وغرس علمه في عقولنا، وما زلنا حتى اليوم نتذكره ونترحم عليه، وندعو له بالغفران والجنة؛ لأنه من أفذاذ المعلمين وعباقرتهم، الذين ندر أن يجود الزمان بأمثالهم.

ومما هو جدير بالتنبيه هنا، أن البرقاوي قد أمضى خمس سنوات تقريباً في مرحلة التفتيش العلمي والفني، وهي المرحلة الأخيرة من حياته التعليمية في وزارة التربية، قام فيها بالتفتيش على مئات المعلمين في البلقاء وعمان، والكرك والشوبك، ومعان والعقبة، والزرقاء وأربد وغيرها، وألقى مئات الدروس، وكان نفعه عظيماً للمعلمين والطلاب على حدٍّ سواء، علماً بأنه كان شيخاً على أبواب السبعين من عمره، وكانت المواصلات يومذاك قليلة وغير منتظمة إلى بعض القرى والمناطق النائية، فكان أحياناً يركب الدواب، أو يمتطي الخيل –وهو من فرسانها–، أو يسافر مع الشاحنات، أو

١– **البخيت**، محمد عدنان: **مقابلة شخصية مع محمد عدنان البخيت** في الجامعة الأردنية بتاريخ ٢٠٢١/٣/١١م.

الجـرارات الزراعيـة إذا عـدم الحـافلات، وفـي ذلـك مـن المشـقة الشـيء الكثيـر، ولكـن إصـراره كـان عنيـداً فـي سـبيل الوصـول إلـى المعلمـين فـي القـرى البعيـدة والمنـاطق النائيـة، يـوجههم إلـى أحـدث الأسـاليب فـي التربيـة والتعلـيم، ويـزرع الثقـة فـي نفوسـهم، ويزيـدهم اعتـزازاً وفخـراً بمهنـتهم الشـريفة، وكانـت رغبتـه شـديدة فـي الوصـول إلـى الطـلاب، الـذين يـزرع فـي نفوسـهم القـيم الوطنيـة، ويزيـدهم فخـراً واعتـزازاً بلغـتهم العربيـة، وقـرآنهم الكـريم، وحضـارتهم التـي هـي أم لكل الحضارات.

وفـوق ذلـك، فـإنني أود أن أعـرض علـى سـبيل الإيجـاز أهـم الأعمـال التـي نهـض بهـا البرقـاوي فـي عـامي ١٩٥٧م و١٩٥٨م، مـن خـلال مـا تمـدنا بـه وثـائق وزارة التربيـة والتعلـيم فـي الأردن، التـي أصـبح البرقـاوي فيهـا مسـاعداً لمفـتش اللغـة العربيـة والـدين، إذ قـام فـي ذلـك العـام، بـالتفتيش لمبحثـي اللغـة العربيـة والـدين الإسـلامي، والتفتـيش الفنـي، فـزار خمسـاً وسـبعين مدرسـة ثانويـة ومتوسـطة، وفـتش علـى مئـة وأربعـة وثمـانين معلمـاً، ودرّس أربعمائـة وثلاثـة عشـر درسـاً، وقـام بفحـص المعلمـين فـي التربيـة العمليـة، وقـام بوضـع الأسـئلة، وتصـحيح الاختبـارات، وكـان أغلـب عملـه ميـدانياً، إضـافة إلـى الأعمـال الأخـرى التـي قـام بهـا تطوعـاً واحتسـاباً، ولـم يتقـاض عليهـا أجـراً، كالتـدريس أحيانـاً، والنظـر فـي المنـاهج، والإشـراف علـى المهرجـان الأدبـي للوزارة في ذلك العام[١].

١- انظر: **وثائق وزارة التربية والتعليم في الأردن**، الموظف **حسن البرقاوي**، إضبارة رقم (٥٨/١١).

وكل ما ذكر آنفاً، يدلنا على جليل المهمة التي نهض بها ذلك المعلم المخلص المعطاء، الذي يرجو الأجر والثواب من رب السماء، لذلك فإن الله نفع بعلمه، وأعلى ذكره في حياته وبعد مماته، وجعله قدوة ومثالاً لكل معلم أمين تقي نقي، ينظر إلى السماء في عمله، ويصبح التعليم عنده عبادة وديناً، وعقيدة وطنية تبني لنهضة الأمة، ولا ريب أن هذه الظاهرة في المعلمين قلما تتكرر، وبخاصة إذا علمنا أن البرقاوي كان مؤمناً بانتصار هذه الأمة، وأن الله قد أيدها بالحق، وجعل لها السيادة والظفر، مهما اسودت الليالي وادلهمت الخطوب، وصعبت الظروف، وقلَّ العَدد والعُدد، وقد ذكر ذلك، رحمه الله، في مقالته الرائعة –وكل مقالاته رائعة بليغة رائقة– التي تحدث فيها عن غزوة بدر الكبرى، التي أعزَّ الله فيها دعوة الحق، ونصر نبيه عليه السلام وصحبه الكرام، يقول: "وهي أول معركة قامت بين الحق والباطل وجهاً لوجه، يوم التقى الجمعان، فظهر الحق وزهق الباطل، وصرع الشرك على بطاح بدر، وطوى قليبها مردة الشّر، وعصابة البغي والبهتان، على الرغم من كثرة عدد المشركين وعددهم، وكثرة من يؤيدهم، وقلة عدد المسلمين، **مما يبشر كل مجاهد في سبيل الحق، والحق في الإسلام، والحق مع الإسلام، بأنه منتصر مهما كانت العوامل والفوارق**"[1]. فالبرقاوي موقن يقيناً تاماً بحتمية انتصار هذه الأمة، وقد عرف ذلك يقيناً من خلال دراسته لأيامها وحروبها، وفتوحاتها وانتصاراتها، وإن اعتراها الضعف أحياناً، إلا أنها سرعان ما تنهض وتشتد، وتكون أقوى مما كانت عليه.

١– **البرقاوي**، حسن: "**غزوة بدر الكبرى**". مجلة **هدي الإسلام**، وزارة الأوقاف، الأردن، عمان، ١٩٥٨م: المجلد الثاني، العدد التاسع، ١٩٥٨م.

ولا ريب في أن البرقاوي كان يعدُّ مهنة التعليم جهاداً في سبيل الله وقربة إليه، وأن نهضة الأمة منوطة بالمعلمين الوطنيين المؤمنين المخلصين لأمتهم، ولذا كان الرجل حريصاً على استنهاض همم المعلمين، وتعزيز ما لديهم من قدرات وطاقات إبداعية تمكنهم من تكوين نشء جديد صالح منتم لأمته، لغة وتاريخاً، حضارة ودیناً.

وكان الرجل دائم الاعتزاز بتلاميذه، والفخر بما أضحوا عليه في مجتمعهم، فكثير منهم أصبحوا رؤساء وزارات في الأردن وسوريا، ومنهم من غدوا قادة للجيوش وضباطاً كباراً فيها، ومنهم الوزراء والسفراء، والمدراء ورؤساء الجامعات، ومنهم المحامون والقضاة، والكتاب والنواب، وغيرهم الكثير من الرجال الذين خدموا في مختلف أجهزة الدولة المدنية والعسكرية، نذكر منهم: وصفي التل، هزاع المجالي، حابس المجالي، جمال الشاعر، حمدان الفرحان، عبدالكريم غرايبة، عبدالسلام المجالي، هاني خير، صلاح أبو زيد، محمد الحياري، ضيف الله الحمود، سليمان المشيني، عبداللطيف عربيات، إسحاق الفرحان، عبدالكريم خليفة، محمد عدنان البخيت، وغيرهم عشرات الأعلام.

ومن الأمثلة الدالة على مبلغ اعتزاز البرقاوي بتلاميذه، وتقديره لنجاحهم، ودورهم في نهضة المجتمع الأردني، وقيادة مؤسساته التعليمية والإدارية، والسياسية والعسكرية ما كتبه هاني خريسات –الذي كان أحد طلابه في مدينة السلط التي علّم البرقاوي في مدرستها الثانوية نخبة الطلاب وصفوتهم من كل المدن الأردنية– عن ذلك اللقاء مع أستاذه البرقاوي في مدينة نابلس سنة ١٩٦٠م، وكان البرقاوي بصحبة رهط من

أقاربه من آل سيف، يقول خريسات: "فسلمت عليه، وقبلت يده، وقال لأقاربه: إن مثل هذا يساوي عندي ثمناً غالياً، ويفوق عمارات نابلس الشاهقة، فمثل هذا هم ثروتي وثرائي"[1].

وقريب مما قاله خريسات، ما قاله سليمان المشيني، وهو من تلاميذ البرقاوي المبدعين، الذين خدموا اللغة العربية في الإعلام الأردني ردحاً طويلاً من الزمن، يقول في عبارته الشعرية، الممزوجة بالحكمة، التي نهلها من معين أستاذه الخالد: "وإذا لم يشد البرقاوي بيتاً من طين أو حجر، فحسبه آلاف البيوت، بل القصور في أفئدة تلاميذه، وإن له منزلة سامية في قلب كل من عرفه، وقد شيد الموت له عمراً جديداً، والناس صنفان: موتى لا حياة لهم، وآخرون ببطن الأرض أحياء"[2]. وصدق المشيني الذي استمد الحكمة العربية القائلة بحياة أهل العلم بعد موتهم، وبخلودهم وهم في قبورهم: "الناس موتى وأهل العلم أحياء".

وطلاب هذا المربي الفاضل، مجمعون على تقدير علمه، ومحبة شخصه، والاعتراف بأياديه البيضاء في تنوير عقولهم، وصقل لغتهم، وتهذيب نفوسهم، وتغذيتهم بلبان الحرية والوطنية، وربطهم بتاريخ الأمة وحضارتها، فكان له منهم كل التبجيل والإجلال، تقديراً لإحسانه إليهم في نقلهم إلى فضاء المعرفة الواسع، وما قدمه لهم من عطائه العلمي الجم الذي لم يبخل به عليهم يوماً واحداً.

١- **خريسات**، هاني: "**المعلم حسن البرقاوي**"، ضمن كتاب: **السلط تاريخ وشخصيات**، إعداد وتحرير: محمد عطيات، ط١، وزارة الثقافة، عمان، ٢٠٠٩م: ص٢٣٠.

٢- **المرجع السابق**: ص٢٣٥.

لقد أجمع طلابه وزملاؤه، ورؤساؤه ومرؤوسوه، على أستاذيته وموسوعيته، فكان له ما حظي به من طلابه وزملائه وأصدقائه من الإجلال والتقدير، والتبجيل والتكريم، وطار بين الناس ذكره الحسن، وسمعته العلمية العطرة، وقدراته العلمية المميزة، وتفوقه في تدريس كل المواد، حتى أصبح أيقونة للمعلم المثالي، ورمزاً للتضحية في سبيل خدمة قضية اللغة العربية التي هي أساس نهضة الأمة، وفي دراسة الدين الإسلامي، وفهمه فهماً علمياً صحيحاً، اعتماداً على العقل والدليل، والحجة والبرهان، وتخليصه من كل ما علق بدراسته من بدع وشوائب تسربت إليه من طريق بعض الطرق والمذاهب، وعلماء السلطان، والمرتزقة باسم الدين، وأدعياء العلم.

وتدليلاً على محبته الغامرة عند تلاميذه، ما قاله أحد طلابه، وهو عبدالكريم خليفة مؤسس مجمع اللغة العربية الأردني، وحامل راية الدفاع عن لغة العرب ثلاثة أرباع القرن، في تأبينه لأستاذه البرقاوي سنة ١٩٦٩م: "رحمك الله أبا محمد، فقد كنت أحد تلاميذك. وهم كثر في هذا البلد، وأقول الحق: إنني لا أعرف أحداً منهم إلا ويكن في قرارة نفسه أسمى مشاعر المحبة للأستاذ البرقاوي"[١].

وكما قال الشاعر:

الناسُ أكيسُ من أن يَحمدوا رجلاً حتى يروا عنده آثارَ إحسانِ

١- **خليفة**، عبدالكريم: "**خطاب عبدالكريم خليفة في تأبين حسن البرقاوي**". نسخة محفوظة لدى سمير الدروبي: ص ١.

رابعاً- الصورة المشرقة التي يمثلها سلوك البرقاوي ومسلكه التعليمي والإداري:

مما لا شك فيه أن صورة مشرقة متألقة، قد عكستها لنا -عن البرقاوي- التقارير السرية التي رفعها مديرو المدارس، أو المفتشون أو الحاكم الإداري أحياناً، وبخاصة في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي، وهي صورة شفافة واضحة، صادقة وأمينة، رصدت سلوك البرقاوي في المدارس، وفي المجتمع، في تعامله من زملائه وطلابه، وهي أقرب ما تكون إلى صورة المعلم المثالية، التي تُرتجى لكل واحدٍ من المعلمين، وبخاصة إذا توفرت لهم الظروف المناسبة، وكانت لديهم الرغبة الحقيقية في اتخاذ التعليم مهنة ورسالة، وعلموا أنهم في كنف رقابة الله لكل كبيرة وصغيرة في عملهم الخطير.

وقد أمدتنا التقارير السنوية التي كانت ترفع بحق البرقاوي منذ سنة ١٩٢٥م، وحتى ١٩٦٠م عندما أحيل على المعاش، بمجموعة من السمات والخصائص، التي حددت أبعاد هذه الشخصية التربوية ومعالمها، ورسمت قسماتها وصفاتها، وأبانت عن سماتها وخصائصها، وجعلت منها نموذجاً ومثالاً، وقدوة ونبراساً لغيره من المعلمين، ومن أهم ما اتسم به المعلم البرقاوي، وفقاً لما جاء في تلك التقارير المحفوظة في ملفه الوزاري المكتوم:

أ- **الإخلاص في العمل:** وقد وصف بأنه معلم مخلص في عمله، وبأنه كان مخلصاً إخلاصاً تاماً في الوظائف التدريسية التي كانت

مودعة لديه، وبأنه يؤدي واجباته "بأمانة وإخلاص"[١]. ونعت بالإخلاص الشديد، وله غيرة شديدة على القيام بالواجبات والأعمال المنوطة به، وإن إخلاصه وتفانيه في العمل جعله محلاً لكل تقدير وعناية، نتيجة لبذله ما في وسعه في التعليم، مع إخلاصه له. ولا غرو في ذلك فقد وصفه رفيق عمره في سورية تيسير ظبيان بالقول: "وكنت أشعر، وأنا أستمع إلى أقواله وأحاديثه، بأنني حَيال أديب عبقري، وعالم فذ يفيض قلبه الكبير بالإخلاص والإيمان، والمشاعر النبيلة"[٢].

ب- **السلوك الرفيع، والأدب الجم، والخلق الحسن:** فقد شهدت له التقارير بأنه معلم: مشهود له بحسن السيرة، والأخلاق الحسنة، وهو على درجة عالية من الكمال والتهذيب، وبأنه جم الأدب رفيعه[٣].

ج- **توجهاته الوطنية:** في تعزيز روح المقاومة لصد الغزاة، وطرد المستعمرين. ونزعته القومية التي يدعو فيها إلى توحيد العرب، وإعادة عزهم وغابر مجدهم، وقد اتخذ من تدريس الأدب، ولسان العرب، والعلوم الدينية والوقائع والأحداث التاريخية ذريعة لذلك.

١- انظر: **وثائق وزارة التربية والتعليم في الأردن، الموظف حسن البرقاوي**، إضبارة رقم (٥٨/١١).

٢- **ظبيان**، تيسير: "**فقيدنا البرقاوي**". ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)**. ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م: ص٥٠.

٣- انظر: **وثائق وزارة التربية والتعليم في الأردن، الموظف حسن البرقاوي**، إضبارة رقم (٥٨/١١).

د- **تقدير المسؤولية والارتباط بالنظام المدرسي:** فقد وصفه أحد التقارير بأنه: "يقدر المسؤولية حق قدرها، ويرتبط بالنظام إلى أقصى حدود"[١]. ولا غرو في ذلك، فقد كان البرقاوي عسكرياً قبل أن يكون معلماً، فبقي نظام الجندية مصاحباً له في حياته الشخصية والتعليمية، مع تنحية الشوائب التي كانت تمتاز بها عسكرية ذلك الزمان، وأبقى على جانبها النافع المفيد.

هـ- **حب مهنة التعليم والتفاني في أدائها:** لقد أصبح طلب العلم والتعليم ديدناً للبرقاوي، منذ أن دخل كتاب قريته بُرقة في نهاية القرن التاسع عشر، وأمضى أغلب حياته طالباً للعلم، أو معلماً في المدارس، وبلغ من شدة تعلقه بالمدرسة، أنه كان يتأخر فيها بعد انصراف الطلاب[٢] منها أحياناً كثيرة، لمتابعة دفاتر الطلاب، أو القيام بالواجبات والأعباء التعليمية الأخرى، وبقي مصراً على التعليم، حتى الأيام الأخيرة من حياته، وكان على مشارف الثمانين من عمره.

و- **وفرة النشاط وعلو الهمة:** فقد وصف في أحد التقارير التي كتبت بحقه في سنة ١٩٥٣م أي قبل تقاعده بسبع سنوات، وكان قد تجاوز الستين من عمره بأنه "ما زال جم النشاط، ولولا بعض الضعف في إدارته، لكان مثال المعلم المنتج الكامل"[٣]. ولعل السبب في ضعف إدارته، أنه كان مصاباً بشيء من الذهول الذي

١- انظر: **وثائق وزارة التربية والتعليم في الأردن، الموظف حسن البرقاوي**، إضبارة رقم (٥٨/١١).

٢- انظر: **المصدر السابق، الموظف حسن البرقاوي**، إضبارة رقم (٥٨/١١).

٣- انظر: **المصدر السابق، الموظف حسن البرقاوي**، إضبارة رقم (٥٨/١١).

هو ضرب من الدهش، يعتري بعض الناس أحياناً، وقد فسر عبدالحليم عباس بأن ما كان لدى البرقاوي هو "داء العظماء، عزوف عن السفاسف، وذهول واستغراق في المعرفة"[١]، بمعنى أن البرقاوي كان دائم التأمل والتفكر فيما يقرأ، ويحاول فهمه، وإن بدا عصياً على الفهم، ولذا فهو دائم التحديق فيما قرأ، وقد يؤدي ذلك إلى نسيان نفسه لجولان الأفكار في خلده، ودورانها في نفسه، ولا سيما أن البرقاوي كان ميالاً للتجديد والاطلاع على الجديد في العلم، ومولعاً بالوقوف على نظرياته ومحاولة فهمها.

ز- **تطوير معارفه وقدراته والعمل على تنميتها:** إذ لم يكتف البرقاوي بما حصله في الأزهر، أو في مدارس دمشق ومجمعها، بل كان دائم البحث عن كل جديد، وقد ذكر أحد التقارير أنه "يجدد معلوماته بالدرس والمطالعة"[٢]، وقد بقيت هذه الفضيلة ملازمة له حتى لفظ أنفاسه وودع الدنيا. حدثني سبطه عبدالرحمن جمعة أنه كان يزور جده في بيته الصغير الواقع في طرف جبل عمان، ويمضي عنده أياماً، وقد لاحظ عليه، أنه يقطع الليل قراءة وبحثاً، ولا يخلد إلى فراشه قبل منتصف الليل، ثم يهب مع الفجر للعبادة والكتابة والقراءة، وكان ذلك دأبه طول عمره[٣].

١- **عباس**، عبدالحليم: "**بين البرقاوي وعبدالحليم عباس**"، ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)**. ط١، وزارة الثقافة. ط١، الأردن، عمان، ١٩٩٠م: ص٩١.

٢- انظر: **وثائق وزارة التربية والتعليم في الأردن، الموظف حسن البرقاوي**، إضبارة رقم (٥٨/١١).

٣- **جمعة**، عبدالرحمن: **مقابلة مع عبدالرحمن جمعة** سبط البرقاوي بتاريخ ٢٠٢١/٦/٢٠م.

وبناءً على ما تقدم، فإن التقارير الإدارية والتعليمية التي وجدناها في ملفه المكتوم، تتفق على هذه النقاط التي ذكرناها سابقاً، وجعلت كثيراً من رؤسائه في العمل، ورجال الإدارة في الدولة، يصفونه بأنه من خيرة المعلمين، ومن أجلهم وأشرفهم، بل أشارت بعض هذه التقارير إلى عفته وطهارة ذيله، وبعده عن المنكرات والمسكرات[1]، وعن كل ما يمكن أن يلحق عاراً أو شيناً بالمربي الفاضل، والأب الحاني، والمعلم الناصح الذي كان البرقاوي مجسداً لصفاته وخلاله، ولسلوكه وعمله.

المبحث الثالث- جهود البرقاوي وعمله الدؤوب للنهوض باللغة العربية في الأردن من ١٩٢٥-١٩٦٩م:

لقد أمضى البرقاوي ستة عقود من عمره، وقطع سواد لياليه وبيض أيامه في اكتسابه لغة العرب، وتعليمها ونشرها، ولا ريب في أن الرجل كانت له رؤية ثاقبة لخدمة هذه اللغة، والعمل على ارتقائها في البيت والمدرسة، والإعلام ودواوين الدولة، ويمكن أن نقف على بعض هذه الجهود من خلال الآتي:

أولاً- تشخيصه واقع اللغة العربية وما تواجهه من تحديات، وما يشن عليها من حروب لغوية في العصر الحديث:

ولد البرقاوي وعاش في الفترة التي تعرضت فيها لغة الضاد لحملات متواصلة، وحروب لغوية عنيفة، فقد أمضى قرابة ثلاثة عقود

١- انظر: **وثائق وزارة التربية والتعليم في الأردن، الموظف حسن البرقاوي**، إضبارة رقم (٥٨/١١).

من حياته في العهد العثماني، أي في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، والعقدين الأول والثاني من القرن العشرين تقريباً، وعاش عقداً كاملاً من عمره أيام سياسة التتريك (١٩٠٨-١٩١٨م) التي فرضتها جمعية الاتحاد والترقي التي كانت واجهة علنية لحزب "تركية الفتاة"، وهو حزب ماسوني طوراني قومي متعصب أشد التعصب، ويكره الإسلام والعرب كرهاً شديداً، لذلك عملت الاتحاد والترقي على تتريك المدارس والمؤسسات في الولايات العربية، وأصبحت العربية تعلم باللغة التركية، وقد يكون المعلم لها تركياً ليس لديه إلا القليل من المعرفة باللغة العربية[١].

وعرف البرقاوي الجمعيات والأحزاب العربية، التي بدأت تطالب بحماية العربية في أرضها. وعندما درس في الأزهر في العقد الأول من القرن العشرين، شاهد عن كثب محاربة الإنجليز للغة العربية في المدارس المصرية، إذ جعلوا من لغتهم الإنجليزية لغة رسمية فيها، وعرف البرقاوي دعواتهم المشبوهة إلى الكتابة بالعامية، وغاظه ما زعمه وتخرص به السير وليم ولكوكس الاستعماري البغيض من أن اللغة الفصحى، هي السبب في تخلف المصريين في العلوم والمعارف

١- انظر: **راموز**، أرنست: **تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨م**. ترجمة: صالح أحمد العلي. قدم له وراجعه: نقولا زيادة. ط١، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٠م: ص١٢٢-١٢٥. **كرد علي**، محمد: **المذكرات**. طبعة مصورة، دار أضواء السلف، الرياض، بلا تاريخ: ج١، ص١٦٤، **الدروبي**، سمير: **مجامع اللغة العربية في دمشق وعمان في عهود الهاشميين ١٩١٨-٢٠٢١م**. ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ٢٠٢١م: ج١، ص٢٩-٤٠.

العصرية[1]. ونسي الاستعماري ولكوكس أن مصر قبل ذلك بنصف قرن، كانت دولة عظمى، امتدت حدودها من خط الاستواء وحتى شمال اليونان، ومن الخليج العربي حتى ليبيا، عندما عُربت العلوم، ودرست بالعربية، فكانت تلك النهضة العظيمة زمن محمد علي الكبير وأولاده.

ثم انتعشت آمال الشاب البرقاوي وغيره من الأحرار العرب مع نهاية الحرب الكونية الأولى، وبخاصة بعد قيام الحكومة العربية "الفيصلية" في الأجزاء الداخلية من بلاد الشام (١٩١٨-١٩٢٠م)، ظناً منهم أن الإنجليز والفرنسيين سيحققون لهم وعودهم بالاستقلال، ووحدة الأرض العربية ونهضتها، ولكنهم سرعان ما تكشفت أمامهم الحقائق الصادمة المذهلة، وأكبرها إخراج الملك فيصل من دمشق بعد معركة ميسلون، وإسقاط أول دولة عربية مستقلة في العصر الحديث، فكان هذا الاستعمار الغربي الجديد، أكبر ظلماً، وأشد خطراً وحقداً، وأكثر شراً من الاتحاديين الأتراك في العقد الأخير من عهدهم[2] على الرغم من شدة بطشهم وكثرة ظلمهم.

شاهد البرقاوي الغزاة الجدد، يفرضون هيمنتهم بالقتل وقصف المدن، ويرفعون شعارات صليبية قبيحة، عندما دخلوا القدس ودمشق،

١- انظر: **موسى**، سلامة: "**اللغة الفصحى واللغة العامية ورأي السير ولكوكس**". مجلة **الهلال**، تموز، ١٩٢٦م/١٣٤٤هـ، السنة (٣٤): ص١٠٧٣-١٠٧٧؛ **الجندي**، أنور: **الفصحى لغة القرآن**. ط١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، بلا تاريخ: ص١٢٦-١٣٥.

٢- انظر: **الحصري**، ساطع: **يوم ميسلون**. دار الاتحاد، بيروت، بلا تاريخ: ص٣٦٨.

وسمع مقولة اللنبي عندما دخل القدس معلناً نهاية الحروب الصليبية، وعرف ما فعله الأكتع الأقطع غورو عندما ركل برجله قبر صلاح الدين وغير ذلك. وقام المحتلون بنهب ثروات البلاد وآثارها، ومخطوطاتها وذهبها، وفرضوا لغتهم في الدوائر والتعليم، وأصبحوا يديرون البلاد بالتراجمة، وحوربت اللغة العربية بلا هوادة، وفرضت الفرنسية والإنجليزية والعبرية لغات رسمية في بلاد الشام، وأصبحت خطراً داهماً يهدد العربية في معاقلها وحصونها، وفي أرضها التي تجذرت وعاشت فيها قبل الإسلام بآلاف السنين، ومنح المستعمرون من أتقن لغاتهم الوظائف والمناصب، وأُبْعِد في كثير من الأحيان من لم يتقنها[١].

إن قرارات التعريب الحكيمة، التي اتخذتها الحكومة العربية في دمشق في عهد الملك فيصل، ووضعها المجمع العلمي العربي موضوع التطبيق العملي، قد أسهمت في تعريب كليات الطب والحقوق ودواوين الدولة، ولولا إرادة التعريب في عهد الحكومة الفيصلية لساء حال العربية في بلاد الشام، ولتغلبت الفرنسية على لغة التعليم والإدارة فيها[٢].

١- انظر: **كرد علي، المذكرات:** ج١، ص١١٩-١٢٠، ٢٠١-٢٠٣.

٢- انظر: **مبارك،** مازن: **مجمع اللغة العربية بدمشق** (١٣٣٧هـ/١٩١٩م). ط١، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م: ص٣-٧؛ **الدروبي، مجامع اللغة العربية في دمشق وعمان:** ج١، ص٤١-٧٦.

رأى البرقاوي كل تلك الأحوال والوقائع في سوريا التي عاش فيها معلماً وطالباً، ورأى الدور الكبير الذي اضطلعت به المدارس في نهضة اللغة العربية، بعد استجابتها السريعة لسياسة التعريب التي انتهجتها الحكومة العربية بدمشق[1]. وشاهد تمكين الإنجليز للعصابات الصهيونية في فلسطين، التي أسس فيها الصهاينة مدارسهم المهنية والتقنية والأكاديمية، وأقاموا جامعتهم، التي كان التدريس فيها بالعبرية التي عملوا على إحيائها وبعثها بعد موتها بكل وسيلة ممكنة، مع استبعادهم للغة الحياة اليومية التي كانت سائدة عندهم[2]. بينما يطوى بساط العربية، ويضيق الخناق عليها، ويقلل عدد المدارس التي تعلمها، وترتفع نسبة الأمية بين أهل الشام، وقلما يسمح بإنشاء المدارس الثانوية، فقل عدد المتعلمين الذين يمكن أن تنهض بهم الأمة. رأى البرقاوي هذه الأوضاع والأحوال، ورأى أن سلاح التعليم هو الرد المناسب، وهو الدواء الناجع لهذه الأوصاب والمعضلات الخطيرة، التي تتهدد الأمة في هويتها وثقافتها في حاضرها ومستقبلها.

١- انظر: **جريدة العاصمة**، ٢٦ جمادى الثانية ١٣٣٧هـ/٢٦ آذار سنة ١٩١٩م. السنة الأولى، العدد (٢٩)، ص٣؛ **القاسمي**، ظافر: **مكتب عنبر (صور وذكريات من حياتنا الثقافية والسياسية والاجتماعية)**. ط١، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، بلا تاريخ: ص١٠٢.

٢- انظر: **روشفلد**، أفيل: **القومية العرقية وسقوط الإمبراطوريات**. ترجمة: عاطف معتمد، عزت زيان. ط١، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٢م: ص٢٧٦.

ثانياً- إتقان البرقاوي للغة العربية، وعلو كعبه فيها، وبراعته في علومها، وإحكامه لفنونها ودأبه في طلبها والاستزادة منها:

لقد استجاب البرقاوي لتلك الظروف الاستعمارية العصيبة التي حاربت العربية حضارة ولساناً، وتاريخاً وتراثاً، أما رده على تلك التحديات الصعبة، فكان الإتقان للغة العربية، والتبحر في علومها وفنونها، والعمل على تعليمها بالطرق العلمية الصحيحة.

يبدو أن إعجاب البرقاوي بلغة العرب، بدأ منذ مرحلة الكُتاب في قريته برقة عندما تعلم فيها الكتابة والخط، وقراءة القرآن وحفظه صغيراً، وتابع ذلك في مدرسة قريته، ثم شد رحاله إلى مصر، فتوسعت مداركه ومعارفه، واتسع أفقه المعرفي في الأزهر، الجامعة الإسلامية العريقة التي ما زالت ترسل إشعاعها العلمي منذ ألف عام. ولا سيما بعد إصلاح مناهجه التعليمية، على يد الشيخ محمد عبده، ودرس العربية أيضاً في المسجد الصلاحي بنابلس عند عودته من الأزهر الذي أمضى فيه حولين من ١٩١٠-١٩١٢م.

ومع بداية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م، دعي البرقاوي للخدمة العسكرية في الجيش العثماني في دمشق، وأقام فيها وفي حمص ودرعا قرابة عقد من الزمان معلماً ومتعلماً، فدرس العربية والبلاغة والأدب على الشيخ بهجة البيطار، وحضر محاضرات علماء مجمع اللغة العربية ومجالسهم، وعرف مقاصدهم وأهدافهم، إلى أن تحققت له طموحاته في امتلاك ناصية اللسان العربي، والبراعة فيه نحواً وصرفاً، بلاغة وأدباً.

ويظهر أن البرقاوي قد أحكم العربية، وتبحر في علومها، وشهد له معاصروه بذلك، فقد وصفه عبدالحليم عباس بأنه: "المِفنُّ في اللغة العربية، المتبحر في عجائبها"[١]، وأجمع طلابه وزملاؤه على أستاذيته، وطول باعه في اللغة العربية، فقال عنه أحد طلابه وهو إبراهيم عبدالرحيم العمد: "كان البرقاوي –رحمه الله– أحد من تتلمذت على أيديهم، وكان أستاذاً متميزاً، ومعلماً بارعاً، لا أعرف أحداً قبله ولا بعده ممن يتقن اللغة العربية إتقانه لها"[٢]. والقارئ لما بقي لنا من تراث البرقاوي، يدرك حقيقة براعته في العربية، وامتلاكه أسلوباً ناصعاً مشرقاً فيها.

ثالثاً– الاعتزاز بالتراث العربي الإسلامي، وإحالة طلابه إلى مصادره اللغوية والأدبية القديمة:

نهل البرقاوي علمه في العربية وآدابها من أسفار الأدب العربي القديم، التي اطلع عليها في المدرسة الدينية بنابلس، والأزهر، والمكتبة الظاهرية، ومكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق، وكان عارفاً بقيمة هذه المصادر في تشكيل الثقافة الأدبية، والسليقة اللغوية لدى طلابه الذين درسهم "البيان والتبيين" للجاحظ، و"الكامل في اللغة والأدب" [٣] للمبرد،

١– **البرقاوي**، حسن: "**النقاب في المنخل**". ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)**. ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م: ص: ١٠٤.

٢– **العمد**، هاني: "**شهادات معاصري البرقاوي**". ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)**. ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م: ص٤٤.

٣– انظر: **المصدر السابق**: ص٤٣.

والكتابان من أهم الأعمدة في دراسة الأدب عند القدماء من العرب، وهما من الأصول الأربعة المعتمدة في دراسة علم الأدب عندهم، يقول ابن خلدون في مقدمته: "وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم، أن أصول هذا الفن وأركانه، أربعة دواوين، وهي: "أدب الكاتب" لابن قُتيبة، وكتاب "الكامل" للمُبرِّد، وكتاب "البيان والتبيين" للجاحظ، وكتاب "النوادر" لأبي علي القاليّ البغدادي، وما سِوى هذه الأربعة، فتبعٌ لها وفروع عنها..."[١].

وعلاوة على تدريسه بعض نصوص كتب أصول الأدب، المار ذكرها في الدروس الصفية، فإنه كان حريصاً على تعزيز ما أعطاه لهم في المدرسة بحصص إضافية، يسخر فيها كل قدراته ومهاراته التعليمية، يقول محمد الحياري –وهو أحد طلاب البرقاوي، وجاره في السكن في السلط–: "أسلوب البرقاوي في التدريس أسلوب عظيم، فلا تجد طالباً درس على يديه، إلا وقد تأثر به. وكان يزودنا بالمصادر، ويعيدنا إلى الأصول، وكان يطلب من تلاميذه أن يجتمعوا يوم الجمعة...لإعطائهم الدروس الإضافية، من أجل المساعدة في تقوية اللغة عندهم، وتنمية ملكاتهم. وكان صوته جهورياً قوياً، وكان يمكن للإنسان –أيّاً كان مستواه التحصيلي– متابعة كلامه وجمله؛ لأن مخارج الحروف كانت تخرج سليمة صحيحة. وكان يسخر حواسه للإقناع، سواء أكانت بالإشارة أم الكلمة أم الصوت أو جميعها... لم

١– **ابن خلدون**، ولي الدين عبدالرحمن (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م): **المقدمة**. قرأه وعارضه بأصول المؤلف وأعد معاجمه وفهارسه: إبراهيم شبوح. ط١، دار القيروان، تونس، ٢٠٠٧م: ج٢، ص٤٨٩.

أكن مقدراً لعظمة هذا الرجل إلا بعد أن تخرجت وتركت المدرسة، ثم انخرطت في سلك التدريس، عندئذ أدركت قيمة هذا المعلم وحجم علمه ومدى ما أخذته منه"[1].

وشهادة المعلم الحياري، تكشف لنا أن البرقاوي لم يقتصر على ما علمه لطلابه في المدرسة، وعلى ما درّسه لهم من كتب التراث في الجامع يوم الجمعة، أو في مجالسه العلمية التي كان يعقدها في أماكن متعددة، بل اتسع بيته الصغير للراغبين منهم في تعلم ألفية ابن مالك في النحو، يقول هاشم القضاة مسترجعاً لذكرياته، ومسجلاً انطباعاته عن معلميه أيام المدرسة: "...ويحلو لي من بين كل الوجوه التي كانت تطفح بالصبر، والصدق والبشر، وجه أستاذي الشيخ "حسن البرقاوي"، رحمه الله، وأذكر معه بيته في حي الجدعة الوسطى، يضيق عن زوجه وأبنائه، ليتسع لكل طلابه، حيناً ليحفظهم ألفية ابن مالك. وحيناً آخر ليحدثهم عن التضحية في التاريخ العربي الإسلامي، ابتداءً من استشهاد حمزة في أحد، وانتهاء باستشهاد القسام في أحراش يعبد"[2].

وبناءً على ما تقدم من شهادات طلابه، فإن البرقاوي كان ذا رؤية ثاقبة، وبصيرة نافذة، تقدر قيمة هذه الأصول الأدبية واللغوية التراثية، وما تتركه من آثار على تفكير طلابه ولغتهم، وأقلامهم وألسنتهم،

١- انظر: **العمد، "شهادات معاصري البرقاوي"**، ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)** : ص٤٣.

٢- **القضاة**، هاشم: "**سقياً لأيام البرقاوي**". ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)**، ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م: ص٦٩.

ومحصولهم الفكري، وزادهم العلمي، وعلى ملكاتهم اللغوية والأدبية، ولا غرو في ذلك، فقد رأى آثار هذه المصادر في لغة شيوخ الأزهر، وشيوخ دمشق الذين عكفوا على دراسة هذه الأسفار، ودرسوها لطلابهم، وجعلوها ضمن مقرراتهم الدراسية، وعرف قيمة ما نهله من علمها وذخيرتها اللغوية في نفسه، وأيقن أن عودة الأمة إلى هذه الأصول، هي التي أرست دعائم النهضة اللغوية في عصرنا، ولذا فإنه أراد أن يغرس نبت تراث الأجداد الزكي في أذهان طلابه ليحيا تراث السلف في نفوس الخلف، مرغباً إياهم في قراءاته، ومعلماً إياهم كيفية الإفادة من أساليبه الراقية، وعباراته البليغة، وشارحاً لهم مدى انعكاسها على ألسنتهم وأقلامهم، وتعابيرهم وتفكيرهم، وآرائهم وخواطرهم؛ ليكونوا جيلاً فتياً يجدد تراث أجداده، ويحمي هذه الكنوز الأدبية والمعرفية، وينقل هذا التراث العظيم للأجيال القادمة، ويعمل على إحيائه وتجديده والإفادة منه في نهضته، وإعادة رونق لغته الخالدة بكتابها وتراثها، وأبنائها الذين يحملون رايات الإصرار في الدفاع عنها، وجعلها لغة حياة، ولغة علم في زمانهم، كما صنع أجدادهم من قبل.

وعبدالكريم خليفة من طلاب البرقاوي، الذين عرفوا شغف البرقاوي بتراث أمته، ووقف على هذا الجانب الإيجابي المشرق عند أستاذه، الذي رأى فيه محباً لتراث أمته، ومخلصاً له، ومجاهداً صادقاً في

سبيله، يقول: "فإننا نحيي فيه جهاد المعلم، ونطري من فضائله الجمة وإخلاصه العميق، ومحبته العارمة لتراث أمته، وقيمها السامية"[١].

وأعجب خليفة باعتزاز البرقاوي بتراث أمته، وامتزاجه بروحه ونفسه، إذ رأى هذا التراث تعبيراً عن روح الأمة وأصالتها، ومثلها الرفيعة، وقيمها العربية الإسلامية السامية، يقول: "كان أبو محمد، رحمه الله، دائم الاعتزاز بتراث هذه الأمة، وبقيمها الإسلامية السامية، تمتزج في نفسه الكبيرة مُثُلها العربية الأصيلة، في الكرم والشجاعة، والصبر على الشدائد، والاعتزاز بالأهل والعشيرة، ومُثُلها الإسلامية الرفيعة في المحبة والتسامح، والتعلق بالعلم وطلب المعرفة"[٢].

ويبدو أن ما قبسه خليفة من نور محبة أستاذه البرقاوي وعشقه للتراث العربي الإسلامي، قد ترك آثاراً جلية في كل آثار خليفة، وأعماله فيما بعد، سواء أكانت في اللجنة الأردنية للتعريب والترجمة، أو في مجمع اللغة العربية الأردني، أو في مؤتمرات التعريب والمجامع العربية، وغيرها من المهرجانات والمواسم الثقافية، وأكتفي بضرب مثلٍ واحدٍ على ذلك، وهو مما قاله في خطابه الذي ألقاه في مهرجان مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٧٧م، بمناسبة مرور مائة عام على ولادة محمد كرد علي، مؤسس المجمع العلمي العربي: "فأما الفكرة العامة التي تلح على ذهني، كلما مررت بمؤلفاته، فتتمثل بتجسيد الأستاذ

١- **خليفة**، عبدالكريم: **خطاب عبدالكريم خليفة في تأبين البرقاوي**. نسخة محفوظة لدى سمير الدروبي: ص١.

٢- **المرجع السابق:** ص٢.

الـرئيس، –رحمـه الله–، مفهـوم العروبـة الحقـة، إنـه المفهـوم الإنسـاني الأصـيل للعروبـة المشـرقة بجـذورها الإسـلامية العميقـة، التـي تمـدها بالحيـاة والخيـر والخصـوبة. فـالعرب مـادة الإسـلام، وحملـة لوائـه، والعربيـة لغـة القـرآن الكـريم، دسـتور الأمـة الـذي ينيـر لهـا الطريـق، وبالتـالي فمـن كـره العـرب كـره الإسـلام. هـذه هـي الركـائز الأصـيلة التـي ألمسـها فـي شخصـية علـم مـن أعلامنـا المكـافحين فـي سـبيل توطيـد دعـائم العروبـة والإسـلام. فقـد رأى الأسـتاذ الـرئيس –رحمـه الله– أن يهـدي كتابـه القـيم "كنـوز الأجـداد" مـثلاً، إلـى أسـتاذه الـذي أشـرب قَلبـه حـبَّ العـرب علـى حـد قولـه. يقـول فـي الإهـداء: إلـى روح مـن أشـرب قلبـي حـب العـرب، وهـداني إلـى البحـث فـي كتـبهم، صـدر الحكمـاء، سـيدي وأسـتاذي، العلامـة الشـيخ طـاهر الجزائـري، أهـدي كتـابي "كنـوز الأجـداد". فقـد هـداه تفكيـره الإسـلامي العميـق، ونزعتـه السـلفية الأصـيلة، إلـى التعـالي عـن النزعـات الإقليميـة والطائفيـة والعرقيـة، فانتقـدها انتقـاداً مـرّاً، وهاجمهـا دون هوادة"[١].

ويبـدو ممـا قالـه خليفـة عـن النزعـة العربيـة الإسـلامية التـي تجلـت فيمـا كتبـه كـرد علـي مـن كتابـات، وفيمـا نشـره مـن مخطوطـات، أنهـا هـي ذات النزعـة التـي ذكرهـا عـن أسـتاذه البرقـاوي مـن قبـل، ولا غـرو فـي ذلـك، فالبرقـاوي عـرف كـرد علـي فـي دمشـق التـي تتلمـذ علـى يديـه فيهـا كثيـر مـن كتـاب العربيـة وطلابهـا، الـذين تـابعوا مقالاتـه فـي مجلتـه "المقتـبس"، أو

١– **خليفة**، عبدالكريم: "**خطاب الدكتور عبدالكريم خليفة**" ضمن كتاب: **محمد كرد علي مؤسس المجمع العلمي العربي**. ط١، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م: ص٢٧.

حضروا محاضراته، ومجالسه العلمية في المجمع، أو في بيته، وكان البرقاوي واحداً منهم، فأفاد منه هذا النزوع للتراث العربي الإسلامي، والعمل على بعثه في الدروس والنفوس، والمطالعة والتأليف، مع عدم الوقوف عند القديم، بل لا بُدّ من معرفة العلوم الحديثة وإتقانها، وهو الجوهر الذي تقوم عليه دعوة الشيخ محمد عبده، ورسالته الإصلاحية التي حملها محمد كرد علي إلى الشام، وقطف البرقاوي من ثمارها اليانعة أثناء طلبه للعلم في الأزهر. وكذلك دعوة الشيخ طاهر الجزائري، الذي يُعدُّ من أعمدة النهضة التعليمية في بلاد الشام، ومن دعاة تحويل العلوم الحديثة إلى لغة العروبة، ونشر التراث العربي والإسلامي والمحافظة عليه، وقد عرفه البرقاوي وتتلمذ عليه بضعة أشهر، عندما كان مديراً للمكتبة الظاهرية، إبان فترة الحكومة العربية.

رابعاً- نشر البرقاوي للمقالات والخواطر الأدبية، وكتابة الأبحاث في الصحف والمجلات الأردنية والعربية، وإلقاؤه المحاضرات، وعقده المجالس العلمية:

أمضى البرقاوي نصف قرن من الزمان معلماً للعربية، وعاملاً على نقلها إلى طلابه بكل وسيلة ممكنة، فانتشرت على يديه بين الأجيال، وأعجب طلابه بقدراته على تحليل النصوص وتذوقها، وامتلاك ناصية اللغة العربية والبراعة فيها، وتناقلوا ما كان يكتبه في مجلات عصره كالرسالة التي كانت مضماراً أدبياً، يتبارى فيه كبار كتاب ذلك العصر أمثال: طه حسين والرافعي والعقاد والزيات، وغيرهم.

وقرأ طلابه مقالاته الأدبية، ومساجلاته ومعاركه القلمية، التي نشرها في صحيفة الجزيرة التي حررها تيسير ظبيان، الذي تحدث عن البرقاوي قائلاً: "وفي عمان كان -رحمه الله- يزورني في مكتب جريدة "الجزيرة"، ويتحفني بمقالاته وبحوثه، التي كانت تنم عن اطلاع واسع، وثقافة عالية، ودراسات عميقة، فضلاً عما تتسم به هذه المقالات والبحوث من ديباجة مشرقة، وأسلوب بليغ، لا يدانيه فيه أحد من كتاب ذلك العصر... كان يتدفق في حديثه كالسيل المنهمر، وكنت أشعر وأنا أستمع إلى أقواله وأحاديثه بأنني حيال أديب عبقري، وعالم فذ يفيض قلبه الكبير بالإخلاص والإيمان، والمشاعر النبيلة"[١].

إن ما وصف به البرقاوي آنفاً يُعدُّ شهادة كبيرة، من أديب صحفي كبير هو الأستاذ تيسير ظبيان صاحب صحيفة "الجزيرة" التي صدرت في عمان سنة ١٩٣٩م وحتى سنة ١٩٥٤م، وكانت ملتقى لأقلام الأدباء العرب من الأردن وفلسطين، ومصر وسوريا وغيرها وقد كتب فيها الأمير عبدالله بن الحسين، ومصطفى عبدالرازق، وطنطاوي جوهري، والعقاد، ومحمد فريد وجدي، ومحمد الغزالي، وروكس بن زائد العزيزي، وأحمد زكي باشا شيخ العروبة، وغيرهم العشرات من الكتاب العرب والمستشرقين[٢].

١- **ظبيان**، تيسير: "**فقيدنا البرقاوي**" ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)**: ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م: ص٥٠.

٢- انظر: **شهاب**، أسامة يوسف: **صحيفة الجزيرة الأردنية (دورها في الحركة الأدبية)**. ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٨٨م: ص٢٠٧-٢١٢-٢٩٢.

إن البرقاوي قد نشر كثيراً من مقالاته في مجلة "هدي الإسلام" الأردنية، وجريدة "ألف باء" السورية، ومجلة "التمدن الإسلامي" وغيرها من المجلات والصحف العربية، وقد رصد لنا صديقه يعقوب العودات أهم المجلات التي نشر فيها البرقاوي مقالاته، كما أشار إلى غزارة إنتاجه الأدبي والعلمي، يقول: "وخلال عمله في قطاع التعليم بدمشق، نشر أول مقال في جريدة "العمران" لمؤسسيها المرحومين: إلياس قوزما، وقبلان الرياشي. وسخا بقلمه على جريدة "ألف باء" لصاحبها المرحوم يوسف العيسى، ومجلة "التمدن الإسلامي" للدكتور مظهر العظمة. كما نشر في عمان فصولاً قيمة في صحف "الأردن"، و"الجزيرة"، و"رسالة المعلم". ولو جمعت مقالاته وفصوله في الأدب، والاجتماع، والفلسفة، وعلم النفس، لجاءت في أجزاء ضخمة"[1]. قلت: لم أجد في مجلة "رسالة المعلم" الأردنية، ما يدل على أن البرقاوي نشر فيها، ولعله وهم من العودات.

لم ينهض أحد من الباحثين بجمع تراث البرقاوي حتى الآن، فيما أعلم، ونأمل أن نقوم به قريباً، ولكن الظروف التي تمر بها سورية الآن، تجعل من هذا العمل مستحيلاً في الوقت الحاضر، أما ما نشر في الأردن، فإن النسخ الورقية من صحيفة "الجزيرة" قد أتلفت، بحجة وجودها إلكترونياً، ولكن النسخة الإلكترونية غير واضحة تماماً، وأكثرها مجلل بالسواد، وهذا من الكوارث التي ما زالت تترى على المخطوطات، والوثائق والصحف والمجلات في البلاد العربية، التي تكالب على

١- **العودات، من أعلام الفكر والأدب في فلسطين:** ص٦٢.

سرقتها أو تدميرها الأعداء[١]، أو ضيعها ولم يحسن الحرص عليها من تولى أمرها من الجهلاء.

وكان البرقاوي حريصاً على فصاحة لغته وسلامتها، وقوتها وجزالتها، ودقة معانيها وشموخ مبانيها، إذ كان الرجل محباً لأسلوب الرافعي في الكتابة، وفي توليد الصور والمعاني، حتى في كتابة التقارير المدرسية التي دبجها قلمه، يقول حسني فريز في وصفه لمدى متابعة البرقاوي للرافعي، وترسم خطاه في أسلوبه: "وكان مصطفى صادق الرافعي، من أحب الكتاب إليه، فقد تأثر به في ما يكتب، ولو كانت الكتابة تقريراً عن المواد التدريسية، وأسلوب الرافعي فيه قوة وصلابة من حيث هو وصف للألفاظ، وفيه توليد للمعاني من الألفاظ ذاتها مرة، ومرة يولد صوراً تترك في النفس روعة"[٢].

ولم يقتصر البرقاوي على حماسه المنقطع النظير للعربية، لتدريسها وإرشاد معلميها وتوجيههم تربوياً وتعليمياً، بل جعل من اللغة العربية واحدة من أهم قضايا الأمة ومرتكزاتها، فكان متحمساً للعربية في المدرسة والشارع، ودوائر الدولة، ومجالسه الخاصة والعامة، وفي الصحافة والإعلام، وقد استطاع البرقاوي بعلمه وكتاباته، وسلوكه

١- انظر: **الدروبي**، سمير: "**عبدالكريم خليفة محققاً**"، بحث منشور في الموسم الثقافي الثامن والثلاثين لمجمع اللغة العربية الأردني، ٢٠٢٠م: منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، ط١، ١٤٤٢هـ/٢٠٢١م: ص٤٢-٤٤؛ "**الأستاذ الكبير عبدالكريم خليفة وتحقيق التراث العربي**"، مجلة **أفكار**، وزارة الثقافة، الأردن، ٢٠١١م: عدد (٢٧٣)، ص١٤٨-١٥٢.

٢- **فريز**، حسني: "**مع ذكرى الأستاذ حسن البرقاوي**"، ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)**. ط١: وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م: ص١٤.

وشخصيته الفذة، أن ينقل حماسه للعربية التي جعلها عنواناً للوطنية، ورمزاً للتمسك بالقومية، ودليلاً على إعزاز الإسلام وقرآنه الذي نزل بلسان عربي مبين، إلى نفوس طلابه وزملائه، وأن يجعل منها قضية مقدسة يتبناها كلّ واحدٍ منهم، ويذود عن حماها أينما كان وفي أي مجال أو موقع، وفيما يباشره من وظائف رسمية وأعمال.

يقول ضيف الله الحمود –أحد طلاب البرقاوي– واصفاً أحد الاجتماعات التي عقدت في بيت محمد البرقاوي بعد وفاة والده: "...التقى في منزل ولده الأستاذ محمد، عدد من طلاب –البرقاوي– منهم: الوزير السابق، ومنهم وكيل الوزارة، ومنهم المستشار القانوني، والضابط المتقاعد، والأديب، والشاعر، والصحفي، أعتقد أن لا مثيل لذلك اللقاء، عطرته أحاديثهم عن أستاذنا العلامة، الذي كان على الدوام متحمساً لقضايا أمته، وفي المقدمة **قضية اللغة العربية**، والاهتمام بها، والحفاظ عليها... وظل على الدوام يذكرنا برسالة التعليم الخالدة... ونحن طلابه، سنبقى نذكره بالثناء والتقدير والإعجاب"[1].

ومما هو جدير بالالتفات إليه، أن البرقاوي كان مدركاً لأهمية لغة الصحافة، ودورها في نهضة لغة الأدب، وهو يعرف بعمق جهود الشدياق، واليازجيين إبراهيم وناصيف، والشيخ يوسف الأسير، والشيخ محمد عبده، ومحمد كرد علي وغيرهم في إصلاح لغة الصحافة وصقلها، وتطويعها للألفاظ والتعابير والموضوعات الجديدة، ولكن

١– **الحمود**، ضيف الله: "**حسن البرقاوي**"، ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)** : ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م، ص٨٧.

البرقاوي كان يخشى خطر لغة الصحافة، وبخاصة عندما اشتدت وتيرة الدعوة إلى الكتابة بالعامية في مصر ولبنان، والمغرب العربي بتأثير من المستعمرين الجدد، ولذا كان حضور البرقاوي في الصحف السورية والأردنية قوياً ومكثفاً، وقد خط يراعه مقالاته وخواطره، وأبحاثه وسوانحه بلغة قوية متينة، خوفاً على لغة الصحافة من الانحطاط في أساليبها، وتشجيعاً لكتابها المستمسكين بفصاحة لغتها، وربما كان البرقاوي قد عبر عن مخاوفه على لغة الصحافة لزملائه وطلابه، يقول عبدالحميد ياسين أحد زملاء البرقاوي: "ويزيد من إكباري للأستاذ البرقاوي، أن جهاده في ميدان اللغة الشريفة، لغة الكتاب، ولغة القومية، التي لا تفتأ تعاني ألوان الإساءة، من الجهل والعداء اللذين يأتمران بها، ويكيدان لها، بأقلام كتاب ومترجمين، لا يبالون زلت أقلامهم أم استقامت..."[١]. ولا ننسى أن الشيخ إبراهيم اليازجي، أحد أقطاب نهضة اللغة العربية في العصر الحديث، قد التفت إلى ضرورة العناية بلغة الصحافة، لما لها من تأثير واسع على القراء، ونشر عدة مقالات صحح فيها ما وقع في لغة الصحافة من عوار في الألفاظ والتراكيب[٢].

١- **ياسين**، عبدالحميد: "**معلمونا ثلاثة...**"، ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)**. ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م: ص٣٥.

٢- انظر: **اليازجي**، إبراهيم: **لغة الجرائد**. ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ٢٠١٧م: ص٥-٨٣.

خامساً- التقدير لدور القرآن الكريم في تعليم العربية، والحفاظ على هوية الأمة ووحدتها لغوياً وفكرياً وروحياً:

لقد أدرك البرقاوي الدور العظيم للقرآن الكريم في حفظ اللغة العربية، وتوحيد الناطقين بها، ومنع موتها أو اندثارها، أو تحولها إلى لهجات محلية، أو عاميات قطرية، وعرف الدور العظيم للقرآن الكريم في إثراء العربية، وتوحيد لهجاتها، وفي الارتقاء بأساليبها شعراً ونثراً، وما كان للكتابة العربية أن تصل إلى ما وصلت إليه من رُقي في الأساليب، وجمال في العبارة والتعبير، لولا قرآنها، وهو المعين الذي لا ينضب، يجد فيه أهل كل عصر من مواطن الإبداع والإعجاز ما يحير عقولهم، ولذا فإن كتاب الإنشاء في الدواوين في الدول الإسلامية، حرصوا على حفظه، وملازمة قراءته، شحذاً لقرائحهم، وتفتيقاً لأذهانهم، وصقلاً لأساليبهم، فهو يضفي على كلامهم رونقاً، وفخامة، وجلالاً وجزالة، وتزيد ألفاظه الكلام قوة وسطوعاً، فاستشهدوا بآياته واقتبسوا من أنوارها، وعكفوا على معرفة غريبه وفهم معانيه؛ لأنه هو القول الفصل الذي يقيم الحجج الدامغة، ويقطع الخصوم.

ولما كان البرقاوي قارئاً للتراث ومصادره الأساسية، وبخاصة ما تعلق بالكتابة والبلاغة والأدب، فإنه وقف على رسالة عبدالحميد الكاتب -أعظم كتاب دواوين الدولة الأموية، ومؤسس أول مدرسة من مدارس النثر العربي- إلى كتاب عصره، بخصوص ما يحتاجون إليه من أدوات الكتابة ومؤهلاتها، إذ خاطبهم قائلاً: "... فنافسوا، معشر

الكتاب في صنوف العلم والأدب، وتفقهوا في الدين، **وابدأوا بعلم كتاب الله**، عزّ وجل، والفرائض، ثم العربية، فإنها ثقاف ألسنتكم..."(١).

وعلاوة على ذلك، فإن حفظ كتاب الله، أصبح شرطاً أساسياً لمن يريد أن يتخذ الكتابة صناعة أو ينبغ فيها، حتى قال الشهاب محمود الحلبي، الذي عمل في دواوين الإنشاء الإسلامية في العصر المملوكي نصف قرن، في حديثه عن مؤهلات الكاتب: "فأول ما يبدأ به من ذلك حفظ كتاب الله تعالى، وإدامة قراءته، وملازمة درسه، وتدبر معانيه، حتى لا يزال مصوراً في فكره، دائراً على لسانه، ممثلاً في قلبه، ذاكراً له..."(٢). ولا بد لنا من أن نتذكر أن عصر الشهاب الحلبي، وابن فضل الله العمري، وصلاح الدين الصفدي، والقلقشندي وغيرهم من الكتاب كان عصر صمود للعربية في وجه العجمة، التي كادت أن تقتلع العربية بعد هجوم التتار الوحشي وتدميرهم لمراكز الحضارة العربية الإسلامية.

١- **الجهشياري**، محمد بن عبدوس (ت٣٣١هـ/٩٤٢م): **الوزراء والكتاب**. تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبدالحفيظ شلبي. ط١، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٨م: ص٧٥.

٢- **الحلبي**، شهاب الدين محمود (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م): **حسن التوسل إلى صناعة الترسل**. تحقيق ودراسة: أكرم عثمان يوسف. ط١، وزارة الثقافة، بغداد، ١٩٧٦م: ص٧٢؛ وانظر: **القلقشندي**، أبو العباس أحمد بن علي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م): **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**. مصورة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة عن الطبعة الأميرية، بلا تاريخ: ج١، ص١٩٤-٢٠٠؛ **العمري**، أحمد بن يحيى بن فضل الله (ت٧٤٩هـ/١٣٤٩م): **عرف التعريف في المكاتبات**. دراسة وتحقيق: سمير الدروبي، ط١، دار ابن الجوزي، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م: (مقدمة المحقق).

وبناءً على ما تقدم، فإن البرقاوي كان يُعلّم قواعد العربية وبلاغتها، ومفرداتها وأساليبها، من خلال الآيات القرآنية، يقول فاروق بدران: "كان يقرئنا الآيات القرآنية، فنعرب ما يطلب منا أن نعربه، إلا أنه في هذه المرة كان يعلمنا (التجويد)، فتعلمنا منه تجويد القرآن"[١].

وعرف البرقاوي دور القرآن في نهضة اللغة العربية، وما له من منزلة عظمى لدى أعلام النهضة الأدبية واللغوية في القرنين التاسع عشر والعشرين، ومنهم نخلة زريق (١٨٦١-١٩٢٠م) الذي جعل من بيته في القدس منتدى أدبياً، وأدى دوراً مهماً في إحياء اللغة العربية في نهاية العصر العثماني، ويصفه يعقوب العودات بأنه: "عاش عمره متغنياً بالقرآن الكريم، مدلاً بسحره وبلاغته... وكان من المعتزين باللغة العربية، المعجبين بأسرار الفصاحة والبلاغة في القرآن الكريم، وكثيراً ما صارح طلابه وزائريه بقوله: لقد ترك الله فينا نحن العرب، معجزة لا تدانيها معجزة، وهي القرآن الكريم، لكنكم لم تصلوا بعد إلى مستوى تقدير هذه الثروة العظيمة التي نفحنا الله بها"[٢]. نعم، لقد صدق زريق في قوله، فعجائب القرآن، وضروب إعجازه ليس لها حد، وما زال العلماء من غير المسلمين يكشفون عن إعجازه العلمي أو العددي أو القانوني، أو البلاغي... إلخ في كل يوم، ويؤكدون أنه ليس من كلام البشر، إنه المعجزة الإلهية، وحجة الله على خلقه من البشر.

١- **بدران**، فاروق: "**هدية إلى روح حسن البرقاوي في الذكرى العشرين لوفاته**". ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)**. ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م: ص٨٤.

٢- **العودات، من أعلام الفكر والأدب في فلسطين**: ص٢٣٤-٢٣٥.

ولم يكتف البرقاوي بتعليم فصاحة القرآن وبلاغته، وقواعد العربية من خلال آياته، بل كان يُدرسُ التربية الإسلامية، التي لم يكن لها كتاب مقرر آنذاك، ويملي على طلابه دروساً في العبادات والمعاملات، والعقيدة والفقه والأخلاق(١)، معتمداً سور القرآن وآياته أساساً في تقويم الألسنة، وغرس العقائد الصحيحة، وتنمية الأخلاق الفاضلة في نفوس الناشئة.

ولما كان البرقاوي معلم الدين والقرآن في مدرسة السلط الثانوية، ومفتشها فيما بعد في بقية مدارس المملكة، فإنه يبدو لنا أن البرقاوي قد حدد الأهداف الأساسية من تعليم القرآن الكريم، ودروس الديانة، إذ اشتمل سجل فهرس المناهج (١٩٤٩) المحفوظ في مدرسة السلط على هذه الأهداف، والغايات والوسائل المؤدية إلى ذلك، ومما جاء فيه: "كان الغرض الرئيسي من تعليم القرآن الكريم، وتحفيظ قسم منه، هو تمكين الطالب من أداء واجباته الدينية لا سيما الصلاة، ثم **الاستفادة من معانيه وفصاحته**، لذلك كان يتم توجيه المعلم المسؤول للاعتناء بجودة الحفظ، وإتقان القراءة، مع تجويد الألفاظ، وإعطاء الحروف حقها بإخراجها من مخارجها، وخاصة الحروف (ت، ذ، ظ، ض، ز، س، ق)، وأن يؤكد على أن يعتقد التلميذ أن المسلمين خاصة، والعرب عامة، أسرة واحدة، وأهل وطن واحد، فمن واجبه أن يعمل مع إخوانه

١- انظر: **بدران**، فاروق، "**هدية إلى روح حسن البرقاوي في الذكرى العشرين لوفاته**". ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)**: ص٨٥.

وأبناء وطنه، متعاونين متساندين على المصالح العامة والمشاريع العمرانية"[١].

ولما كان البرقاوي هو معلم الدين في المرحلة الثانوية، وقد علمها لكل المراحل أيضاً، فإنه حدد الأهداف المتوخاة من دروس الدين، وبين الوسائل المعتمدة في تحقيقها: "على معلم الديانة الاستناد إلى القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة في تدريس العقائد والأخلاق، واتباع الطريقة التي توصل المتعلمين إلى لباب الدين، لا إلى ظواهره، وتعودهم على التمسك به، لا التعصب له، وأن يبيّن للتلاميذ أن الدين لا يستند إلى البدع والخرافات والأعمال الجاهلية"[٢].

وذكر لي محمد العطيات أحد طلاب البرقاوي، الذين درسوا القرآن ومادة الدين على يديه، أن تعليم البرقاوي للقرآن والدين، قد أفادنا جداً في اللغة العربية نحواً ولغة، وقراءة وبلاغة من ناحية، كما أنه قدم لنا مادة الدين بطريقة عقلية مشوقة، لم يقتصر فيها على تعليمنا العبادات، بل أفادنا في المعاملات، والسلوك، والأخلاق، وعلمنا الدين الذي يستند إلى العقل، ويقوم على الدليل والبرهان، المستمد من سور القرآن وآياته، فتعلمنا على يديه الدين الحقيقي الحضاري، الذي يعكس الروح الحقيقية للإسلام وحضارته، ودوره في خدمة الإنسانية، وهداية البشرية

١- **محاسنة؛ الطراونة، الكركي: مدرسة السلط:** ج١، ص٣٠٢ نقلاً عن سجل فهرس المناهج (١٩٤٩)، ص١٣.

٢- **المرجع السابق:** ص٣٠٢.

وإسعادها، وإنقاذها مما هي فيه من حيرة وتخبط، وضلال وضياع[١]، وبخاصة بعد أن تغولت المادية، وشاعت الأفكار العلمانية الهادفة إلى إبعاد البشر عن كل خلق ودين، وتجريدهم من معتقداتهم وأديانهم بالقوة.

قلت: إن منهج البرقاوي في تعليم القرآن، قد أفاده بدمشق من شيخه عبدالفتاح الإمام الداعية لنهضة الفكر الإسلامي وإعمال العقل، وأخذ الأمة بأسباب التقدم العلمي[٢].

سادساً- الإيمان بقضية التعريب، والتحذير من خطورة انتشار اللهجات العامية، والألفاظ والحروف الأعجمية:

عاش البرقاوي ثلاثة عقود من عمره تقريباً في نهاية حكم الأتراك الذي فرضت في العقد الأخير منه سياسة التتريك على بلاد الشام والحجاز والعراق، ثم زالت مع نهاية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨م، ثم فُرض الانتداب البريطاني على فلسطين والأردن والعراق، والفرنسي على سوريا ولبنان، ودخلت اللغات الإنجليزية والفرنسية والعبرية إلى بلاد العرب، وجعلت لغات رسمية إلى جانب العربية، وتسربت ألفاظها وحروفها وعباراتها إلى المجتمعات العربية في التعليم ودوائر الحكومة والتجارة.

١- **العطيات**، محمد: مقابلة شخصية مع **محمد العطيات**، في منزله في السلط، وبحضور الدكتور عبدالكريم الحياري، تاريخ ٢٠٢١/٦/٢٥م.

٢- انظر: **الصباغ**، محمد لطفي: "**الشيخ عبدالفتاح الإمام**"، الألوكة http://www.alulcah.net.

وزادت الأمور انحطاطاً، والأحوال ارتكاساً، عندما سرت الألفاظ الإنجليزية والفرنسية إلى لغة المؤتمرات والندوات العلمية، بل قد يكتب في بعضها أن لغتها هي الإنجليزية أو الفرنسية، وأصبحت العربية اللغة القومية غريبة في ديارها وبين أهلها.

وبناءً على ما تقدم، فإن البرقاوي –وهو المحارب العنيد والمدافع دفاع الموت عن لغته– قد أبدى معارضة شديدة لمظاهر هذا الفساد والإفساد اللغوي، الذي يمكن أن يقوّض بنيان هذه اللغة، ويهد أركانها، بعد أن زحفت إليها العجمة في عقر دارها، وغلبت عليها الرطانة بالأعجمية في أوطانها.

وعرف البرقاوي بشدة مقته، وكرهه وغضبه من ظاهرة استعمال الألفاظ الأعجمية، وخوفه الشديد على العربية من هذه الأخطار، وبخاصة عندما رأى كثيراً من أبناء العربية يلوكون الألفاظ الأعجمية، ويتراطنون بها، من غير حاجة لذلك، تدليلاً على تمدنهم ورقيهم[1]، وعادين استعمال العربية من أمارات التخلف والرجعية، والبعد عن الحضارة والتقدم والتمدن.

وفوق ذلك، فإنه كان منكراً لاستعمال: اللهجات المحلية المستوردة من بعض المجتمعات العربية، التي انتقلت عدواها إلى المجتمع الأردني، وبخاصة لغة "الآل والايل"[2] التي استخدمها بعض سكان

١- انظر: **شريم**، رياض: "**في ذكرى رحيل البرقاوي**"، ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)**. ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان ١٩٩٠: ص٨٠.

٢- انظر: **المرجع السابق**: ص٨٠.

المدن، وأصبحت عنواناً للتمدن، بعد أن هجروا: قال وقلت وقالوا، وعدلوا عنها إلى الألفاظ المكسرة، التي شاعت بين النساء والأطفال وصغار العقول من الفتيان والرجال(١).

وزاد الأمر سوءاً، عندما سَمى كثير من أصحاب الصيدليات والشركات والمحلات التجارية بأسماء أجنبية، وكتبت يافطات محلاتهم بالأحرف الأجنبية أو بالحرفين العربي والأجنبي، والبرقاوي يعد صنيعهم تغريباً وتخريباً، ومثلبة ونقصاً، وعاراً وشناراً، في أن تكون يافطات المحال التجارية، والمؤسسات الخاصة والرسمية في العواصم والمدن العربية بلغات المستعمرين وأحرفهم.

وقد وصف لنا رياض شريم، وهو أحد طلاب البرقاوي، ما كان من أستاذه، قبل عام من وفاته أي سنة ١٩٦٨م، فيقول: "بهذه المناسبة، فإنه يحضرني آخر مشهد رأيته فيه، وقد كان قبل وفاته بنحو عام أو أكثر قليلاً، حيث كان يقف شامخاً بهامته الضخمة، رافعاً رأسه إلى الأعلى، يحملق في يافطة كتبت بالإنجليزية، تقبع فوق أحد المحال التجارية، في أحد شوارع العاصمة عمان، وما أن اقتربت منه حتى شاهدت إصبعي يده اليمنى منفرجين حتى النهاية، ويدوران بسرعة، وعلى شكل نصف دائري، بينما كاد يصل إلى أحد طرفي كوفيته

١- انظر: **الدروبي**، سمير: "**اللغة العربية في الدواوين والمخاطبات والمراسلات في المؤسسات العامة والخاصة في الأردن: واقعها وسبل النهوض بها**"، ضمن كتاب: الموسم الثقافي السابع والعشرون لمجمع اللغة العربية الأردني، مجمع اللغة العربية الأردني، عمان، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م: ص٧٦٩.

الأرض، فبادرتـه السـلام، ورفعـت كوفيتـه، فـرد السـلام بطريقتـه الأبويـة السـمحة، وتمـتم بكلمـات لـم أفهمهـا، فسـألته مـا الخبـر؟ فأجـاب –رحمـه الله– أيعجبك يـا أخـي أننـا **صـرفنا العمـر بالـدعوة إلـى التعريـب، وهـا هـم أعـداء العربيـة يـدعون إلـى التخريـب؟!** انظـر هـذه اليافطـة، بـل اليافطـات التـي تكتـب بالإنجليزيـة لأسـماء عربيـة، فـي قلـب عاصـمة عربيـة إسـلامية!! ومضـى يصـك أسـنانه، ويبـدي حسـرته، وكـأني بلسـان حالـه يقـول: إنـه يجـب إقامـة الحـد علـى صـاحب هـذه اليافطـة وأمثالـه، تمامـاً كما يقام الحدّ على شارب الخمر أو السارق"[1].

وبنـاءً علـى مـا تقـدم مـن مشـاهدات طلابـه وزملائـه وشـهاداتهم، بحـق هـذا المعلـم العبقـري، والأديـب اللغـوي، والأسـد الهصـور الغيـور علـى حمـى العربيـة، فإننـا نسـتدل علـى مـدى شـغف هـذا الرجـل باللسـان العربـي، الـذي وقـف عمـره وعلمـه، وقدراتـه اللغويـة والعقليـة فـي سـبيل خدمتـه وتعليمـه، والـذود عـن حمـاه ورفـع راياتـه حتـى الأيـام الأخيـرة مـن حياتـه، وبقـي علـى عهـده مـع لغـة أمتـه حتـى فـي مرضـه العضـال، الـذي ودع فيـه هـذه الـدنيا وفـارق الحيـاة، إذ أرسـل "مـع بعـض مـن أهلـه وأصـدقائه، مـن يخبـر مـديرة المدرسـة الخاصـة التـي كـان يعلـم فيهـا، أنـه سيواصـل التعلـيم بعـد خروجـه مـن المستشـفى، وأنـه يريـدها أن تحـتفظ لـه بـالمواد التـي كـان يدرسـها قبـل مرضـه ودخولـه المستشـفى"[2]. لقـد كـان تعلـيم اللغـة العربيـة، ونقلهـا

١- **شريم**، رياض، "**في ذكرى رحيل البرقاوي**"، ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)** : ص٨١.

٢- **إبراهيم**، محمود: **"الأستاذ حسن البرقاوي ذكريات وأحاديث"**: ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)**. ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م: ص٨.

للأجيال الجديدة عند البرقاوي عقيدة يؤمن بها، لا مجرد مهنة يرتزق منها.

وإذا علمنا أن موقف البرقاوي السابق، كان وهو شيخ على عتبات الثمانينيات من عمره المديد بالعلم؛ أدركنا أن دوافع الرجل لتعليم العربية، ونشرها في البلاد، لم تكن طلباً للمادة أو تكالباً عليها، بل كانت شغفاً بالتعليم، وإفادة طلاب العلم، وعيش الأجواء المدرسية التي يكون فيها بين أبنائه الطلاب والطالبات، لغرس شجرة العربية المباركة في نفوسهم، وطبعها في عقولهم، لما له من قدرة عجيبة على التأثير والإقناع، والإفادة والتفهيم.

ومن تمام نعمة الله على هذا الرجل، التي تدل على إخلاصه في دعوته أبناء أمته إلى تقديس لغتهم، ورفعها إلى المكان اللائق بها بين لغات الأمم، أن تحول على يديه جلُّ طلابه عشاقاً ومحبين للعربية، وجنوداً وقادة يستبسلون في الدفاع عن كينونتها، وذود الأعداء عن حصونها، ويؤكد ذلك ما رواه محمود إبراهيم عن أحد زملائه وأصدقائه في الجامعة الأردنية، ولكنه لم يصرح باسمه –الذي أرجح أن يكون عبدالكريم خليفة– نقلاً عن أستاذه البرقاوي الذي كان يقول: "لو كنا ذوي يسار لدفعنا نحن من مالنا لمن يتيح لنا أن ندرس طلاباً"[١].

والقول السابق للبرقاوي، يدلنا على عظمة هذا الرجل، الذي حمل أمانة غرس العربية، وتجذيرها في أرضها، وجعلها أمانة في أعناق تلاميذه، بعد أن أصبحت مهددة بخطر زحف لغات المستعمرين، التي

١- إبراهيم، محمود: **"الأستاذ حسن البرقاوي ذكريات وأحاديث"** ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)**: ص١٠-١١.

قدمتها القوى الغاشمة على لغة القرآن في المدارس والجامعات، والدوائر والدواوين الحكومية، بل في اللغة المحكية ولغة الإعلام.

وعلاوة على ذلك، فإن الشيخ البرقاوي كان لديه رؤية دقيقة، لما يمكن أن يتركه تدريسه في الأجيال، لما حباه الله به من قدرات لغوية، وكتابية وبيانية، وذوق فني وحس جمالي، مكنه من كشف مواطن الإبداع والجمال الفني في النصوص القرآنية والأدبية، التي يختارها لطلابه من روائع الأدب العربي قديمه وحديثه، وما رواه عنه أحد طلابه، وهو المؤرخ الأردني عبدالكريم غرايبة يسفر عن ذلك، وبخاصة في استرجاعه لذكرياته عن مدرسة السلط عام (١٩٣٩-١٩٤١م)، عندما كان البرقاوي يحلل لطلابه بيت إيليا أبو ماضي:

والذي نفسه بغير جمال لا يرى في الوجود شيئاً جميلاً

يقول غرايبة: "دخل علينا أول وزير معارف أردني، سماحة المرحوم أحمد علوي السقاف، يرافقه مدير المعارف المرحوم سمير الرفاعي، ومدير المدرسة المرحوم محمد أديب العامري، ووجدوا معلمنا الذي لقبناه "أستاذ الجيل" المرحوم حسن البرقاوي، يشرح للطلاب بيت الشعر المذكور أعلاه، وأبدى الوزير ومدير المعارف إعجابهما بالشرح والفكرة والمعاني في هذا البيت الجميل، ووافقهما مدير المدرسة بنصف ابتسامة، وازددنا نحن فخاراً بمعلمنا القدير، الذي ردد بعد خروج الزوار القول: "استمعوا جيداً لكل ما أقول، فلن تسمعوا هذا من غيري، هذا ما أتذكر حدوثه قبل خمس وخمسين سنة، وتبين لي الآن"[١].

١- **محاسنة، الطراونة، الكركي: مدرسة السلط (سيرة ومسيرة):** ج٢، ص٦٣.

ومما هو لافت للنظر، أن غرايبة قد سجل هذه الذكرى عن أستاذه البرقاوي في منتصف التسعينيات من القرن الماضي، وتبين له بعد هذا العمر المديد، براعة أستاذه في كشف هذا المعنى الفلسفي، وقدرته على تقريبه من أذهان طلابه، الذين كشفت لهم خبرتهم الطويلة في الحياة والناس والوجود عن دقة فهم البرقاوي، وغوصه على جواهر هذه الحكمة الإنسانية الخالدة من ناحية. وكشف لنا غرايبة عن مدى اعتداد البرقاوي بما عنده من ذائقة أدبية وجمالية، وموهبة لغوية ونقدية، تفوق بها على أقرانه ومعلمي عصره من ناحية أخرى، علاوة على حرصه الشديد على تعليم طلابه، ورغبته في أن ينمي في نفوسهم الحاسة الجمالية، والروح النقدية، والملكة اللغوية، والموهبة الأدبية في قراءة النصوص، والنفاذ إلى مواطن الحسن والجمال فيها، والكشف عن معانيها الحقيقية الباطنة، وما تحمله من معانٍ أخلاقية وروحية.

سابعاً- المتابعة للغة الإعلام والحرص على سلامتها، ودفع العاميات المرذولة عن حماها:

تفتحت مواهب البرقاوي الأدبية، وظهرت أمارات امتلاكه لناصية اللغة العربية كاتباً ومعلماً، وخطيباً وواعظاً، ومتحدثاً ومحاضراً، ومفسراً وناقداً منذ عمله في التعليم أيام الحكومة الفيصلية بدمشق عام ١٩١٨هـ، ولكن مع بداية تأسيس الإذاعات العربية في الثلاثينيات من

١- **محاسنة، الطراونة، الكركي: مدرسة السلط (سيرة ومسيرة):** ج٢، ص٦٣.

القرن الماضي، وبداية بثها الإذاعي لبرامجها ونشراتها ومسلسلاتها من المحطات العربية والأجنبية، تنبه البرقاوي لخطورة الدور الإذاعي في نشر اللغة العربية، وتنمية ملكتها في نفوس مستمعيها، قبل ظهور وسائل الإعلام الأخرى كالتلفزيون ووسائل الاتصال والتواصل الحديثة.

ويبدو أن البرقاوي كان مستمعاً جيداً للإذاعات، وحريصاً على تتبع برامجها، ومدى سلامتها من الناحية اللغوية والتثقيفية بين الناس، وما لها من تأثير على تشكيل الحس اللغوي والأدبي، والوعي الثقافي والاجتماعي، والسياسي والوطني لدى عامة الناس، وهو الأمر الذي يؤدي بالتالي إلى ارتقاء ملكة اللغة عندهم، وقد أكد لنا الشاعر عبدالرحيم عمر حقيقة اهتمام البرقاوي بالبرامج الإذاعية، ومتابعتها وإبداء رأيه في قيمتها، يقول عمر: "كان أول عهدي بمعرفة البرقاوي في أواخر الخمسينيات، حين كنت أكتب برنامجاً إذاعياً اسمه (ألوان)، وصادف أن كتبت يوماً تعليقاً على بعض آراء جبران في "النبي"، وسمعها الأستاذ البرقاوي، فما كان منه إلا أن اتصل بمدير الإذاعة آنذاك –دولة الرئيس التل– قائلاً: إذا كان بينكم من يستطيع الكتابة عن جبران بهذا المستوى، فإن بينكم أدباء. وحين استدعي لزيارة الإذاعة، وقدمني إليه رؤسائي، اكتشفت أن بينه وبين جبران صلة روحية ترتبط بأيام دمشق، وعهود الصِّبا"[1]. وآمل أن أتمكن من جمع تراث البرقاوي، لنكشف عن طبيعة هذه الصلة الروحية التي استشفها عبدالرحيم عمر من اهتمام البرقاوي بجبران.

١- **عمر**، عبدالرحيم: **"في ذكرى البرقاوي"** ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)**: ص٥٦-٥٧.

وبناءً على ما أورد الشاعر عبدالرحيم عمر عن ذكرياته في الإذاعة الأردنية في خمسينيات القرن العشرين، فإننا ندرك أن البرقاوي كان متابعاً لبرامج الإذاعة الأردنية، وحريصاً على أن تقدم بلغة عربية فصيحة، بل جعل من نفسه ناقداً أدبياً لما تقدمه من برامج لغوية وأدبية، يبدي فيها آراءه تشجيعاً للأدباء الجدد، وحرصاً على الارتقاء بمستوى كتاباتهم التي تقدم إلى جمهور واسع من المستمعين في داخل البلاد وخارجها، ولا سيما في خمسينيات وستينيات القرن الماضي، الذي لعبت فيه الإذاعات دوراً مهماً في تثقيف الناس، وتشكيل الرأي العام، وترسيخ الهوية الوطنية في البلاد، ونشر الوعي السياسي والاجتماعي والأدبي واللغوي.

ومما لا شك فيه، أن حرص البرقاوي على سلامة لغة الإذاعة، جاء نتيجة لتجربة خطيرة مرت بها الإذاعة الفلسطينية، التي أنشأها الانتداب البريطاني سنة ١٩٣٦م في القدس، واختير الشاعر إبراهيم طوقان مديراً للبرامج العربية فيها، واستطاع طوقان بما لديه من وعي قومي، وإبداع أدبي، أن يُحلّ العربية الفصحى في المكان اللائق بها من برامجه الإذاعية، التي تفوقت على برامج أكبر المحطات العربية في محتواها وأدائها ولغتها يومذاك.

وأما ما كان من المستعمرين الإنجليز والصهاينة، وأعداء العربية من أبنائها، فإنهم ناصبوا طوقان العداء، ودسوا عليه الدسائس؛ لأن هذا القسم العربي من الإذاعة لا يخدم مشاريعهم، ولا يحقق أهدافهم الرامية إلى سيطرة اللهجة العامية على برامج القسم العربي، وحجتهم في ذلك أن الإذاعة قد وجدت لنفع الطبقة المتوسطة من عمال

وفلاحين وتجار(١) وهم –حسب زعم أعداء العربية– لا يفهمون اللغة الفصحى أو القديمة.

أما موقف الشاعر الوطني الكبير إبراهيم طوقان، الذي صور بطولات المناضلين العرب في قراع العصابات الصهيونية، إزاء مكايد المستعمرين ودسائس الصهاينة وأذنابهم، فقد كان موقفاً بطولياً، ووقف الرجل منافحاً ومدافعاً عن دور الفصحى في نهضة الأمة، وذيوع لغة قرآنها بين كافة الطبقات، علماً بأن الصهاينة كانوا يسخرون كل الوسائل الممكنة، لبعث لغتهم الميتة(٢)، فأنشأوا مئات المدارس والمعاهد التقنية التي تدرس كل العلوم العصرية بالعبرية، بينما هم يعملون ظاهراً وباطناً، علناً وسراً على محاربة اللغة العربية الفصحى وإضعافها في الإذاعة ومؤسسات الدولة(٣).

لقد كان البرقاوي معاصراً ومتابعاً لحملات المستعمر البريطاني، ومكايد الصهاينة على هذه اللغة في وسائل الإعلام، التي لها دور عظيم في توحيد الأمة على أساس اللغة الفصحى، وفي نشر الوعي القومي، وترسيخ معاني الوطنية في جمهرة الناس، ولذا فإنه كان متابعاً للإذاعة الأردنية الحديثة الوليدة آنذاك، وراغباً في أن تكون لغتها وبرامجها ملتزمة بلغة أمتها وثقافتها، وكان يتصل بمديرها وصفي التل الذي كان واحداً من طلابه مبدياً له رأيه في برامجها ومسلسلاتها كما أسلفنا.

١- انظر: **العودات**، يعقوب: **مختارات من مؤلفاته**. اختارها: زياد الزعبي، ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ٢٠٠٢م: ص٢٢٥-٢٢٧.

٢- انظر: **روشفالد، القومية العرقية وسقوط الإمبراطوريات**: ص٢٧٦.

٣- انظر: ياسين، عبدالحميد، **"معلمونا ثلاثة"**، ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)**: ص٣٥.

ثامناً- تدريس النحو العربي وفقاً لأحدث الأساليب التربوية الحديثة:

كانت مادة اللغة العربية مقسمة إلى عدة موضوعات: القواعد، الإنشاء، البلاغة، القراءة، المطالعات، تاريخ الأدب. وتبين لنا من خلال وثيقة[١] مؤرخة بـ ١٩٤٢/٩/٢٨م، كتاب- ١٤/٨/٥ وهي من وثائق مدرسة السلط الثانوية أن مدير المدرسة التي كان البرقاوي معلماً بها آنذاك، قد رفع إلى وزير المعارف جدول توزيع الدروس، بناءً على ملحوظات الوزير حول توزيع المواد على المدرسين في الجدول، ونستطيع من خلال الجدول الأسبوعي للدروس في المدرسة، أن نعرف أن حصص: القواعد، والإنشاء، والبلاغة، والمحفوظات، والمطالعات، وحصص الدين الإسلامي، كانت منوطة بالبرقاوي في الصفوف الثانوية، ويبدو لي أن هذا التوزيع كان مبنياً على تقدير المدير للقدرات الخاصة التي يتمتع بها البرقاوي، وكفاءته في تدريس هذه الموضوعات، التي قد لا يجيد تدريسها المختصون باللغة العربية إجادة البرقاوي لها في تلك المدرسة، علماً بأن بعضهم كان من حملة الشهادات الجامعية من أرقى الجامعات آنذاك.

لا يخفى على دارسي اللغة العربية ومدرسيها، أن دراسة نحو اللغة العربية تحتاج إلى جهد مضاعف من الطالب، وإلى أستاذ قدير لديه المهارة في تفهيم موضوعات النحو للطلاب، وما أكثر مدرسي النحو الذين كانت بضاعتهم العلمية فيه مزجاة، سواءً أكان ذلك في المدارس أو المعاهد أو الجامعات، فتخرج أفواج من الطلاب على أيديهم، وهم على ما هم عليه من ضعف في النحو واللغة، بل وصل هذا الداء الدوي، الذي كشف عن تعمق العِي إلى طلاب الدراسات العليا في النحو واللغة.

١- وثيقة محفوظة في المكتبة الوطنية الأردنية بلا رقم.

ومما هو جدير بالذكر، أن البرقاوي كان يصدر في تدريسه للغة العربية، أدباً وإنشاء، نحواً وصرفاً، بلاغة ونقداً، عن حب عميق للغة القرآن الكريم، وينطلق من عقيدة وطنية صادقة، كانت استجابة لتحدي سياسة الفرنسة التي انتهجتها فرنسا في المغرب العربي الكبير، وفي سوريا ولبنان، وكان هدم اللغة العربية وإماتتها، من أهم دعائم هذه السياسة الشريرة التي عَدّت "اللغة العربية من أسباب تأخر الشرقيين؛ لأن قواعدها عسيرة"[١].

واللافت للنظر من خلال شهادات طلاب البرقاوي، الذين أصبح بعضهم مدرساً للغة فيما بعد، أنه كان ذا طريقة مشوقة في تدريس قواعد اللغة العربية، وأن الرجل كان يسخر كل حواسه في تقريب النحو إلى أفهام التلاميذ، وقد وصف لنا تلميذه فاروق بدران الذي درس عليه مادة النحو في السادس الابتدائي قائلاً: "لقد كان أسلوبه فريداً، فقد كان يعلمنا النحو، ولكنه كان يقرئنا القراءة مرة ثانية ليتأكد من إتقاننا للنحو، وعندما كنا نصل إلى كلمة، يوقف الطالب القارئ، فيقول له: (أعربها)"[٢].

ومما يستدعي الانتباه هنا، أن طريقة البرقاوي في تدريس النحو قد تبدو مغايرة –ولو ظاهرياً– لما كان متبعاً آنذاك في تدريس القراءة والأدب، فقد جاء في كتاب مفتش التربية والتعليم للواء البلقاء المتعلق بتحضير وتدريس المواضيع المدرسية والمؤرخ بـ ١٩٦١/١٢/٢٦م[٣]: "إن درس القراءة وسيلة لتحصيل المعرفة، وتنمية الذوق والتفكير، ولذلك ينبغي للمعلم في درس القراءة والأدب أن يراعي:

١– تلخيص القصة إذا كان الموضوع قصة، أو تلخيص الأفكار الأساسية إن كان غير قصة، أو عمل هيكل للدرس إن أمكن.

١- **كرد علي، المذكرات**: ج٢، ص٤٩٩.

٢- **بدران**، فاروق: **"هدية إلى روح حسن البرقاوي في الذكرى العشرين لوفاته"**، ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)**: ص٨٤.

٣- **وثيقة ضمن محفوظات المكتبة الوطنية الأردنية**.

٢- الاهتمام بما كسبه الطلاب من المهارات كالرجوع إلى القواميس، أو إلى المكتبة، أو التنبيه إلى جمال بعض التعابير ودقتها.

٣- لا يصار إلى النحو في درس القراءة، إلا إذا توقف المعنى عن النكتة النحوية، ولا يكون ذلك إلا نادراً"[١].

والظاهر أن البرقاوي قد سخر درس القراءة لتعليم النحو، عندما كان يطلب من الطلاب إعادة قراءة درس القراءة، لمعرفة مدى مراعاتهم للقواعد النحوية الصحيحة، وللتأكد من صحة نطقهم الصحيح للحروف والكلمات، التي كان حريصاً على سلامة مخارجها، ويتوقف عند بعض الكلمات لترسخ في أذهان طلابه من خلال النصوص المنتقاة التي أصبحت من محصول الطلاب عندما درسوها مع زميل آخر للبرقاوي يعلمهم القراءة.

وتدل التقارير السرية التي رفعها مديرو المدارس عن المعلمين في مدارسهم، أن مديري ومفتشي المدارس التي علم فيها البرقاوي، كانوا يشيرون إلى اقتداره وبراعته في تدريس النحو، ووصف بأنه قوي المادة في القواعد[٢]، وقد كان حرص البرقاوي على قواعد النحو عظيماً، وكان يعد اللحن في العربية خطراً جسيماً، وله عبارة مشهورة في ذلك، أفادنيها سبطه عبدالرحمن جمعة الأستاذ بكلية القانون في الجامعة الأردنية، أنه سمع جده يكرر العبارة التالية: يقول: "لأهون عليَّ أن توجه رصاصة إلى قلبي، من أن يُخطئ طالب في نطق كلمة أو إعرابها"[٣].

١- **وثيقة ضمن محفوظات المكتبة الوطنية الأردنية**.

٢- انظر: **وثائق وزارة التربية والتعليم في الأردن**، الموظف **حسن البرقاوي**، إضبارة رقم (٥٨/١١).

٣- **جمعة**، عبدالرحمن: **مكالمة هاتفية مع عبدالرحمن جمعة سبط البرقاوي** بتاريخ ٢٠٢١/٨/٢٠م.

ومن حسن حظ طلاب البرقاوي، أنه كان يعلمهم إضافة إلى القواعد والبلاغة مادة الدين الإسلامي التي لم يكن لها كتاب مقرر، فكان يملي على طلابه المادة المقررة، ويختار لهم ما يراه مناسباً من أبواب الفقه والعبادات، ويعلمهم المنطق للاستدلال على الحقائق الإيمانية، ويدرسهم التوحيد من خلال الآيات القرآنية الدالة على وحدانية الله عزّ وجل، ولكنه كان لا ينسى إعراب الآيات القرآنية التي يدرسها، وينفذ من ذلك إلى تعليمهم أحكام التجويد[١].

وقد تنبه أحد كبار التربويين في الأردن، وهو فاروق بدران إلى أن أستاذه البرقاوي قد طبق الطريقة المحورية[٢] في التدريس، وهي طريقة اتبعها ودعا إليها بعض علماء التربية في الغرب.

والطريقة المحورية أو المنهج المحوري تقوم على التراكم المستمر لخبرات المنهج عند الطلاب[٣] في التعليم، ومن أشكال هذا المنهج أنه يضم مادتين أو أكثر، ويقوم معلم واحد بتدريسهما، وهذا ما كان البرقاوي يقوم به، وغاية المنهج إعداد المتعلمين لغوياً واجتماعياً، أي أنه يأخذ بحاجات المتعلمين، ولا يعترف بوجود الحواجز بين المواد، ويسعى إلى تحقيق الكفاية اللغوية لجميع المتعلمين، ويعتمد نجاح هذا المنهج على ما لدى المعلم من كفاية لغوية، وعلى علاقته بطلابه، وقدرته على التواصل معهم والقرب منهم. وقد تحققت كل شروط هذا المنهج عند البرقاوي.

١- انظر: **بدران**، فاروق، **"هدية إلى روح حسن البرقاوي في الذكرى العشرين لوفاته"**، ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)**: ص٨٤-٨٥.

٢- **المصدر السابق:** ص٨٤.

٣-انظر: **"أشكال المنهج المحوري في عملية التعليم"** https: //e3arabi.com.

وتؤكد لنا شهادات طلاب البرقاوي عن طريقته في التعلم، أنه كان يدعو طلابه إلى عدم التفريق بين العلم والأدب، وبخاصة في علم النحو، الذي بات البرقاوي مقتنعاً بأن معرفة الطالب لمبادئ الرياضيات والمنطق، مما يمكنه من إتقان النحو، ويساعده على حفظ قواعده وفهمها[١]، علماً بأن البرقاوي كان بارعاً في الرياضيات والهندسة والجبر، التي افتخر على تفوقه بها على أقرانه، وكان يرغب دوماً في أن تكون موادها ضمن عبئه التدريسي في بداية كل عام[٢].

لقد كان البرقاوي متابعاً لطلابه فيما يدرسه من أبواب النحو، وكان حريصاً على تأسيسهم، وعدم ضياع دروسه عليهم، وبخاصة ما كان منها مهماً كموضوع المشتقات، الذي يُعد من أهم دروس النحو وموضوعاته؛ لأن البرقاوي كان عارفاً بأهمية الاشتقاق، ودوره في وضع المصطلحات والألفاظ للمسميات الحديثة في العلوم والصناعة والتقنية؛ ولأنه المفتاح لتوليد الأسماء العربية لمسميات ومصطلحات عصرية، لم ترد في لغة العرب قبل ذلك.

لقد عرف البرقاوي ما دار على صفحات مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق من جدل، بين من يريدون أخذ المصطلحات العلمية الحديثة كما وردت بلغاتها، وبين الرافضين لذلك، والداعين إلى توليد أسماء عربية لها عن طريق الاشتقاق، ومن المؤكد أن البرقاوي كان من الفريق الثاني، وكان الرجل مؤمناً بما للاشتقاق من أهمية في توليد المقابلات ووضع الأسماء العربية للمصطلحات الأعجمية، بل الاشتقاق هو

١- انظر: **العمد**، هاني: **"شهادات معاصري البرقاوي"**، ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)** : ص٤٨.

٢- انظر: **الفرحان**، حمد: **"حسن البرقاوي... المعلم العربي المخلص"**، ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)** ، ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م: ص٢٥.

الإكسير الذي يبقي لغة العرب ذات شباب متجدد، ترفل بحلل الكمال والجلال، وتزهو بأثواب الخلود والجمال، التي تُدلَّ بها على سائر لغات أهل الأرض.

وقد أبان أحمد فارس الشدياق اللغوي الكبير، عن قيمة الاشتقاق رافداً من روافد ثراء اللغة العربية عندما قال: "وأما الاشتقاق، وسائر الأساليب الأخرى، فليس لسائر اللغات كما للعربية، فمن يُنظِّرهُن بها فقد جاء نكراً، فهي بذلك أفضلهنّ وأشرفهن وأكملهن، فهنّ الفقيرات وهي الغنية، وهن المتشاكسات وهي السوية، كيف لا، وفي غيرها اسم الفاعل من مصدر، واسم المفعول من آخر!!"[١].

وقد عرف اللغويون العرب قيمة الاشتقاق في ترسيس المصطلحات والتأصيل لها، وألف بعضهم في الاشتقاق كتباً أبرزها "الاشتقاق" لابن دريد الأزدي (ت٣٢١هـ/٩٣٣م) الذي دفعه إلى تأليفه مزاعم أعداء العربية الزاعمين بوجود أسماء فيها لا أصل لها في لغتهم، يقول: "وكان الذي حدانا على إنشاء هذا الكتاب، أن قوماً ممن يطعن على اللسان العربي، وينسب أهله إلى التسمية بما لا أصل له في لغتهم، وإلى ادِّعاء ما لم يقع عليه اصطلاح من أوّليّتهم، وعدُّوا أسماء جهلوا اشتقاقها، ولم ينفد علمهم في الفحص عنها، فعارضوا بالإنكار..."[٢].

١- **المطوي**، محمد الهادي: **أحمد فارس الشدياق (حياته وآراؤه في النهضة العربية الحديثة)**، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٩م: ق١، ص٢٦٠ نقلاً عن كتاب الشدياق: "**سر الليال في القلب والإبدال**". وانظر: **الكرملي**، أنستاس ماري: "**الاعتصار أو التشنج**"، مجلة **المجمع العلمي العربي بدمشق**، ١٣٢٩هـ/١٩٢١م: المجلد الأول، ص٢٣٩.

٢- **ابن دريد**، أبو بكر محمد بن الحسن (ت٣٢١هـ/٩٣٣): **الاشتقاق**. تحقيق وشرح عبدالسلام هارون- ط١، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م: ص٤.

ولدينا رواية نقلها هاني العمد، عن ذوقان الحسين، تدل على مبلغ عناية البرقاوي بدروس المشتقات، وحرصه على فهم الطلاب وتمثلهم لها، يقول ذوقان الحسين: "وذات مرة تغيبت عن درس في القواعد، وكان الاشتقاق. ولم يرض البرقاوي على نفسه أن يشرح درساً في القواعد، وبعض الطلبة قد غابوا، فأعلم والدي بالأمر، وطلب منه أن يستخدم شتى الوسائل في سبيل إرغامي على حضور درس الاشتقاق؛ لأن الاشتقاق موضوع مهم، ولا ينبغي لأي طالب أن يتغيب عنه مهما كانت الأسباب!!"[١].

وتتأكد صحة حرص البرقاوي على تفهيم طلابه دروس القواعد الجافة والكثيرة الاستثناءات، إذا علمنا أنه فتح بيته الصغير، الذي يضيق بأطفاله لاستقبال طلابه، وإعطائهم دروساً إضافية في النحو، عندما اختار لهم ألفية ابن مالك، التي أجمع علماء النحو على أنها من أهم المتون التعليمية في النحو، وتبارى النحويون في شرحها، وتقريبها لطلاب العلم، يقول هاشم القضاة داعياً بالسقيا لأيام أستاذه البرقاوي، التي استرجع ذكرياتها في حي الجدعة أحد أحياء مدينة السلط: "...ويحلو لي من بين كل الوجوه، التي كانت تطفح بالصبر والصدق والبشر، وجه أستاذي الشيخ حسن البرقاوي –رحمه الله– وأذكر معه بيته في حي الجدعة الوسطى، يضيق عن زوجه وأبنائه ليتسع لكل طلابه"[٢].

وبناءً على ما سبق، فإن البرقاوي كان عارفاً بالموضوعات التي تفيد الطلاب، وتفي بحاجاتهم في النحو واللغة التي لم يحصرها بين جدران

١- **العمد**، هاني، "**شهادات معاصري البرقاوي**"، ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)**: ص٤٧-٤٨.

٢- **القضاة**، هاشم: "**سقياً لأيام البرقاوي**"، ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)**: ص٦٩.

الفصول أو الصفوف الدراسية، بل نقلها إلى فضاء أكثر اتساعاً في بيته، أو في المسجد، أو في ملعب المدرسة، أو في الهواء الطلق، سعياً إلى الوصول إلى غاية منشودة وهدف مقصود، هو إتقان طلابه للقواعد والإعراب، الذي يعده الطلاب مادة صعبة منفرة، عسرة الفهم، فأزاح البرقاوي ما علق بأذهانهم من غشاوة الكره لمادة النحو والصرف واللغة، التي أصبحت كأنها الطلاسم التي يصعب فك رموزها عند كثير من طلاب المدارس، وجعلها لهم مادة محببة، سائغة عذبة، قريبة من الأفهام.

وقد روى المعلم محمد الحياري أحد طلاب البرقاوي أنه كان يسخر كل حواسه: الصوت، اليد، الإشارة في شرح دروسه، يقول الحياري: "ولم أكن مقدراً لعظمة هذا الرجل، إلا بعد أن تخرجت وتركت المدرسة، وانخرطت في سلك التدريس، عندئذ أدركت قيمة هذا المعلم، وحجم علمه، ومدى ما أخذته منه، فقبلت يديه، ثم استمع إلى درس في النحو قدمته للطلبة. وعندما سأل بعض الطلبة في الإعراب، سُرّ كثيراً لإجاباتهم، وقال: **من يتقن القواعد والإعراب يكون واحداً من تلاميذي**"[1].

وثبت لدي بعد الاطلاع على كثير من الشهادات والمقابلات الشخصية، التي نقلت عن تلاميذه بأنه قد علمهم وأفادهم، تاركاً بصماته العلمية التي لم تمح من أذهانهم، وجامعاً إلى ذلك الصدق والإخلاص في التعليم، وساعياً إلى تنمية ملكة الإبداع عندهم، وهو ما قالت به الطبيبة والمربية وعالمة النفس الإيطالية مونتسري: "إننا نحن المدرسين نبذر البذور،

١- **العمد**، هاني، **"شهادات معاصري البرقاوي"** ضمن كتاب: **حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)**: ص٤٤.

وتلاميذنا يحصدون، وليس من السهل أن نعمل لتحسين مستوى الجيل المقبل، فهو عمل شاق، ومن الواجب أن نعمله برغبة وإخلاص"[١].

وربما كان البرقاوي قد اطلع على طريقة مونتسري (١٨٦٩-١٩٥٢م) عندما كان مدرساً بحمص، وقرأ مؤلفات نقولا حداد، أو بعد تلك الفترة؛ لأن البرقاوي عُرف بولعه الشديد، ورغبته العارمة في فهم النظريات الحديثة في التربية، وعلم النفس والفلسفة وغيرها كما بينا ذلك من قبل، ولذا بقي تأثيره متجذراً في نفوس طلابه، ومحركاً لملكاتهم، وباعثاً لهمتهم، ومذكراً إياهم بتفاني شيخهم في كشف غشاوة الجهل عن أبصارهم وبصائرهم، وورثوا عنه حبهم للعربية والدفاع عنها.

وختاماً لهذه المقالة، فإن جهود البرقاوي في خدمة اللغة العربية في الأردن، أجل وأعظم من أن يحاط بها في مقالة أو أكثر، ونأمل أن نكون قد قدمنا صورة تقريبية لجهود هذا اللغوي العلامة، الذي جعل من نفسه حارساً للعربية، وجندياً مجاهداً في سبيلها كما أخبر طلابه الذين علمهم وأفادهم، وبقيت ذكراه حية عطرة عظيمة في نفوسهم.

١- **القطان**، إبراهيم: "**أعلام التربية: الدكتورة مونتسري: ١٨٦٩-١٩٥٢م**"، مجلة **رسالة المعلم**، وزارة التربية والتعليم، الأردن، ص٣٠٦.

فهرسة المصادر والمراجع:

١. **إبراهيم**، محمود: "**الأستاذ حسن البرقاوي ذكريات وأحاديث**": ضمن كتاب: حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية). ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م.

٢. **البخيت**، محمد عدنان: **مقابلة شخصية مع محمد عدنان البخيت في الجامعة الأردنية** بتاريخ ٢٠٢١/٣/١١م.

٣. **بدران**، فاروق: "**هدية إلى روح حسن البرقاوي في الذكرى العشرين لوفاته**". ضمن كتاب: حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية). ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م.

٤. **البراري**، هزاع: "**حسن البرقاوي: "التربوي العتيق باني وجدان الأجيال**" مقالة منشورة على الشابكة (مدونة الأردن Jordan Multimedia) عام ٢٠١١م.

٥. **البرقاوي**، حسن: "**غزوة بدر الكبرى**". **مجلة هدي الإسلام**، وزارة الأوقاف، الأردن، عمان، ١٩٥٨م.

٦. **البرقاوي**، حسن: "**النقاب في المنخل**" ضمن كتاب: حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية). ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م.

٧. **جريدة العاصمة**، ٢٦ جمادى الثانية ١٣٣٧هـ/٢٦ آذار سنة ١٩١٩م. السنة الأولى، العدد (٢٩).

٨. **ابن جماعة الكناني**، بدر الدين الكناني، (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م): **تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم**. ط١، دار المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، بلا تاريخ.

٩. **جمعة**، عبدالرحمن: **مقابلة مع عبدالرحمن جمعة سبط البرقاوي** بتاريخ ٢٠٢١/٦/٢٠م.

١٠. **الجندي**، أنور: **الفصحى لغة القرآن**. ط١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، بلا تاريخ.

١١. **الجهشياري**، محمد بن عبدوس (ت٣٣١هـ/٩٤٢م): **الوزراء والكتاب**. تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبدالحفيظ شلبي. ط١، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٨م.

١٢. **الحايك**، فوزان: **مكالمة هاتفية مع فوزان الحايك** المقيم في عمان، بتاريخ ٢٠٢١/٥/١٣م.

١٣. **الحصري**، ساطع: **يوم ميسلون**. دار الاتحاد، بيروت، بلا تاريخ.

١٤. **الحلبي**، شهاب الدين محمود (ت٧٢٥هـ/١٣٢٤م): **حسن التوسل إلى صناعة الترسل**. تحقيق ودراسة: أكرم عثمان يوسف. ط١، وزارة الثقافة، بغداد، ١٩٧٦م.

١٥. **الحمود**، ضيف الله: "**حسن البرقاوي**"، ضمن كتاب: حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية): ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م.

١٦. **خريسات**، هاني: "**المعلم حسن البرقاوي**". ضمن كتاب: السلط تاريخ وشخصيات. إعداد وتحرير: محمد العطيات. ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ٢٠٠٩م.

١٧. **ابن خلدون**، ولي الدين عبدالرحمن (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م): **المقدمة**. قرأه وعارضه بأصول المؤلف وأعد معاجمه وفهارسه: إبراهيم شبوح. ط١، دار القيروان، تونس، ٢٠٠٧م.

١٨. **خليفة**، عبدالكريم: "**خطاب عبدالكريم خليفة في تأبين حسن البرقاوي**". نسخة محفوظة لدى سمير الدروبي.

١٩. **خليفة**، عبدالكريم: "**خطاب الدكتور عبدالكريم خليفة**" ضمن كتاب: محمد كرد علي مؤسس المجمع العلمي العربي. ط١، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

٢٠. **الدروبي**، سمير: "**الأستاذ الكبير عبدالكريم خليفة وتحقيق التراث العربي**"، مجلة أفكار، وزارة الثقافة، الأردن، ٢٠١١م.

٢١. **الدروبي**، سمير: "**حسن البرقاوي أستاذ اللغة العربية الأول في عهدي الإمارة والمملكة**". مجلة راية مؤتة، جامعة مؤتة، ٢٠٢١م: المجلد السابع/ العدد الرابع/ ص٣٨-٤٠.

٢٢. **الدروبي**، سمير: "**عبدالكريم خليفة محققاً**" مقال ضمن: الموسم الثقافي الثامن والثلاثون لمجمع اللغة العربية الأردني ٢٠٢٠م. منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، عمان، ١٤٤٢هـ/٢٠٢١م.

٢٣. **الدروبي**، سمير: "**اللغة العربية في الدواوين والمخاطبات والمراسلات في المؤسسات العامة والخاصة في الأردن: واقعها وسبل النهوض بها**"، ضمن كتاب: الموسم الثقافي السابع والعشرون لمجمع اللغة العربية الأردني، مجمع اللغة العربية الأردني، عمان، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

٢٤. **الدروبي**، سمير: **مجامع اللغة العربية في دمشق وعمان في عهود الهاشميين ١٩١٨-٢٠٢١م**. ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ٢٠٢١م.

٢٥. **ابن دريد**، أبو بكر محمد بن الحسن (ت٣٢١هـ/٩٣٣م): **الاشتقاق**. تحقيق وشرح عبدالسلام هارون- ط١، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

٢٦. **دفاتر مجلس المعلمين**، مدرسة السلط الثانوية، إمارة شرق الأردن، ١٩٢٩-١٩٤٥م.

٢٧. **رامزور**، أرنست: **تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨م**. ترجمة: صالح أحمد العلي. قدم له وراجعه: نقولا زيادة. ط١، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٠م.

٢٨. **الرشدان**، محمد سليم: "**البرقاوي معلم الأجيال**"، ضمن كتاب: حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)، ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م.

٢٩. **الرفاعي**، ضياء الدين: "**حسن البرقاوي**"، ضمن كتاب: حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية). ط١، وزارة الثقافة.

٣٠. **روشفلد**، أفيل: **القومية العرقية وسقوط الإمبراطوريات**. ترجمة: عاطف معتمد، عزت زيان. ط١، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٢م.

٣١. **الزركلي، خير الدين: ما رأيت وما سمعت**، ط١، المطبعة العربية، مصر، ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م.

٣٢. **الشريقي**، محمد: "**الأردني الفتي**"، جريدة "الشرق العربي" ٢٠ رمضان ١٣٤٣هـ/ ١٣ نيسان ١٩٢٥م.

٣٣. **شريم**، رياض: "**في ذكرى رحيل البرقاوي**"، ضمن كتاب: حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية). ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان ١٩٩٠.

٣٤. **شهاب**، أسامة يوسف: **سليمان إبراهيم المشيني شاعراً وأديباً وإنساناً**. ط١، دار يافا العلمية، عمان، الأردن، ٢٠٠٩م.

٣٥. **شهاب**، أسامة يوسف: **صحيفة الجزيرة الأردنية (دورها في الحركة الأدبية)**. ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٨٨م.

٣٦. **الصباغ**، محمد لطفي: "**الشيخ عبدالفتاح الإمام**"، الألوكة http://www.alulcah.net.

٣٧. **ظبيان**، تيسير: "**فقيدنا البرقاوي**"، ضمن كتاب: حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)، ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م.

٣٨. **العامري**، محمد أديب: "**في أربعين البرقاوي**" ضمن كتاب: حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية): ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م.

٣٩. **عباس**، عبدالحليم: "**بين البرقاوي وعبدالحليم عباس**"، ضمن كتاب: حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية). ط١، وزارة الثقافة. ط١، الأردن، عمان، ١٩٩٠م.

٤٠. **عربيات**، عبداللطيف: **صفحات من حياتي (مراجعات)**: ط١، المطابع المركزية، عمان، الأردن، ١٤٤٢هـ/٢٠٢١م.

٤١. **العطيات**، محمد: **السلط تاريخ وشخصيات**. إعداد وتحرير: محمد العطيات. ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ٢٠٠٩م.

٤٢. **العطيات**، محمد: **مقابلة شخصية مع محمد العطيات**، في منزله في السلط، وبحضور الدكتور عبدالكريم الحياري، تاريخ ٢٠٢١/٦/٢٥م.

٤٣. **العظم**، رفيق: "**انحطاط الشرق بانحطاط الأخلاق**". **مجلة المقتبس**، مطبعة الظاهر، القاهرة: المجلد الأول ١٩٠٦-١٩٠٧م.

٤٤. **العمد**، هاني: "**شهادات معاصري البرقاوي**"، ضمن كتاب: حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية). ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م.

٤٥. **العمري**، أحمد بن يحيى بن فضل الله (ت٧٤٩هـ/١٣٤٩م): **عرف التعريف في المكاتبات**. دراسة وتحقيق: سمير الدروبي، ط١، دار ابن الجوزي، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

٤٦. **العودات**، يعقوب: **من أعلام الفكر والأدب في فلسطين**. ط٢، وكالة التوزيع الأردنية، عمان، ١٩٨٧م.

٤٧. **العناقرة**، محمد: "**من الرعيل الأول: حسن البرقاوي أستاذ الجيل الأردني**" مقالة منشورة في جريدة الدستور بتاريخ ٣٠ أيار ٢٠٠٩م.

٤٨. **غصيب**، همام: "**ملف تكريمي خاصّ: المرحوم حسن البرقاوي**"، الجامعة الأردنية، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م: العدد (٣٨).

٤٩. **الفرحان**، حمد: "**حسن البرقاوي... المعلم العربي المخلص**" ضمن كتاب: حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)، ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م.

٥٠. **فريز**، حسني: **مع رفاق العمر**. ط١، رابطة الكتاب الأردنيين، عمان، ١٩٨٢م.

٥١. **فريز**، حسني: "**مع ذكرى الأستاذ حسن البرقاوي**"، ضمن كتاب: حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية). ط١: وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م.

٥٢. **القاسمي**، ظافر: **مكتب عنبر (صور وذكريات من حياتنا الثقافية والسياسية والاجتماعية)**. ط١، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، بلا تاريخ.

٥٣. **قدري**، أحمد: **مذكراتي عن الثورة العربية**. ط١، مطابع ابن زيدون، دمشق، ١٩٥٦م.

٥٤. **القضاة**، هاشم: "**سقياً لأيام البرقاوي**" ضمن كتاب: حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية)، ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م.

٥٥. **القطان**، إبراهيم: "**أعلام التربية: الدكتورة مونتسري: ١٨٦٩-١٩٥٢م**"، مجلة رسالة المعلم، وزارة التربية والتعليم، الأردن، ١٩٥٨م.

٥٦. **القلقشندي**، أبو العباس أحمد بن علي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م): **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**. مصورة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة عن الطبعة الأميرية، بلا تاريخ.

٥٧. **الكتاب الأسود في القضية العربية الأردنية**. ط١، مطابع دار الأيتام، القدس، ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م.

٥٨. **كرد علي**، محمد: **المذكرات**. طبعة مصورة، دار أضواء السلف، الرياض، بلا تاريخ.

٥٩. **الكركي**، خالد: "**العودات والبرقاوي والغول**"، ضمن كتاب: حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية). ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م.

٦٠. **الكرملي**، أنستاس ماري: "**الاعتصار أو التشنج**"، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٣٢٩هـ/١٩٢١م.

٦١. **المجالي**، عبدالسلام: **رحلة العمر من بيت الشعر إلى سدة الحكم**. ط١، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ٢٠٠٣م.

٦٢. **محاسنة**، محمد؛ **الطراونة**، محمد؛ **الطراونة**، سليمان، **الكركي**، خليل، **مدرسة السلط (سيرة ومسيرة)**. ط١، عمادة البحث العلمي، جامعة مؤتة، الأردن، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

٦٣. **محافظة**، علي: **الفكر السياسي في الأردن (وثائق ونصوص ١٩١٦-١٩٤٦م)**. ط١، مركز الكتاب الأردني، عمان، ١٩٩٠.

٦٤. **المشيني**، سليمان: "**في الذكرى الأولى لوفاة أستاذ الجيل حسن البرقاوي**" ضمن كتاب: حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية). ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م.

٦٥. **المطوي**، محمد الهادي: **أحمد فارس الشدياق (حياته وآراؤه في النهضة العربية الحديثة)**، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٩م.

٦٦. **ملكاوي**، فتحي حسن: **مقابلة شخصية مع فتحي حسن ملكاوي في مجمع اللغة العربية الأردني** بتاريخ ٢٠٢١/٩/٥م.

٦٧. **موسى**، سلامة: "**اللغة الفصحى واللغة العامية ورأي السير ولكوكس**". مجلة الهلال، تموز، ١٩٢٦م/١٣٤٤هـ.

٦٨. **الناعوري**، عيسى: "**المعلم حسن البرقاوي في ذكراه الرابعة كان أنموذج المعلم المثابر**"، ضمن كتاب: حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى وتحية). ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م.

٦٩. **النمر**، إحسان: **تاريخ جبل نابلس والبلقاء**. ط١، مطبعة النصر، نابلس، ١٩٦١م.

٧٠. **هاشم**، كاسد مصطفى: **شباب الأردن في الميزان (مساجلات الملك عبدالله ابن الحسين وعبدالحليم عباس)**. ط١، عمان، ١٩٧٩م.

٧١. **وثائق وزارة التربية والتعليم في الأردن**، الموظف **حسن البرقاوي**. إضبارة رقم ٥٨/١١.

٧٢. **اليازجي**، إبراهيم: **لغة الجرائد**. ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ٢٠١٧م.

٧٣. **ياسين**، عبدالحميد: "**معلمونا ثلاثة...**"، ضمن كتاب: حسن البرقاوي (المربي والإنسان... ذكرى ومحبة). ط١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ١٩٩٠م.

قراءة في كتاب
(تاريخ الطب الحديث في الأردن وفلسطين منذ القرن التاسع عشر)(*)
للدكتور كامل العجلوني، عضو المجمع
١٤٤٢هـ / ٢٠٢١م

الأستاذ الدكتور موسى الناظر
عضو مجمع اللغة العربية الأردني

مقدمة

توقفت مليّاً منشغل التفكير باحثاً عن إجابات لتساؤلات تمنح إذناً لتلبية رغبة في التعبير عما تولد من قراءة الكتاب وتزاوج مع ما ورد فيه من قصص وحكايات تعبّر عن الإنسانية في الطب وعند الأطباء.

ما شأن "قراءة في كتاب" بمجلة رصينة المحتوى متخصصة في بحوث اللغة العربية تخضع لتحكيم بمعايير غير هينة.

هل أبدو متطفلاً على مائدة كاتب جهد وعانى في إعداد كتاب وأنا بدوري ألبسه ثوباً أخيطه على مقاسي. هل لي ادعاء إنجاز بني على إنتاج غيري.

لكن المناسبة سرعان ما سمحت وأنحت جانباً كل تردد وتساؤل، تلك هي مناسبة المئوية للدولة الأردنية العزيزة، فالعدد من مجلة المجمع مخصص لها، والكتاب صادر احتفاءً بها، وموضوع مجلداته الثلاثة يلامس أهم ما يملك الإنسان، صحته، وكاتبه عضو عامل في مجمع اللغة العربية الأردني وصانع لأحداث في

(*) نظراً لإسناد هذا المقال على كتاب واحد بمجلداته الثلاثة، ولتعدد مواقع الإسناد رأيت أن أشير إلى المواقع بكتابة رقم المجلد يتبعه رقم الصفحة كما في المثال التالي: (١ ص١٥) حيث في المتن يدل الرقم (١) على رقم المجلد والرقم (١٥) على رقم الصفحة.

تاريخ الطب ومساره. كل هذه وأكثر شكلت ما يبرر دعوة مشاركة قراء المجلة في نظرتي لبعض محتواه، وسرعان ما استجبت لدعوة الأخ الدكتور خالد الكركي رئيس المجمع بأن أقوم بالمهمة هذه.

لغتنا العربية بشموخها يتفاوت المتحدثون بها كفاءةً، وفي ضوء محدودية كفاءتي فيها أعتذر للقارئ إن لم أكن قد بلغت المستوى المأمول في مجلة المجمع.

يستأثر الوجه الإنساني لمهنة الطب وممارسات الأطباء في هذه القراءة بالاهتمام، فالأطباء هم بمنزلة الأنبياء، يعالجون الإنسان عقلاً وجسداً وروحاً. في ذاكرة الطفولة لا زال يسكن وصف الطبيب بـ"الحكيم" لما كان

يملكه من السمات آنذاك، وتلازمني أمنية أن يسمى التخصص بـ"الطب الإنساني" عوضاً عن "الطب البشري" لعلّ في ذلك ما يصحح انحراف مناهج الدراسة في هذا التخصص ويفرد للإنسانيات فيها مكاناً.

ليس مبتغى ما أنا مقدم عليه من قراءة في هذا الكتاب مراجعة تجول في ثناياه ترصد ما تميّز به من محتوى مدحاً أو نقداً أو تعليقاً، وليس بملخص تضيق بكلماته صفحات، إنه جولة في حقول زاخرة بالمحاصيل نقطف بعض قصص وحكايات لرواد طب أوائل استوعبتهم حاجة الإنسان لرفع الألم ومعالجة المريض قبل المرض، يكتسون بثياب من الإنسانية والعطاء. نعايش آخرين حققوا برؤاهم وعزيمتهم من ضائق الأحوال معجزات. نسير على درب التطور لنشهد مفاخر من الإنجازات، نكشف عن بعض العثرات، أسباباً وعلاجات، كل هذا نراه في إطار إنساني لا يحده شح مال ولا سوء حال.

المؤلِّف والمؤلَّف

كتاب في تاريخ الطب، مؤلفه طبيب وباحث متميّز تجاوزت معرفته مهنته، أبحر في محيط تاريخها لتجمع شباكه ثروات من المعلومات والوثائق، أعد بها في ثلاثة مجلدات مائدة حافلة شاملة لكل ما له مساس بالطب والأطباء على امتداد قرون من الزمن، فما شأن من ليس بمؤرخ ولا بطبيب ليسجل من هذا العمل الضخم قراءة بحثية تحتل مكاناً في مجلة متخصصة في اللغة العربية.

في بحثه الدؤوب في أرشيف الجامعة الأردنية ذي العلاقة بتأسيس كلية الطب فيها غزا الدكتور كامل ذاكرة بعض أعضاء أول مجلس كلية لها، وكنت أحدهم، فاستبان من خلال أسئلة محددة هادفة بعض ما عايشته خلال تلك المرحلة التأسيسية، وباستجابتي سرعان ما تنامت العلاقة بما يكتب ويؤلف. اصطياد المعلومة واستقطاب صاحبها ميزة من ميزات الدكتور كامل يتسلح بها كلما شرع في بحث عن معلومة، فقدرته في المتابعة الحثيثة، والإصرار والتصميم في السعي وراء المعلومة من أوثق مصادرها، فائقة. وبهذا الأسلوب من البحث تمكن من جمع كم هائل من الوثائق النادرة والبيانات الكاشفة واستمد معلومات من مئات الكتب والمراجع، واستكتب العشرات ممن عايشوا الأحداث وشاركوا في صنعها، وعقد العديد من المقابلات، واستبان آراء كل صاحب صلة. ولم يترك مؤسسة إلا غزاها ليزيل الغبار عن مدفونها.

جهود مضنية، دامت لعقد من الزمن، أنتجت المجلدات الثلاثة، قد يتساءل المتصفح لها هل هي في التاريخ أم في الاجتماع، في الطب أم في السياسة، في تعليم الطب أم في ممارسته، في الخدمات الإنسانية أم في الحملات التبشيرية، في سيرٍ ذاتية لرواد الطب وأعلامه أم في قصص وروايات عايشوها. هو كل ذلك وأكثر، مزيج متناسق يجد راحته في أي ركن من أركان مكتبة.

لم يشكل العنوان: "تاريخ الطب الحديث في الأردن وفلسطين منذ القرن التاسع عشر" قيداً على الدكتور كامل إذ لمس الحاجة للذهاب إلى ما هو أبعد في التاريخ لكي يكشف عن الجذور التي أنبتت حال الطب وصحة المجتمع فيما بعد، وهو في كشفه هذا استحضر من وثائق نادرة، جَهِدَ في الوصول إليها، العلاقة الوثيقة بين الصحة والسياسة، واعتماد الغزو التبشيري الأجنبي الصحة سلاحاً لتثبيت أقدامه في المنطقة، وأزال الغطاء عن مخططات تقويض الحكم العثماني لخدمة أهداف بعيدة المدى أدت إلى تمكين الصهيونية في أرض فلسطين.

الطب التبشيري

ليس مستساغاً أن نمتدح نشاطات الجمعيات التبشيرية الأجنبية، ولا أن نرضى بأهدافها الأساسية، إن كانت تبشيراً لديانة أو تيسيراً لاستعمار، لكن خدماتها الطبية، في وقت لم يكن في البلاد غيرها، جديرة بالتقدير، لا يُغض النظر عنها.

الطب مهنة عالمية، والطبيب ملك للإنسانية، إن مسَّت حاجة في مكان، لا يعيق وصوله حاجز ولا جدران، ولا عتمة ليل أو قساوة طقس، لا يصده عداء بين جيران، ولا صراع بين بلدان، أَلَمُ المرض يوقظ الإحساس بإنسانية الإنسان أينما كان. والجرح الدامي يستدعي كل إسعاف، في الأديان حماية الجسد عبادة وإهانته جريمة، فالتاريخ يحدثنا بما ليس بقليل عن بذل كل جهد في إنقاذ جرحى أعداء، سلوك سائد عند كل الشعوب، لكنه غير خال من استثناء، نشهد أبرز استثناء وأقساه في عقيدة الصهيونية، الساعية للإبادة لا للإنقاذ، ولن تمحى من الذاكرة مشاهد منها إقدام المستوطنين والجند الصهاينة على اغتيال جريح ينزف دماً على ثرى أرض وطنه(*)، ولا تدمير مستشفيات وتقطيع أجساد أطفال.

(*)الإشارة هنا إلى المستوطن الجندي الإسرائيلي أزاريا الذي أفرغ رصاص بندقيته في رأس المواطن عبدالفتاح الشريف في مدينة الخليل في فلسطين المحتلة، ونتيجة لتداول شريط الجريمة حكم عليه بالسجن تسعة عشر شهراً أفرج عنه بعد قضاء تسعة أشهر منها "الحسن سلوكه" بطلاً غمر بالجوائز والهدايا وأصبح أيقونة للمستوطنين.

المرجع: Elor Azaria: From Killer to 'King', Leading life of luxury in Israel (Middle East Eye, 29 August 2018)

وفي السياق نشهد استهداف المحتل الصهيوني صحة المواطنين وتعليمهم وخاصة في القدس الشريف ضمن خطة تهجيرهم والاستيلاء على مؤسساتهم والسيطرة على مستشفياتهم وتحويلها إلى ثكنات عسكرية، ونقرأ في الكتاب (١ص١٢٠) ما رواه مواطنون عن جهود غير عادية لإنقاذ مستشفى المقاصد الذي شيدته جمعية المقاصد الخيرية، إذ كان يوم احتلال القدس مكتمل البناء، تنقصه التجهيزات، فاستغل الاحتلال وضعه وموقعه المميز ليُعلنه منطقة عسكرية يُمنع الدخول إليها، فتداعى مسؤولو الجمعية وأطباء من مستشفى القدس الخاص المُقام في ضاحية بيت حنينا لإنقاذ مستشفى المقاصد من براثن الاحتلال، ففي عتمة الليل وبالرغم من حظر التجول وتعدد الحواجز تمكنوا من نقل محتويات مستشفى القدس، بعضها على ظهور الدواب، وشكلوا طاقماً من الأطباء والممرضات، واستدعوا بعض أناس للتظاهر كمرضى، كل ذلك ليبدو أمام المحتل مستشفى عاملاً منذ زمن، وبهذه الجهود الفذة تم تحرير المستشفى من براثن الاحتلال ليبقى ويتطور إلى أهم صرح طبي فلسطيني في الأراضي المحتلة.

ما من شك أن القائمين على الجمعيات التبشيرية ومؤسسيها كانت دوافعهم دينية وسياسية، لكن العديد ممن عملوا في الميدان من أطباء وممرضين وممرضات جاؤوا إلى البلدان تلبية لنداءات إنسانية تملكت أحاسيسهم فقضوا مدة من أعمارهم يعايشون المرضى ويكافحون الأمراض، يعيشون حياة بعيدة عن ترف بلادهم، ويتأقلمون مع بيئات مليئة بالتحديات، يزرعون المستشفيات والمستوصفات في حقول شائكة، خالية من خدمات صحية. إن كان يستهدف من تأسيسها التبشير إلّا أن تاريخها حافل بالمواقف الإنسانية إذ يبقى إحساس الإنسان بحاجة المريض

مسيطراً على عمل الطبيب، فكلما ازداد تفاعله مع المرضى تعزز ذلك الإحساس، حتى نحو الأعداء.

في بداية القرن العشرين نرى المستشفى الإنجليزي في السلط كأول ولادة مستشفى في الأردن، تديره الإرسالية الإنجليزية، ثم يتمدد لينبت مثيلاً له في عمان، ويتزايد نشاطه مع وعي السكان وثقتهم بالمعالجة الطبية والمعاملة الإنسانية لطاقمه، ويضيق المكان بالمرضى فيحمل الأطباء والممرضون متاعهم الطبي من أجهزة تعقيم وصناديق أدوية ويزورونهم في بيوتهم (١ ص١٥٢)، وعلى سبيل المثال تورد التقارير أن عدد الزيارات المنزلية التي قامت بها رئيسة المستشفى الطبيبة شارلوت برنل عام ١٩٣٥ بلـــغت ٣٨٩ زيارة في منـاطق عمـان (١ص١٥٤).

وفي موقع آخر من عمان تأسس وترعرع المستشفى الإيطالي بجهود الطبيب فاستو تيزيو، واستدام في تأدية خدمة طبية بصبغة إنسانية حتى يومنا هذا. نرى في مؤلَّف الدكتور كامل (١ ص١٥٥) كشفاً عن الوجه الإنساني للمستشفى وكادره في كلمات للكاتب عبدالرحمن منيف في كتابه "سيرة مدينة": "ففي تجويف، كالحضن، وسط جبل الأشرفية كان ينزرع المستشفى الإيطالي وسط حديقة كبيرة من أشجار الصنوبر والسرو، حين يسقط المطر يتألق بحجارته البيضاء، وبامتدادها العريض، وكأنها طائر ضخم فَرَدَ جناحيه، هذا عدا عن الزهور الجميلة في المقدّمة والمداخل. يشبه الدكتور الطلياني واحداً من الكهنة القدامى: طويل مملوء له لحية قصيرة، مشذّبة، يرتدي باستمرار مريولهُ الأبيض وتتدلّى على صدره السماعة الطبِّيَّة. لم يكن يُرى وحيداً، فغالباً ما تكون حوله مجموعة من الراهبات الإيطاليات اللواتي يظهرن بثياب بيضاء وكأنهنّ في معبد أو إلى جانب أحد

الكهنة. بعد أن يكمل فحوصاته، أو بعد أن يُجري عملياته، وكان جراحاً بارعاً، تتولّى الراهبات الباقي؛ إذ يشرحن للمريض حالته، وما يجب أن يفعله أو أن يمتنع عنه، كانت طريقتهنّ في الشرح والتوضيح تثير المرح الذي يصل في بعض الأحيان إلى حدّ الضحك، كلُّ ذلك من خلال لُغة عربيّة مُكَسَّرة، وحين لا تكفي، يلجأن إلى الوصف أو التمثيل، وكان ما ينقل عن هؤلاء الراهبات من الكلمات أو الحركات يملأ جزءاً من السّهرات، الأمر الذي ينسي المريض الألَم بعضَ الشيء ويخفِّف عن أهله في الوقت نفسِه".

في قلب مدينة القدس وفي مختلف المدن الفلسطينية يطلعنا الكتاب على العشرات من المستشفيات والمستوصفات ذات الصلة الأجنبية، والمعظم منها لم يعد ثوب التبشير أو السعي وراء السيطرة السياسية يكسوه، وانشغل في تقديم الخدمة الطبية في ظروف احتلال قاسية، يبرز من بينها مستشفى المطلع (اوغستا فكتوريا) الذي تميّز بتقديم الخدمة الطبية للاجئين الفلسطينيين والعناية المكثفة للكبار والرعاية التمريضية طويلة الأمد، كل ذلك في إطار العمل الخيري والطب الإنساني (١ ص١٠٠).

وفي عمان تأسس مستشفى عام ١٩٤٩ على أثر النكبة الفلسطينية (١٩٤٨) ليس له صلة تبشيرية وإن حمل اسماً أجنبياً "مستشفى لوزميلا" بمساهمة من محسن فرنسي، ورعته وطورته وأدارته أيد أردنية ليدوم مقدماً خدمة طبية مميزة إلى يومنا هذا (١ ص٥٣٢).

تبقى سمة التبشير ملازمة لكل من أسس وأدار وعمل في مستشفى تابع لجمعية أجنبية، وإن استوعبت الخدمة الطبية جلَّ وقته، لكن هنالك شخصيات امتزج تفانيها الديني والطبي والإنساني، تتجه لها الأنظار لتقوم بمهام يعجز عنها

كثيرون. واحدة من هؤلاء نقرأ في الكتاب عن سيرتها هي الدكتورة شارلوت بيرنل (٢ ص١٩٧)، المؤهلة تأهيلاً طبياً عالياً، والملقبة بالست العرجاء، إشارة لعاهة أصابتها أثر تعثر حصان تمتطي ظهره في تجوالها لأداء مهامها، أرسلتها جمعية الإرسالية الكنسية الإنجليزية، البروتستانية المذهب، إلى فلسطين عام ١٩١١م، في مهمة طبية تبشيرية. تجولت في أنحاء فلسطين والأردن مؤسِّسة المدارس الطبية والعيادات النسائية ورئست المستشفى الإنجليزي في عمان، عاشت حياتها في هذه البلاد حتى وفاتها عام ١٩٤٤م ودفنت في القدس.

مع أوائل الرواد المؤسِّسين

وضع الدكتور كامل بين أيدينا كتاباً من مجلدات ثلاثة إن كان وزن أوراقها قد تجاوز ستة كيلوغرامات فإن محتواها من البيانات والمعلومات والأفكار والتحليلات والسير والصور والكثير غيرها لن يحيط به أي مقياس. لم يأت بالأحداث إلينا، نراها ونقيمها بمعايير حاضرنا، بل ذهبنا معه إلى المكان والزمان والإنسان. لمسنا يوم تأسيسها حرص الدولة على صحة مواطنيها، وسعت للعناية بها ليصبح شعار بانيها فيما بعد، جلالة الحسين بن طلال "الإنسان أغلى ما نملك" فاستدعي لإدارة الصحة وتأسيس الخدمات الطبية في الإمارة، الدكتور حليم أبو رحمة، أحد أكثر أطباء فلسطين تأهيلاً وكفاءة وخدمة مميزة (٢ ص١٢٩)، لبّى الدكتور حليم الدعوة، مؤكداً أن شؤون الصحة والحياة مشتركة بين الأردن وفلسطين، ومدى متانة العلاقة بينهما، وقضى أربعة عشر عاماً مؤسساً ومديراً ومشرعاً ومنظماً للخدمات الصحية وبانياً للعيادات والمستوصفات، وواضعاً الأسس لنطورها. وأنشأ المستشفى السيار ليوصل الخدمة الطبية لمن لا يستطيع الوصول إليها. عمل الدكتور أبو رحمة في ظروف غير هينة تزدحم فيها التحديات.

نتعرف على الدكتور جميل التوتنجي (٢ ص١٤٣)، أول طبيب أردني، قضى كل حياته العملية في خدمة الصحة في بلده الأردن قبل الإمارة وبعدها، تولى شؤون الصحة خلفاً للدكتور حليم أبو رحمة مديراً ووزيراً، وتولى في الدولة عدداً من المناصب العليا، وضع الممارسة الطبية على أسس علمية، وعزز لدى العامة الثقافة الصحية. مساهماته كبيرة وكثيرة في الخدمات الإنسانية. أسس العديد من الجمعيات الاجتماعية والخيرية والطبية، تميّز عن أقرانه بأبحاثه العلمية، منشورة في كبرى المجلات الطبية.

نستمع إلى الدكتور التوتنجي يروي لنا قصصاً عن وقائع صحية وطبية تعامل معها (١ ص٢١٠) تكشف عن حالة مجتمع ما قبل الإمارة وما تأصل في عقول أفراده من معتقدات نحو الطب والأطباء وعن ممارسات تكرس المرض وتودي بحياة المريض. أحد مشايخ البدو يدخل العيادة ويرفض الإجابة عن أسئلة تشخيصية ومعاينة طبية، مطالباً بإصرار بفتح الكتاب لتبين نوع المرض وإعطائه حجاباً. وشيخ آخر جاءه يشكو من صداع تبين أنه عصبي المنشأ، "فوصفت له شراباً وأوصيته بأن يأخذ منه ثلاث ملاعق كبيرة كل يوم إلى أن ينتهي العلاج، وإذا لم يشفَ فعليه أن يراجعني مرّة ثانية، وكانت الوصفات غير الموجودة في صيدلية عيادتي تُصرف من صيدلية في عمان، وقد ظننتُ أنه سيصرف الوصفة، كما ذكرت. ثمّ إنّ ذلك الشيخ راجعني بعد ثلاثة أيام معترفاً بأنني حكيم طيّب وأن الصُّداع يكاد يزول، ورجاني أن أعطيه وصفة ثانية على أن يكون الحبرُ الذي أكتب به الوصفة أكثر من تلك المرة، فسألته عمّا إذا كان الصيدليُّ لم يتمكّن من قراءة الوصفة الأولى، فأجاب: أي صيدلي؟ وأي قراءة؟ لقد ذوّبتُ حبرَ الوصفة في كمية من الماء ثم تناولتُ ثلاث ملاعق كبيرة كل يوم، ولكنّ الدواء انتهى قبل أن يزول الصداع تماماً، لذا أرجو أن تعطيني وصفة أخرى محررة بحبر أكثر لكي

يدوم المحلول مدة أطول وأشفى من الصداع كلياً. وهكذا، ظن الشيخ أن الوصفة حجاب، ولم يكن أمامي إلا أن أعطيه وصفة ثانية كما طلب، وقد رجع بعد أسبوع والبِشرُ يعلو وجهه مقدماً الشكر معترفاً بالجميل، ومعه خروفان أهداهُما لي، وهكذا عاملني كما يعامل الشيوخ الذين يعطون الحُجب." (١ ص٢١١).

حال مجتمع كهذا كان محفزاً قوياً للدكتور التوتنجي ليكرس حياته الطبية في خدمة ناسه ونشر الثقافة الصحية بينهم، وجعل عيادته وموقع عمله في المؤسسة الصحية بالقرب من هذه المجتمعات. كان يقدم خدمةَ عامّةِ الشعب على خدمةِ النخبة فيه، ودوره في المؤسسات الخيرية والاجتماعية لا يبارى.

في عمان نلتقي مع الدكتور قاسم عبدالرحيم ملحس (٢ ص٢١٥) الذي ربط الطب بالكفاح الوطني منذ أيام الدراسة في الجامعة الأمريكية في بيروت مما أدى الى فصله من الجامعة قبيل تخرجه، وتواصل نشاطه الوطني في فلسطين ليلاحق من قبل الانتداب البريطاني ومن ثم يلجأ سياسياً إلى الأردن ويفتح عيادة في عمان، أصبحت تزدحم بالفقراء والمحتاجين من المرضى، ومنتدى سياسياً للشباب من الأحزاب الوطنية. "وفي عام ١٩٤٤ حين جُرح كبرياؤه الوطني؛ إذ منع من معالجة مريض له في ذلك المستشفى الأجنبي الخاص، آنذاك أقسم أن يرد الإهانة لا بانتقام صغير ولكن بإنجاز كبير، فقرر أن ينشئ مستشفى وطنياً يكسر الاحتكار ويؤكد قدرة ابن الأردن على الإنشاء والبذل في مجال صعب أو شبه مستحيل في ذلك الوقت.".

أوفى الدكتور قاسم لقسمه بأن وظف كل ما يملك في تأسيس مستشفى وتجهيزه، جهد في تأمين حاجته التمريضية، ولدوافعه الوطنية وراء تأسيس المستشفى تلقى الدعم من معارفه وأصدقائه، ولكونه سليل أسرة ضالعة في الخدمة

الطبية وفي الوطنية، ساندته زوجته، ممرضة ومساعدة لتلبية حاجته. وليستديم النهج الطبي الوطني في أسرته وجّه نجله الدكتور عبدالرحيم لدراسة الطب، وقد تعرفت عليه، زميلاً وصديقاً، حين بدأ الدراسة في الجامعة الأميركية في بيروت، وبعد سنوات من عمله في المستشفى عُيّن وزيراً للصحة.

عاش الدكتور ملحس حياة الناس ومعاناة كل بيت فيه مريض، يحمل حقيبته ليصل لكل مريض إن قرب مكانه أو بعد، مثُّل أبهى وجه لمهنة الطب وعمل الأطباء، ومارس العلاقة الأصيلة بين الطبيب والمريض.

مستشفاه، لم يحمل يافطة باسمه، كان موهوباً لخدمة كل محتاج، كان مستشفى الوطن، كان نموذجاً لكل المستشفيات الخاصة، رائداً وقائداً لكل تنظيمات عمل المستشفيات الخاصة، وميداناً للتعليم وتوطين الحديث من التقنيات الطبية والإدارية والتنظيمية، وكانت ساحته متنزهاً لمرافقي المريض، يقضون أيامهم في حدائقه، وبعد بلوغه ذروته في النصف الثاني من القرن العشرين وجد نهايته في القرن الحادي والعشرين، وفي وصيته بعنوان "كل نفس ذائقة الموت" كتب يقول: "الحياة فترة من الزمن لها بداية ولها نهاية مهما طالت هذه الرحلة الزمنية. الناس يحزنون عندما تنتهي الحياة ولكل من له رسالة وأمل في هذه الحياة عليه أن يعمل بجد وبصدق فيصل لتحقيق رسالته وآماله، فمن لم يستطع أن يحققهما يأسف الناس عليه عند مغادرته هذه الحياة، أما من حقق رسالته فلا أسف ولا حزن عليه. وبما أنني أومن وأعتقد بأنني حققت آمالي ورسالتي بصدق وخلفت من يحمل هذه الرسالة واستمرارها بصدق فإنني مرتاح القلب وها أنا أتقبل الموت بنفس راضية واطمئنان مؤمناً بأني لم أسعَ لضرر، ولم أعمل إلا كل خير ما استطعت وأني مؤمن بالصدق وعدم إيذاء الغير فوصيتي لكم يا أبنائي وبناتي وأقرب الناس إلي

أن لا تحزنوا على فراقي وكما كنت أعمل الخير بالسر أحب وأرغب أن يكون موتي سراً دون علانية. وكما كنت في حياتي بسيطاً جداً أريد أن يكون مماتي بسيطاً مثل ممات أبسط مخلوق." (٢ ص٢١٨).

ما لامسته هذه الإطلالة عن طب البدايات يعجز عن الوفاء بالمرصود في مؤلف الدكتور كامل، والمقصد منها والتوجه فيها هو الكشف عن الوجه الإنساني للممارسات الطبية، التي فيها تسبق العلاقة مع المريض وطالب الحاجة الطبية العلاقة مع المرض. كانت حواس الطبيب هي أجهزته الطبية، وكلماته تعزز دواءه.

وقبل مغادرتي هذا الموقع من المقالة أستحضر ما رأته عيني في الكتاب وأثار اهتمامي: وثيقة "سجل مواليد الداية الحاجة أنيسة شقير من عام ١٩٣٢ إلى عام ١٩٧٨، عدد المواليد ٦١١٤ مولود" (٣ ص٣٤٢)، نقرأ فيه، بخط يدها، اسم المولود واسم أمه واسم أبيه وتاريخ ميلاده، ونتساءل هل تملك مؤسسة معنية بالمواليد ما هو أفضل؟

بهذه الإنجازات وفيض من مثيلاتها التي سكنتْ بين دفتي مجلدات "الطب الحديث" عَبَرَ الأردن من بدائيات الطب وبداياته وأساساته الأولية في عهد الإمارة إلى الإنجازات وتطوير المؤسسات في عهد المملكة، ونرى منها ما لا حصر له ونقضي وقتاً مع بعض مما زخر به سجل الرواد البناة.

وفي ما يلي بعض منها:

الرواد البناة

الريادة ممتدة لا يحدها زمان. صلتها بالأعمال، فيها تعبير عن أفضل ما يميز الإنسان، هي إدمان عند متيقظ الحواس، مجساته لا تنام، بصيرته تدرك ما

يلفه الظلام، عقله يرى ما لا يراه الأقران، جرأته وثقته تمكنانه من تحقيق الأحلام، لا يخشى الفشل في العمل، يعمل في المجهول، يكشف ويستكشف، فالعادي عنده غير مقبول.

الريادة لا تقتصر على البدايات، فكلما تولدت حاجة تهب رياحها ويتقدم إلى الخط الأمامي أناس يحملون لواءها، بعزيمتهم وقناعاتهم وجرأتهم، وأحياناً حسن حظهم، (الحظ يخدم العقل المتأهب) يحققون إنجازات رآها كثيرون في ركن المستحيلات.

مسيرة الطب في بلادنا، كما نقرأها في مجلدات "الطب الحديث" زاخرة بها. نجد فيما سجله الدكتور كامل بالتفصيل ما كان أحلاماً عند رواد تحققت في ظل شح الإمكانيات. وتحت شعارهم "نقرر ثم نتدبر" تحققت صروح طب أكاديمية ومستشفيات بمعايير عالمية.

في أولى جولاتنا للقاءات مع البناة ندخل بوابات الحرم الجامعي، قبل أن تصبح إلكترونية، ونبحث مع الدكتور كامل في تأسيس كلية الطب فيها وما تبعها من العلوم الطبية، ولنا أمثلة في جهود بعض الرواد من مؤسسيها.

في الجامعة الأردنية لن يتقدم أحد على الدكتور عبدالسلام المجالي فيما حققه من إنجازات أكاديمية وطبية (٢ ص٢٤٠)، ولا يختلف اثنان أن تشكُّل مكونات الجامعة الأردنية لم يكن له أن يكون لولا جهود الدكتور عبدالسلام.

أثره منتشر على مساحة الوطن، إن كان في الطب ومؤسساته أو في التعليم وتطوراته، أو في السياسة وأعلى مناصبها، ومن يود أن يلامس بعض منجزاته في الطب وحده ما عليه إلا أن يتصفح فهرس أعلام كل من مجلدات

"الطب الحديث" ليرى إشارات إلى عشرات المواقع التي ترشد إلى علاقاته وإنجازاته الطبية. له مع تأسيس كل معلم وصرح طبي مكانة تكشف رؤاه المستقبلية، ومرهف حسه في اقتناص الفرصة لإنجاز كبير، تتمثل فيه مقولة "الحظ يخدم العقل المتأهب". ما إن تبوأ منصب رئيس الجامعة الأردنية في صيف عام ١٩٧١ حتى تقرر إنشاء كلية للطب فيها، وأن يقبل طلبة للتخصص فيها في العام التالي. لم يكن يتوفر آنذاك أي من مقومات دراسة الطب، فلا مبنى، ولا أعضاء هيئة تدريس، ولا مختبرات، ولا هيئة إدارية، كان هناك قائمة بأسماء الطلبة المقبولين.

مَثّل هذا الوضع استراتيجية متأصلة لدى رئيس الجامعة "نخلق القضية ثم نعالجها"، لم يكن هذا سلوكاً عشوائياً بل كان ينبع من قناعة بإمكانية النجاح اعتماداً على ما هو كامن في قدرات من يتولون التنفيذ، وعلى دعمه لهم بكل ما يتوفر لديه "نقرر ثم نتدبّر".

وُضِعَ أمر التأسيس للكلية في أحضان أقسام كلية العلوم، حيث التحق الطلبة المقبولون بنيّة التخصص في الطب بالجامعة كطلبة لكلية العلوم لمدة سنتين، وكان معظم أعضاء مجلس كلية الطب الأول هم من كلية العلوم. كنتُ أحد أعضائه. ولي أن أستحضر الموقف التالي لأجل دلالاته الإيجابية:

في اجتماع مع الرئيس حضره مدير مكتب الهندسة عطا الله دواني، عرضت أثناءه الحاجة الماسة لتوسعة مبنى الكيمياء وربط ذلك بنجاح مسار تأسيس كلية الطب، وكان مطلب القسم ينحصر ببناء توسعة بجانب المبنى القائم تتكون من طابقين، أحدهما لمتطلبات السنة الأولى والآخر لمتطلبات السنة الثانية، كنت أتوقع التردد في الموافقة إلى درجة الرفض في ضوء عدم وجود موازنة تسمح في الشروع بالبناء، لكن رغبت في أن يكون الرئيس مطلعاً على الحاجة لعلّه في

يوم ما تتهيأ الفرصة للتنفيذ. بعد برهة من الصمت نظر الرئيس إلى المهندس وخاطبه: يا عطا الله خططوا لبناءٍ من ثلاثة طوابق، أدهشني توجيهه هذا، شكرت الرئيس وتساءلت: طلبنا طابقين وتوقعنا مساومة على أقل من ذلك وتفاجِئُنا بزيادة طابق، فأجابني بالقول: عندما أقرر تأسيس كليات أخرى بعد ذلك ستأتيني بدراسة تطالب من خلالها ببناء جديد آخر، خططوا الآن لما تحتاجونه غداً! أكد هذا الموقف سعي الدكتور عبدالسلام للتوسع في تأسيس الكليات العلمية ذات الصبغة المهنية، وهذا سرعان ما تحقق للعديد منها.

قراءة في الكتاب ومعرفة بالدكتور عبدالسلام تكشفان عن امتلاكه عقليتين في رأس واحد، واحدة عسكرية وأخرى مدنية، تعملان بتناغم ورؤية مشتركة مُؤَداها الرقي بالطب علماً وممارسة، وتوفير العناية الصحية لكل مواطن. اجتماع السلوكين بما يتميزان به في شخص الدكتور عبدالسلام هو تعبير صادق عن التعاون والتعاضد بين المؤسستين العسكرية والمدنية، ليس في الطب والصحة فحسب، بل وفي مختلف شؤون الحياة.

ما رأيناه في الجامعة الأردنية من مزايا الدكتور عبدالسلام يعكس نهجه في تأسيس أكبر صرح من صروح الخدمة الطبية، "مدينة الحسين الطبية". كان إنشاء مستشفى حديث في القوات المسلحة، يخدم أفرادها وعائلاتهم مطلباً حمله منذ يومه الأول، طبيباً في المستشفى العسكري، المتواضع، والمكون من بضعة أبنية بسيطة في تشكيلها وتجهيزها. شح الإمكانيات وتردد المسؤولين أرقد المطلب في بيات دام سنين، لكنه لم يغادر موقعه في سجل أحلام الدكتور عبدالسلام، بل كبر وازداد تأصلاً.

تطور الطب على مدى السنين وتعزز المستشفى العسكري بأطباء اختصاصيين في مختلف التخصصات وتوسعت خدماته وازداد الإحساس لدى الدكتور عبدالسلام بضرورة مكان مميز ولائق يمارس فيه ثلة من النخب الطبية تأهيلهم وإمكانياتهم. بدأ الحلم يلامس الحقيقة، وبدأ الضياء ينير الطريق خلال عقد الستينيات من القرن الماضي وأثناء قيادته للخدمات الطبية الملكية، ومن صندوق خاص لا تحكمه ميزانية الدولة، تودع فيه واردات خدمات متفرقة تقدمها القوات المسلحة، من أوفرها ما تمكن الدكتور عبدالسلام استخلاصه مقابل خدمات قدمتها القوات المسلحة للشركة التي نفذت تصوير فيلم "لورنس العرب" في البادية الأردنية، بدأ تمويل إنشاء مدينة الحسين الطبية.

ما إن نهضت كلية الطب الأم، المسماة على غير ما أود بـ"الطب البشري" حتى تحرك في رحمها حَمْلٌ لعدد من الكليات "الطبية المكملة": طب أسنان وصيدلة وتمريض وتأهيل، ولادتها لم تكن بأعسر من أمها، تمت في ظروف مماثلة: لا مال ولا مكان ولا هيئة تدريسية، إنما عزيمة قوية ورؤية مستقبلية وطلاب على الأبواب، سارت على درب أمها. واحدة منها تطلبت ما لم تكن أخواتها بحاجة له. فالإقبال على الصيدلة وطب الأسنان كان جامحاً، والتنافس كان شديداً، لكن التمريض كان مكبلاً بنظرات مجتمعية خاطئة جعلت الإقبال عليه محدوداً، فما كان للدكتور عبدالسلام إلا أن قدم أسرته مثالاً يطيح به الحواجز ويفتح الطريق معبّدة لجذب الدارسين له، وخاصة الفتيات منهم، فعقيلته شكّل التمريض محور حياتها العملية، وشقيقته انشغلت في العمل الخيري ممرضة، وكريمته تصدرت المتقدمين لدراسته، وزاد على كل ذلك بتقديم حوافز للدارسين وأمن الوظائف للخريجين منه.

وبنظرة ناقدة لمنظومة التعليم الطبية بكافة مكوناتها أرى نقصاً بل خللاً في غياب "كلية صحة عامة"، ولعل سببه تقدير المجتمع للطب والدارسين له بأن مجاله وجدواه في العلاج لا في الوقاية، وبالرغم من ما هو دارج في أقوالنا: "درهم وقاية خير من قنطار علاج"، لكنه غائب عن ممارساتنا، ولعل ما نعانيه هذه الأيام من عصر الكورونا شاهد على ذلك. وبهذه المناسبة تجدر الإشارة إلى إعلان الماماتا (١ ص١٦٦) الصادر عن مؤتمر دولي عقد في مدينة الماماتا في الاتحاد السوفيتي عام ١٩٧٨، حضره وزراء صحة من كافة أنحاء العالم. وصاياه العشر تخص الصحة العامة وتصلح منهاجاً لكلية صحة عامة. كما أرى ضعفاً في مناهج الطب يتمثل بمكانة ثانوية لطب الصحة النفسية، نراه ينعكس في قلة الوثائق المدونة في كتاب "الطب الحديث". قد يرجع إلى ما يسود في المجتمع من نظرات سلبية وعزوف عن التخصص، لكن الباحث في السائد من الأمراض في المجتمعات الحديثة قد يرى الأمراض النفسية من أمراض العصر وبالخصوص بين الشباب في ظل فيض من الضغوطات والصدمات والمخدرات وغزو الوبائيات والخلويات!

تسكن في شمال البلاد كلية طب أخرى أنبتت بذورها ورعت طفولتها جامعة اليرموك، وبرؤية مستقبلية عمل رئيس تلك الجامعة الدكتور عدنان بدران على ابتعاث العشرات من المؤهلين الى أرقى الجامعات الأجنبية لدراسة التخصصات التي تبني هيئتها التعليمية. يفعت وبلغت الرشد بانتقالها إلى فضاء أوسع، ليس ببعيد، لتشكل مع كليات مهنية أخرى "جامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية" التي رئسها الدكتور كامل العجلوني ليرقى بها إلى مستويات عليا من التكوين والإنجاز.

مطلب الدراسة الطبية من التدريب والعمل الميداني فيها كان يتم تنفيذه في عدد من المستشفيات والمراكز الطبية في الجوار والتي أهلتها الجامعة لتأدية المهمة بكفاية وكفاءة لكن الحاجة إلى مستشفى تعليمي في الحرم الجامعي بقيت ماثلة (١ص٧١٧). وبدأ سعي الجامعة لتحقيق هذا الهدف منذ يوم تأسيسها. لأجل ذلك أعدت المخططات والمتطلبات الفنية، لكن أمواجاً من المواقف السلبية، رسمية أو شخصية أو سياسية، كادت أن تفرق الجهود التي بذلت، لكن الأمل بقي له بصيص واستدام لما يقرب من عقد من الزمن، إلى أن وضع جلالة الملك الحسين حجر أساسه عام ١٩٩٤. تفاصيل من المراسلات الرسمية والقرارات والتقارير والمقابلات التي عايشها الدكتور كامل يزخر بها كتابه هذا.

ككل فكرة جديرة بالحياة وتتمتع بإيمان عميق لا بد أن تتهيأ الأقدار لتنفيذها، فالإله يقف مع المؤمنين، والبذرة الصالحة تبقى في تربة تحتضنها حتى يأتيها الغيث فتنهض نبتة تنمو وتثمر.

سنحت الفرصة لتحويل حلم المستشفى إلى واقع يتشكل منه إنجاز يوم زار جلالة الحسين الجامعة مفتتحاً مبانيها الطبية. في تلك المناسبة لم يتقدم الدكتور كامل بنفسه ليلقي كلمة الجامعة، بل ترك المنصة لأحد أعضاء هيئة التدريس لينقل ترحيب الجامعة بالملك ويعرض حاجة أهل المنطقة لمستشفى، فنقلها بكفاءة عميد الدراسات العليا الدكتور عبدالمجيد نصير، عضو مجلس مجمع اللغة العربية الأردني، بقصيدة مبدعة أرى من المناسب استحضارها (١ ص٧٤٤):

ترحب فيك جامعة العلوم ... وتسعد يوم ميلاد الكريم
وتهتف يا حسين رعاك ربي ... نصير العلم والخلق القوي
وشعبك في الشمال يقول أهلاً ... بملك ماجد أبداً كريم
بنى للعلم صرحاً لا يبارى ... يشق عنانه نحو النجوم
بجامعة العلوم ترى المعالي ... يعانق جذرها أسمى النجوم
فهندسة العلوم لها شهود ... بما حازت من الشرف العظيم
هنا للطب صرح لا يبارى ... أعاد لأمتي صرح القديم
فذا الرازي بمستشفاه يمشي ... يداوي كل ذي ألم سقيم
ترى فيه ابن سينا وهو يزجي ... نصائحه من الدر النظيم
على أنّا ننادي نبض قلب ... نداء المستغيث من الصميم
نقول حسيننا يرعاك ربي ... تصد عن الشمال من الهموم
فطبٌّ دون مستشفى عجيبٌ ... غريبٌ لا يصدق من كليم
وملّيون هنا من دون مشفى ... أيقبل ذاك من رجل حكيم؟
سنسمع أمركم قولاً سديداً ... ليبنوا ما نريد من التخوم
بقولك نحن نبني لا كلالاً ... ونخدم أمتي ونقول دومي
ونشكر للحسين يداً عطاء ... تبارك يوم مولده الكريم

لم يقتصر التعليم الطبي على الجامعة الأردنية وعلى جامعة العلوم والتكنولوجيا، بل انتشرت ما أُسميها "حمى تأسيس كليات طب" في الجامعات الرسمية الأخرى. لم تكن، في تقديري، حاجة وطنية، بل رغبة مجتمعية، جامعات رأت فيها مورداً يسهم في معالجة عجز ميزانية، وأسر تطمح في ميزة اجتماعية ومادية، وبالمقابل كان لبعضها إسهامات إيجابية في رفع مستوى المهنة وتأهيل نخبة من الأطباء.

نطل من خلال صفحات الكتاب ومن خارج حرم الأكاديميات الطبية على صرح لا مثيل له في المنطقة، ذلك هو "مدينة الحسين الطبية"، قيادة عسكرية لكن

خدمات شاملة وطنية. تتجاوز الحدود إلى الإقليمية، لما يتميز به من خدمات نوعية، ولريادته في عمليات طبية لا تتوفر في عديد من غيره. تأسيسه يمثل ما ساد من نمط في تأسيس كبريات المراكز الوطنية الطبية وغير الطبية، إحساس رواد لحاجة مجتمع إنسانية. وتوليد مشروع لا يعيق تنفيذه شح المال، تحركه العزيمة، وتدعمه دوافع الخير عند الإنسان. نلتقي، بعد مؤسسه الدكتور عبدالسلام، بقائده الأول الدكتور داود حنانيا الذي بالتعاون مع فريقه المميز من الأطباء حمله إلى المراتب العليا من العالمية، وأصبح موطناً لكل أولٍ وجديدٍ من الإجراءات الطبية، فيه تعالجت قلوب وتجددت حياة مرضى.

ترى في الكتاب سيرة للدكتور حنانيا حافلة بإنجازات مميزة لا تمحى من ذاكرة التاريخ الطبي. بنى بتميزه وكفاءته وإنجازاته علاقة ثقة مع جلالة الملك الحسين، لم يستغلها لمنفعة خاصة بل كرسها لدعم المسيرة الطبية وتطويرها ورفع شأنها. اقترن اسمه بقيادة الخدمات الطبية الملكية. ليشكل مع الدكتور عبدالسلام المجالي عنوان سجلها الزاخر.

عادي لزائر عاصمة بلد أن يلحظ على مداخلها معالم تنم عن سمات مميّزة لأهلها، إن كانت منشآت تعانق السماء تكشف عن إمكانيات فذة في البناء، أو جنات وحدائق تعبر عن إحساس ساكنيها بالجمال والتفاني في حماية بيئة موطن. لكن القادم إلى عمان يرى على مدخلها بجوار معلمٍ علمٍ يعج بالساعين إليه، ما لا يراه زائر لأي بلد في أقطار الجوار، يرى مركزاً مميزاً في تركيبه ووظيفته، شُيّد بناءً وتجهيزاً من رصيد الخير والعطاء والإحساس الإنساني لناس بلده وتلبية سخية لنداء حاجة إنسانية، ذلك هو ما حمل ابتداء اسماً معبراً "مستشفى الأمل للشفاء" لكن بتطوره ونموه واستقطابه للهبات والمساعدات من داخل الوطن وخارجه أصبح يحمل اسم "مركز الحسين للسرطان".

قصة ولادته وإنشائه تأخذ موقعاً دالاً في الكتاب، (١ ص٧٥٨) نقرأ فيه عن شخصية وطنية كرست علمها وحياتها لقيادة أعمال الخير وإدامتها، الدكتور عبدالله الخطيب، رئيس اتحاد الجمعيات الخيرية لعديد من السنوات. إنشاء مركز متخصص في علاج أقسى مرض يصيب جسم الإنسان لا يأخذ، حتى في الأحلام، مكاناً في بلد بحجم الأردن في إمكانياته في كافة المجالات.

ولد المشروع من رحم معاناة إنسانية قاسية، تمثلت في فقدان الدكتور عبدالله الخطيب وحيدته، ابنته ديالا، أودى بحياتها خبيث الأمراض، بعد محاولات مضنية لعلاجها في داخل البلاد وخارجها، وسرعان ما صممت أُسرتها رسالة وهدفاً بأن لا تتكرر المعاناة لأي أسرة يحتاج طفلها لعلاج. وبهذا الهدف تحول الألم إلى الأمل.

حفلت مسيرة المشروع من يوم الوفاة عام ١٩٨٤ حتى يوم استقباله أول طفل عام ١٩٩٧، بشكوك ومعارضات رسمية شديدة وتحديات من ناحية، وبدعم منقطع النظير من مختلف القطاعات الشعبية من ناحية أخرى، وتَشَكّلَ لرعاية مسيرة التأسيس "الفريق الوطني لإقامة مركز الأمل للشفاء"، وقد مثّل جمع المال أكبر التحديات، الكلفة عالية والمؤسسات الرسمية عاجزة، بل معارضة، نلمس حدة المعارضة في تصريح لوزير الصحة آنذاك (١ ص٧٥٦):

"هناك من يرغب في توريط الأردن في مشروع لإقامة مركز للسرطان لا جدوى من إقامته، بالإضافة إلى أن إقامة هذا المشروع مكلفة للغاية بحيث يتجاوز العشرين مليون دينار، كما أن هؤلاء الأشخاص يريدون القيام بالأبحاث في مجال السرطان وهم غير قادرين على ذلك لأنها بحاجة إلى مئات الملايين من الدنانير".

تصدى اتحاد الجمعيات الخيرية لمسألة توفير الدعم المالي ونظم الفريق الوطني حملة جمع تبرعات فريدة من نوعها ومؤثرة دامت إلى يوم تشغيل المركز، تحت شعار "نحن نقوم ببناء مركز الأمل للشفاء، ساعدونا لإقامته. المالك: المواطن الأردني، الممول: نحن جميعاً".

ومن أرقى معالم حملات التبرع مبادرة التلفزيون الأردني لجمع التبرعات عبر الاتصالات الهاتفية، إذ فتح (استوديوهاته) لخمسين متطوعاً يستقبلون استجابات المتبرعين، ولما كان ذلك يوم جمعة، قام خطيب مسجد جامعة العلوم والتكنولوجيا، المهندس رائف نجم، وهو عضو في الفريق الوطني، بدعوة المصلين للتبرع، وقد كان الإقبال منقطع النظير استمر حتى وقت متأخر من الليل.

مبتغاي من استحضار هذه الصورة للعمل الإنساني التأكيد على نزعة الخير الكامنة عند الإنسان وأنها تظهر للعيان عند الدعوة لعمل يحمله بإخلاص أهل قدرة وثقة.

يطل على طريق الجامعة الأردنية وبجوارها معلم طبي متميز، بناؤه يجلب أنظار المارة، وانتظام المراجعين جلوساً في صفوف بانتظار دورهم للدخول إلى فنائه والتوجه إلى عياداته يشعر بالتزام لنظام يحكم سير العمل فيه، ذلك هو "المركز الوطني للسكري والغدد الصماء"، مؤسسه ورئيسه الدكتور كامل العجلوني، يزخر الكتاب بالوثائق والرسائل التي تصف مسار تأسيس لا يخلو من المعاناة والكثير من المواقف المشككة بإمكانية نجاح، لكن الصبر المديد وروح الكفاح، وتصدر مرض السكري في المجتمع، والكثير من صدق المبررات، حققت النجاح.

قطار "قراءة في كتاب" يعجز عن استيعاب كل الركاب، تجاوز العديد من كبير المحطات، ولعل مركبة لاحقة تفي بالمهمة، فما أوردته في هذه الورقة ليس إلّا بعض أمثلة من ذخيرة طبية إنسانية، لا تخلو من عثرات وتحديات لم يغض الدكتور كامل الطرف عنها، بل جمع كل ما خصها، وهي لا زالت ماثلة بانتظار رواد جدد، يحملون رؤية أسلافهم ويتسلحون بعزيمة وتصميم وبكثير من الجهد والتضحيات، (والحظ)، يزيلون صبغة المنفعة الشخصية وما لصق منها بالمهنة الطبية، لتبتعد عن الجيوب، وترى الثروة في سعادة تأتي من تلبية حاجة إنسانية وترفع الألم عن الإنسان لينعم بشفاء من مرض.

فيما تبقى من متسع في هذه "القراءة" أجد مناسبة لأن أعرض ما أراه في بعض من أهم شؤون الصحة والطب، ألا وهو التعليم الطبي.

فخرٌ وقلق

نشارك معالي رئيس الجامعة الأردنية، الدكتور نذير عبيدات، الفخر، مصرحاً في مقابلة إعلامية(*) بأن ٣٤% من خريجي كلية الطب الأردنية يعملون في الولايات المتحدة، ونضيف إلى هذه المعلومة ما علمناه بأن ١٩٠٠ طبيب أردني مسجل في النقابة، عنوان عملهم في دول أجنبية، ونقدر أن هؤلاء الأطباء قد بلغوا القمة في تأهيلهم وممارستهم.

تثير هذه الذخيرة الطبية الثمينة العديد من الأسئلة التي لا شك أنها استقطبت الكثير من التحليلات والإجابات التي يدور معظمها حول اتهام البيئة المحلية الطاردة، لعجز في تأمين حاجة علمية أو معيشية. لكنني أود في هذا المقام

(*) الإشارة هنا إلى مقابلة للدكتور نذير عبيدات في برنامج "صوت المملكة" على تلفزيون المملكة بتاريخ ٠٦-٠٩-٢٠٢١.

أن أتجنب حواراً خلافياً في هذه الحاجات وفي مسبباتها، وأسعى لأن أبني رابطاً بين مناهج التعليم الطبي بمختلف مكوناته الأساسية والسريرية والتدريبية، وبين توجهات الخريجين وممارساتهم.

أود ابتداءً أن أدفع بالسؤال: ما هدف الإنسان من دراسته للطب؟ هل هو تحد علمي يحقق رغبات في بناء إمكانيات علمية تجعل منه عالماً باحثاً تستوعبه الرغبة في رفع شأن العلم الطبي؟ هل هو تجاوب لإحساس بحاجة إنسانية تمس صحة أهل مجتمعه، يكرس علمه وقدرته (وأحياناً ثروته) في خدمة سامية تحقق له سعادة، لا مثيل لها، في رفع الألم عن إنسان وإنقاذ حياة. هل هو سعي لمكانة اجتماعية معززة بغزارة مالية ترفع شأنه وشأن أسرته إلى مرتبة يتفوق فيها على عامة أهل مجتمعه. في مثالية الهدف نجد لكل من هذه مكاناً. وبنظرة خاصة أرى في وضع ما نخرّج من أطباء عدم توازن بين هذه التوجهات، العلمية والإنسانية والمادية، وما ألمسه عند كثيرين سيطرة الدوافع العلمية والمادية على الإنسانية، وأعترف أن هذا ليس تعميماً مستنداً إلى دراسات موثوقة، بل هو إحساس شخصي لكن كثيرين يتحدثون به، وبدوري أتحيز للجانب الإنساني مقدراً أنه هو الذي يربط الطبيب بمجتمعه، وينمي انتماء يبقيه في خدمته.

بعد هذه الجولة في الأهداف يتوجب علي أن أكشف عما أراه من خلل في مناهج التعليم الطبي وأثر ذلك في توجهات الخريجين وفي سلوكهم وتحديد أهدافهم. عندما يلتقي الطبيب بمريضه، ويغلق باب عيادته، تستراً لما يدور بينهما، هو إنسان يتعامل مع إنسان بحاجة إلى علمه وإنسانيته، يتعامل مع إنسان لا مع جسد، هو باحث علمي يوظف طرق البحث العلمي السديدة ليكتشف بحواسه وأدواته مكمن المرض ويوصي بالعلاج، ويَعلم أن خطابه للمريض ونظراته هي نصف

العلاج وأكثر. كيف يكون لهذه الممارسة عند الطبيب مكان إن لم يكن في دراسته وتدريبه كمٌّ من العلوم والإنسانيات. في المعتمد من كليات الطب في الجامعات المرموقة لا يقبل في الطب إلا من درس لسنوات مساقات في العلوم والإنسانيات، لكن في جامعاتنا تتناقص هذه المواد سنة بعد سنة، في استعجال لأن يكتسي الدارس للطب بالمعطف الأبيض ويجول بين العيادات وأسرّة المرضى. الدارسون للطب يؤثرون بناء خبرة مهنية على تعزيز قدرة علمية تمكنهم من البحث والاكتشاف، هم خبراء أكثر مما هم حكماء!

أما انتماء الطبيب لوطنه، وتفانيه في خدمة مجتمعه، وتوطين عمله فيه، مُؤْثراً البقاء فيه على الهجرة منه، فلا يأتي من حصر تعليمه في قاعات كليته وفي مختبراتها، ودوام تدريبه بين جدران مستشفياتها فحسب، بل يتعزز بالانتشار بين الناس، يتلمس آلامهم ويعالج مرضاهم بإشراف من أساتذته ومدربيه، يرى المرضى ويتعرف مسببات مرضهم في موقعهم وبيئتهم. قد يرى كثيرون أن هذا مطلب تعجيزي، لكنني أراه ممكناً في مرحلة تدريب الأطباء، ولدى الممارسين في بعض الأحيان. وأنا على يقين بأن الإمكانية الطبية الوطنية التي يمتلكها مجتمعنا متوفرة لإخراج مناهج تعليم تصحح مسار العمل الطبي باتجاه رسالته الإنسانية.

وفي الختام أستذكر قصة غضنفر، طالب طب أفغاني عرفته في الجامعة الأمريكية في بيروت، شغوف بالعلوم والرياضيات، درس منها، اختيارياً، عدداً من المساقات. ذهب إلى جامعة هارفارد للتخصص فى مستشفى كلية طبها الشهير. قابلته في قاعة محاضرات كنت فيها أساعد الأستاذ الذي عملت في مختبراته، تفاجأت لوجود غضنفر في القاعة وسألته ما الذي أتى بك إلى هنا، فأخبرني أن عليه لتنفيذ برنامج تخصصه أن يدرس عدداً من مواد العلوم والإحصاء، وأن المادة التي أُحضّر محاضراتها هنا هي واحدة منها، علمت بما عرفت في تلك المناسبة أن لا تقدم أو تطور أو إنجاز دون البناء على قاعدة من العلوم متينة.

لغة الشعر عند البارودي بين التقليد والتجديد

الأستاذ الدكتور إبراهيم السعافين
عضو مجمع اللغة العربية الأردني

- ١ -

لقد أجمع الدارسون والنقاد على أن البارودي رائد حركة الإحياء في الشّعر العربي الحديث[١]، بل إن الفضل يعود إليه في نشوء حركة شعريّة تتخلّص من الأشكال الشعريّة الرثّة التي كبّلت حركة الشعر وحالت دون انطلاقه إلى آفاق رحبة في مضامينه وقضاياه وموضوعاته وأشكاله.

وإذا كان البارودي ينطلق في تجربته الشّعرية من موقفين حتمتهما ريادته أولاً وتجربته التي يمر بها كل شاعر مفارق ثانياً[٢] فإننا سنقف عند ثلاث مراحل شعرية تسم لغته في رحلتها من التقليد إلى التجديد:

تتمثل المرحلة الأولى في التقليد الذي يقوم على المران والتدرب على قول الشعر وامتلاك معجم شعري ومخزون من الصور والتراكيب والأساليب والمعاني الشعرية والصيغ الموسيقية التي تسربت إلى ذاكرته من قراءاته في كتب التراث الشعري عبر العصور الأدبية المختلفة، فالرجل لجأ إلى قراءة التراث الشعري باعتباره نمطاً يسير على منواله،

١- شوقي ضيف، **البارودي رائد الشعر الحديث**، دار المعارف بمصر، ١٩٦٣.
٢- إبراهيم السعافين، **مدرسة الإحياء والتراث**، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨١.

ويستوعب هيئات تراكيبه، ويتعرف نحوه وصرفه وعروضه من النص وليس من المعارف والمعلومات النظرية. وليس أدلّ على ذلك مما جمعه من مختارات لشعراء عباسيين في مجلدين ضخمين لثلاثين شاعراً عباسياً على مدى ستة قرون،[٣] ولعل معارضاته التي أثبت بعضها الشيخ حسين المرصفي في كتابه الوسيلة الأدبية[٤] تشير إلى غزارة ثقافته الشعرية التراثية في مختلف العصور، فكتاب الشعر العربي مفتوح أمام ناظريه يقرؤه ويتمثل صوره وتراكيبه وهيئاته الموسيقية والصرفية والنحوية مثلما يتمثل لغته ومعانيه وأغراضه وقضاياه.

وأما المرحلة الثانية فتتمثل في نضجه، وهي المرحلة التي يتمكن فيها من تجاوز مرحلة التقليد وينتقل إلى طور التعبير عن تجربته الخاصة والانفعال بالمواقف الحياتية والشعورية مستخدماً الأساليب التراثية ومجترحاً المعاني الشعرية القديمة، فهو يعبر عن تجربته الشخصية، ولكنه، في الأغلب، يستعير لغة الأسلاف وصورهم وتراكيبهم فلا يحول ذلك دون التعبير عن شخصيته المستقلة المتماسكة، إذ من المعروف أن الشعراء المجددين لا ينفصلون عن لغة الأسلاف ويبدو تجديدهم تدريجياً.

ولعل البارودي كان يرى في مجاراة الأسلاف في هذه المرحلة امتيازاً يحسب له، وبدا اعتداده بنفسه أقرب إلى الغرور. ويكفي أنه طاول أبا نواس والحطيئة وجريراً، ونقض

٣- مدرسة الإحياء والتراث، ص٦٣.

٤- حسين المرصفي، **الوسيلة الأدبية**، المدارس الملكيّة بدرب الجماميز، القاهرة، ١٤٩٢هـ، ص٢.

تواضع عنترة ورأى أن المتأخرين قد يأتون بما عجز عنه الأوائل مجارياً المتنبي وأبا العلاء إذ نراه يقول:[٥]

كم غادر الشعراء من متردم ولرب تال بذّ شأو مقدم

وأما المرحلة الثالثة فهي مرحلة التجديد التي استغرق فيها في تجربته الذاتية، وغاب الوعي بالصنعة الشعرية إلى التعبير عن المشكلات الملحة والإحساس الممض بالتحولات وانقلاب الأمور على رأسها وتنكر الزمان والإخوان، فلم يعد الشعر قالباً يفرغه على نمط سابق بقدر ما هو تعبير عن تجربة غائرة في أعماق الفكر والشعور والضمير، مما يسمح بأن تقود التجربة الشعورية خطا اللغة والصورة والإيقاع، فلا تتحكم الصيغ اللغوية أو المعنوية الجاهزة بالتجربة الشعرية فتحد من تلقائيتها أو تقف في وجه انفتاح آفاقها، وإنما تترك لها المجال لتؤسس لغة جديدة تتبنى لغة الأسلاف وتجترح لغتها الجديدة في آن معاً.

ومن الجدير بالذكر أن هذه المراحل الثلاث التي أشرنا إليها ليست مراحل منفصلة، وإنما هي مراحل متداخلة، لا يفصلها زمان أو موقف، تجعل التقسيم مرتبطاً بمسوغات زمنية أو موضوعية حاسمة.

٥ـ محمود سامي البارودي، **مختارات البارودي**، المجلّد الأوّل، تحقيق علي الجارم ومحمد شفيق معروف، مؤسّسة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشّعري، الكويت، بالتعاون مع الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤، ص١.

– ٢ –

وبوسعنا أن نمثل لمرحلة التقليد بقصيدة كتبها في مرحلة الصبا قالها على طريقة العرب، كما يقول، مقلداً الأسلاف، يقول في مطلعها:[٦]

ألا حيّ من أسماء رسم المنـــازل وإن هي لم ترجع جـــواباً لسائـــل

خلاء تعفتها الروامـــس والتـــقت عليها أهاضيب الغيـــوم الحوافـــل

فلأيـــاً عرفـــت الدار بعد توهـــمٍ أراني بها ما كان بالأمس شاغلـــي

وهي قصيدة ينطبق عليها مفهوم التوهم الذي نراه لدى كولرج في تفريقه بين الوهم والخيال، فمجال القصيدة ما يتساقط من مخزون الذاكرة، والعلاقات فيها تقوم على التجاور لا على الامتزاج والتفاعل، إذ من السهل على القارئ أن يتابع مصادر القصيدة المباشرة فلا يجدها إلا أقرب إلى الرقع الشوهاء المتباينة التي تفسد جمال الثوب، فمن يتأمل القصيدة يمكنه أن يجد صور الشعراء السابقين وتراكيبهم وصيغهم المعنوية والموسيقية متناثرة دون أن يصهرها خيال عبقري يمثل قوة تختفي وراءها آثار الصنعة التي تذيب وتنشر وتفرق كما أشار كولرج في تعريفه للخيال؛ فهذا حسان بن ثابت يتجاور مع النابغة وزهير والأعشى، مثلما نرى الحطيئة يتجاور مع جميل بن معمر ومجنون ليلى والشنفرى وعنترة وعمر بن أبي ربيعة، إذ من السهل متابعة عناصر القصيدة الشعرية دون أن نلمس شخصية شعرية موحدة

٦- محمود سامي البارودي، **ديوان البارودي**، المجلّد الثّاني، مؤسّسة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشّعري، الكويت، بالتّعاون مع الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢، ص١٣٦-١٥٠.

تلم أطراف القصيدة باستثناء قوة الصياغة التي اكتسبها نتيجة عوامل مختلفة لم تجتمع في هذا العصر لغير البارودي.

وإذا كانت القصيدة تترجم عن روح البارودي في بنيتها العامة؛ من خلال تجاوزها للغرض العام في القصيدة العربية التقليدية ولا سيما في العصر الجاهلي وهو غرض المدح، والاكتفاء بغرض الفخر الذي يتسق مع شخصيته، فإن القصيدة نحت منحى القصيدة التقليدية في صورتها العامة من حيث الوقوف على الأطلال والحديث عن الحبيبة، ثم الخلوص إلى الفخر بدلاً من المدح. على أن الأمر الجوهري هنا هو عدم اتساق القصيدة مع تجربة حياتية، أو عدم اتساق التجربة الشعرية مع التجربة الحياتية، فنلاحظ منذ المطلع على سبيل المثال اتكاء الشاعر على ما اعتاده الشعراء الجاهليون من قبل، وبوسعنا أن نتذكر مطلع قصيدة لحسان يرى الدارسون أن مقدمتها الطللية من الفترة الجاهلية حيث يقول فيها:[٧]

عفت ذات الأصابع فالجواء إلى عذراء باطنها خلاء
ديار من بني الحسحاس قفر تعفتها الروامس والسماء
وكانت لا يزال بها أنيس خلال مروجها نعم وشاء

فتحية الدار التي استهل بها البارودي قصيدته والتوجه إليها بالخطاب ثيمة أساسية في قصائد الجاهليين عند شعراء المعلقات وغيرهم، وكذلك الحديث عن أثر العوامل الجوية من رياح ومطر، فإذا ما تحدث حسان عن الروامس والسماء، تحدث البارودي عن الروامس وأهاضيب الغيوم الحوافل، وتحدث عن تحية الديار وسؤال

٧- حسان بن ثابت، **ديوان حسان بن ثابت**، تحقيق سيّد حنفي حسانين، دار المعارف، القاهرة، ص٧١-٧٤.

الأطلال، وتحدث عن عدم إجابتها السؤال، مثلما تحدث عن خلو الديار وعفائها، بعد أن كانت آهلة بالناس، مستخدماً المجازات والكنايات التقليدية التي استخدمها الأسلاف في الإشارة إلى فاعلية الزمن المدمرة. ولم يكتف باللغة التي تشير إلى تراث مشترك عند الآخرين من مثل النابغة والأعشى وزهير ولبيد ولكنه يعمد إلى استخدام اللغة نفسها فيستخدم عجز البيت الثالث من معلقة زهير بن أبي سلمى متذكراً ما قاله في الوقوف على أطلال الحبيبة ومساءلة تلك الديار بعد أن عفت آثارها فلا تكاد تبين:[٨]

أمــن أم أوفى دمنة لــم تكلـــم بحومانــة الـــدراج فالمتثــلــم
بها العين والآرام يمشين خلفـــةً وأطلاؤها ينهضن من كل مجثــم
وقفت بها من بعد عشرين حجــة فلأياً عرفت الــدار بعــد توهــم
فلما عرفت الدار قلت لربعهـــا ألا عم صباحاً أيها الربع واسلـــم

في صدر بيته التالي:

فلأياً عرفت الــدار بعــد توهــم أراني بها ما كان بالأمس شاغلــي

وهو يستخدم طريقة القدماء في حسن التخلص بذكر غرضين في بحر واحد فيتحدث عن الديار والحبيبة معاً:

ديار التي هاجت علــي صبابتــي وأغرت بقلبي لاعجــات البلابــل

ويستحضر في وصف الحبيبة عناصر النموذج العربي في الغزل، فهي ضامرة البطن، دقيقة الخصر، ثقيلة الردف، ويستخدم أدوات التصوير التقليدية في التعبير

٨- زهير بن أبي سلمى، **ديوان زهير بن أبي سلمى**، تحقيق كرم البستاني، دار صادر، بيروت، ص٧٤.

عن هذه المعاني، فالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز تحمل الدلالات التقليدية في المعاني المتداولة في غرض الغزل. ويتعدى التقليد المعنى والدلالة والصورة إلى التراكيب والبنية الإيقاعية على نحو ما نرى في تأثره مجنون ليلى في التركيب والبنية الإيقاعية وهو ينثر قصص الحب العذري، ويفصل في ما أجمله المجنون بل ما كثفه في قصيدته، وهو يعبر عن تجربة حياتية تماهت مع التجربة الفنية في قوله:[٩]

تعلقت ليلـــى وهـــي ذات ذؤابـــة ولـــم يبد للأتراب من ثديها حجـــم
صغيرين نرعى البهم يا ليت أننـــا إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم

أما البارودي فيورد بنية البيتين التركيبية والصرفية، ويفصل بين البيتين في قصة العذريين:

تعلقتها في الحـــي إذ هـــي طفلـــة وإذ أنـــا مجلوب إلـــي وسائلـــي
ولما تجلى الحب في القلب وانجلت غيابتـــه هاجت علي عـــواذلـــي

ويتابع القصة العذرية المعروفة بكل عناصرها التي روتها كتب التاريخ والأدب إلى أن يصل إلى ما يشبه بيت مجنون ليلى الثاني:

صغيرين لم يذهب بنا الظن مذهباً بعيداً ولم يسمع لنا بطوائل

وكثيراً ما نرى فعل الذاكرة في القصيدة في مواضع مختلفة فتتساقط الصيغ التركيبية والصرفية والإيقاعية من مجال نص الذاكرة إلى النص المستحدث على نحو ما نرى في موضع آخر، حين يستحضر في مجال الفخر لديه مجالاً يشبه

٩-قيس بن الملوح، **ديوان مجنون ليلى**، شرح عدنان زكي درويش، دار صادر، بيروت، ص١٨٣.

الفخر أو هو الفخر عينه من لامية الشنفرى، إذ يحضر في قصيدته بيت الشنفرى:[١٠]

طريد جنايات تياسرن لحمه عقيرته لأيها حمّ أول

ليظهر في تركيبه وصرفه وإيقاعه لديه في شطره الأول:

صريع لبانات تقسمن نفسه وغادرنه نهب الأكف الخواتل

ومن اليسير على متابع المعاني في هذه القصيدة أن يلاحظ المعاني الشعرية التراثية تتناثر في أرجاء القصيدة من معاني بكاء الأطلال والحديث عن المعاني النفسية التي تتصل بالغزل أو ما يتصل بهذا الغرض من أوصاف جسدية تقليدية، أو حديث عن غرض الفخر الذي استبدله بغرض المديح.

فهو يستحضر منازلة الأقران في المبارزة وانتخاب الأبطال له ليكون الفارس المنازل مذكراً بعنترة حين يقول:

يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بئر في لبان الأدهم

إذ يقول:

كأني لم أعقد مع الفجر رايةً أدع باسمي للكمي المقاتل

ومن الطبيعي أن تكون صفات هذا الفارس النبيل الذي يفتخر بنفسه منسجمة مع صفات أسلافه من مثل عنترة والشنفرى، ومن الذين يسرعون إلى النجدة من مثل

١٠- الشنفرى، **ديوان الشنفرى**، إعداد وتقديم طلال حرب، دار صادر، بيروت، ص١٢.

بني مازن الذين ذكرهم قريط بن أنيف العنبري حين شكا من قومه الذين خذلوه. يقول البارودي في هذه المعاني:

إذا ما دعوت المرء منهم لدعـوة على عجل لبـاك غيـر مسائـل
يكفكف أولى الخيل عنـه بطعنـة تمج دمـاً مطعونهـا غيـر وائل
يكون عشاء الزاد آخـر آكـل وعند اختلاج الطعـن أول حامـل

وليس من الصعب أن نستدعي على الفور قول قريط في معنى البيت الأول:[١١]

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهـم طاروا إليـه زرافـات ووحدانـا
لا يسألون أخاهم حيـن يندبهـم في النائبات على ما قـال برهانـا

أو قول الشنفرى الذي يعبر عن مرارة قاسية حين يتحدث عن قومه الذين تخلوا عنه:

هم الأهل لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجاني بما جر يخذل

ومن المعروف أن الأبطال هم الذين يتقدمون الصفوف، وأن الذين يتوهجون شجاعة عادة ما يعفون عن المغنم أو الطعام، على نحو ما نرى في قول عنترة مفتخراً:[١٢]

هلا سألت الخيل يـا ابنـة مالـك إن كنت جاهلـة بـما لـم تعلمـي
يخبرك من شهـد الوقيعـة أننـي أغشـى الوغى وأعف عند المغنم

١١- أبو تمام، **شرح ديوان الحماسة لأبي علي المرزوقي**، المجلّد الآوّل، نشره أحمد أمين وعبدالسّلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١، ص٢٧.
١٢- عنترة بن شداد، **ديوان عنترة تحقيق ودراسة**، سعيد مولوي، بيروت، ١٩٧٠، ص٢٠٧ و٢٠٩.

وفي قول الشنفرى، الذي يكاد يتطابق مع نص البارودي:

وإن مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن بأعجلهم إذ أجشع القــوم أعجــل

ومهما يكن، فالقصيدة مبنية على مثال القصيدة العربية في الوقوف على الأطلال وفي النسيب وفي حسن التخلص من موضوع إلى آخر، ومنها موضوع الفخر الذي يتضمن الوصف والعظة والاعتبار، بيد أن هذه النزعة التقليدية تحتفظ بالقوة والمتانة في صياغة التراكيب، وتبدو مخزوناً مهماً يعد بظهور حركة شعرية قادرة على التعبير عن ذاتها حين تتوافر عناصر اكتمال التجربة الشعرية ويعد بنضج التجربة الحياتية.

فالقصيدة تستحضر في وصف الأطلال والنسيب أشهر شعراء الجاهلية والمخضرمين من مثل: امرئ القيس وزهير والنابغة والأعشى وحسان بن ثابت، إلى جانب الشعراء العذريين من مثل مجنون ليلى، وليس من الغريب أن نشير إلى شعراء بأعيانهم من مثل زهير وعنترة والشنفرى وحسان. والتجربة هنا، كما لاحظنا، متخيلة أدت إلى نشاط في فاعلية الذاكرة التي استحضرت مجموعة هائلة من النصوص الشعرية من مختلف العصور، ولا سيما العصرين الجاهلي والإسلامي، وتساقطت دون أن تحكمها رؤية شعرية تلم أجزاءها وعناصرها، لأن الشاعر يقول: "على طريقة العرب" ويفنى في حياتهم وتقاليدهم ومعانيهم وأساليبهم، فكما تتجاور المواد الأولية والعناصر المختلفة والمتناقضة في الحياة والواقع تتجاور عناصر التجربة الشعرية دون هضم أو تمثيل، مستسلمة لفاعلية الذاكرة الدالة على فاعلية الوهم لا قوة الخيال.

– ٣ –

ويمكننا أن نتابع البارودي في قصائد المرحلة التالية التي نمت عن نضج وتمثل وهضم للتجربتين الحياتية والشعرية، ولا سيما القصائد التي يجتمع فيها التعبير عن الذات مع الالتفات إلى النماذج التراثية البارزة على صعيد الشعراء والنصوص معاً؛ على نحو ما نلاحظ في قصائد المعارضات إذ احتفل بمعارضة الشعراء الفرسان الذين يمثلون قيم البطولة الممتزجة بسجايا العشاق النبلاء. فنراه يعارض المعلقات والقصائد الذائعة الصيت لدى كبار الشعراء في مختلف العصور، وهي قصائد يتبنى فيها لغة الأسلاف على سبيل استعارة اللغة للتعبير عن التجربة الشخصية، فنراه في معارضته لمعلقة عنترة يقف عند مطلعها:(١٣)

هــل غــادر الشعراء من متــردم أم هــل عرفــت الــدار بعد توهم

ويلتفت إلى معنى هذا المطلع على نحو مختلف حين يقول:

كم غادر الشــعراء مــن متــردم ولــرب تــال بــذ شــأو مقــدم

ونراه يطاول الحطيئة وجريراً وأبا نواس في قصيدته التي يعارض بها قصيدة أبي نواس الدالية المشهورة التي مطلعها:(١٤)

أجــارة بيتينــا أبـــوك غيــور وميسور ما يرجــى لديــك عسيــر

١٣- عنترة بن شداد، **ديوان عنترة تحقيق ودراسة**، سعيد مولوي، ص١٨٢-٢٢٢.
١٤- أبو نواس، **ديوان أبي نواس**، دار صادر، بيروت، ص٣٢٧.

حين يقول:[١٥]

ملكت مقاليـــد الكـــلام، وحكمـــةً لها كوكب فخم الضيـــاء منيـــر
فلو كنت في عصر الكلام الذي انقضى لباء بفضلي "جـرول" و"جريـر"
ولو كنت أدركت النواسي لـم يقـــل (أجارة بيتينـا أبـوك غيـــور)
وما ضرني أنـي تأخـــرت عنهـم وفضلي بيـن العالميـن شهيـر
فيا ربما أخلى مـــن السبـــق أول وبـذ الجيـاد السابقـات أخير

وتتأكد ملامح النضج في قصائده التي عبر فيها عن الشكوى من انقلاب الزمان ومن مرارة النفي ومن فقد الولد والزوج والأهل، وتخلي الإخوان عنه وقلبهم له ظهر المجن، وفساد العصر وأبنائه وفقد البصر ودبيب الهرم ووشك الفناء، فهو يحدثنا عن أدق خوالج نفسه وعن أعمق مشاعره بلغة القدماء، ويتضح هذا في قصائده التي نظمها وهو في المنفى في سيلان أو سرنديب من مثل قصيدته اللامية التي يقول في مطلعها:[١٦]

ردوا علي الصبـا في عصـري الخالـي وهـل يعـود سـواد اللمـــة البالـــي
ماض من العـيش مـا لاحـت مخايلـه في صفحة الفكـــر إلا هـاج بلبالـــي
سلت قـلوب فقـــرت فـي مضاجعهـا بعـد الحنيـن وقلبـي ليـس بالسالـي
لـم يـدر من بـات مســـروراً بلذتـه أني بنـار الأسـى مـن حـره صالـي
يا غاضبيـن علينـا هـل إلـى عـدة بالوصل يومـاً أناغـي فيـه إقبالـي
غبتـم فأظلـــم يومـي بعـــد فرقتكـم وساء صنـع الليالـي بعـد إجمـال

١٥- ديوان البارودي، م٢، ص٩٣-١١٦.
١٦- المصدر السّابق، م٢، ص٩٣-١١٦.

يتذكر أحبته ويذكر واقعه الذي آل إليه، فنشعر وكأنه ضعف أمام هذا النفي الذي طال كثيراً، ولكن هذا الحنين وافتقاد الوطن والأهل والولد وسطوة الحنين الذي لا يهدأ لم يفت في ملامح العنفوان والكبرياء التي وسمت شعره منذ أن كان فتى يافعاً حتى أطفأ العجز والمنفى نور عينيه، فهو مسكون بماضيه الأسري والشخصي، وهو ما يحيل الشعور بالحزن والحنين والآلام التي نجمت عن الجحود والخذلان وتنكر الإخوان إلى تمزق نفسي بين واقع لا يملك أمامه القدرة على التصرف فيه، وبين ماض كان يملك فيه كل شيء: المكانة والجاه والمال واجتماع الشمل والاستمتاع بالحياة. ولقد بدا بناء القصيدة يمتاح من معاني الشعراء الأسلاف المألوفة، ومن تراكيبهم التي تداولوها، بيد أن روح البارودي هي التي تؤلف بينها وتجعلها قادرة على التعبير عن الموقف في امتزاج نادر بين الفكر والشعور.

ولعل هذه الحميمية في التعبير عن تجربة حقيقية بلغة مستعارة هي التي جعلت شاعراً كبيراً من مثل شوقي يتأثره في قصيدة من أهم قصائده الذاتية التي مزجت بين الذات والموضوع مزجاً عجيباً وهي "السينية" حين يقول في تفرد الشاعر عن الآخرين بخاصية تخالف المألوف والمعروف، فحين يقول البارودي واصفاً تفرد عواطفه ومشاعره:

سلت قلوب؛ فقرت في مضاجعها بعد الحنين، وقلبي ليس بالسالي

نرى شوقي في سينيته التي ينهج فيها نهج البارودي من الاستهلال بالمقدمة التقليدية التي يخاطب فيها الأصحاب، والحديث عن الزمن الذي يحتضن الزمن والذاكرة والناس والوطن والأشياء يقول متأثراً البارودي:(١٧)

وسلا مصر هل سلا القلب عنها أو أسا جرحه الزمان المؤسّي

ونلاحظ صورة هذا التمزق، الذي أشرنا إليه، في ذكر الدواعي التي أدت إلى الوضع العصيب الذي آل إليه حين يتذكر له عيباً فلا يجد سوى ما لدى الأعداء من عيوب مضمرة سحبوها عليه عيوباً، وهم أحق بأن تلصق بهم هذه العيوب:

لا عيب في سوى حرية ملكت أعنتي عن قبول الذل بالمال
تبعت خطة آبائي؛ فسرت بها على وتيرة آداب وآسال
فما يمر خيال الغدر في خلدي ولا تلوح سمات الشر في خالي
قلبي سليم، ونفسي حرة ويدي مأمونة، ولساني غير ختال
لكنني في زمان عشت مغتربا في أهله حين قلت فيه أمثالي

ومن الطريف أنه يلجأ إلى تفسير حالته النفسية من خلال شعره بتلقائية أو بما يشبه العفوية حين نلمح فيه حديثاً عن "الاغتراب" بلفظ دال عليه، وهو كلمة "مغترب" فلم يقل غريباً ليدل على الغربة المكانية التي تحيل إليها عبارات الشوق والحنين وذكر الأهل والوطن وما يتصل بهما من قيم وذكريات، وإنما جاءت اللفظة في سياق الاغتراب النفسي والوجودي، والملاحظ أن البارودي لا يعمد إلى تجويد الصياغة أو إلى اللجوء إلى التعبير عن المعنى بالصورة بقدر ما تنساب تعبيراته

١٧ – أحمد شوقي، **ديوان الشوقيات**، م١، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧، ص٤٦.

بتلقائية واضحة في التعبير عن الموقف والحال والنفسية، وهو ما سيتميز به خلفه شوقي فيما بعد. على أن هذا التميز لا يحول دون الوقوف عند سمة مهمة عند البارودي، وهي قدرة البارودي على اجتراح لغته الخاصة في التعبير عن نفسه وهو يصطنع أيضاً لغة أسلافه، فالشاعر يهجس بمشاعره الداخلية العميقة، ويعبر عن حزنه بكبرياء وترفع، ولكن بلغة الأسلاف لا ينحرف عنها، ولا يعمد إلى تحطيم العلاقات اللغوية التقليدية، وإحلال لغة مجازية جديدة محلها. وعلى الرغم من استخدامه لغة مجازية في أغلب شعره فإن هذه اللغة المجازية، لكثرة دورانها وشيوعها في الاستخدام، باتت أقرب إلى اللغة الطبيعية أو الكليشيهات. على أن هذه السمة لم تحل دون وفائها بالمهمة التعبيرية التي يقتضيها الشعر، ولا سيما في لعبة الاختيار المتقن حين يتحدث مثلاً عن ميله إلى "زهرة الدنيا" تعبيراً عن الرغبة والشهوة من جانب وعن الزهد وخلاصة التجربة المربية من جانب آخر. على نحو ما نراه يقول في هذه الأبيات التي يعبر فيها عن عدم القدرة على المبادرة وامتلاك زمام الأمر في زمن ندر فيه الصدق والوفاء وغاب فيه الصاحب والخليل:

فاليوم لا رسني طوع القياد ولا قلبي إلى زهرة الدنيا بميال
لم يبق لي أرب في الدهر أطلبه إلا صحابة حر صادق الخال
وأين أدرك ما أبغيه من وطر والصدق في الدهر أعيا كل محتال
لا في "سرنديب" لي إلف أجاذبه فضل الحديث، ولا خل، فيرعى لي

بيد أن هذه اللغة التي يتكئ فيها على لغة الأسلاف تفجؤنا دوماً بالشخصية الشعرية الراسخة التي يقف وراءها البارودي من إدخال تعبير من مجال آخر، قد يجري على ألسنة الوعاظ أو العامة، أو من مجال مفرداته من التراث فيعود إلى صهر هذه المفردات من جديد، على نحو قوله مصوراً وحدته واغترابه وشموخه في آن معاً بالصقر المتوحد في وكره على قمة جبل شاهق:

أبيت منفرداً في رأس شاهقة مثل القطامي فوق المربأ العالي

وقد اسطاعت قوة خياله الابتكارية المسيطرة على مجال رؤية القصيدة أن تتجاوز مجال الصورة التقليدية لتشكل من المفردات المعاصرة ومن مجالها الثقافي الحديث صوراً مؤازرة داعمة، ففي هذا المجال الذي ينفرد فيه هذا الشاعر الذي يضج بالعنفوان والكبرياء ينسحب إلى الماضي وهو متشبث به؛ إذ يرى نفسه الصقر المتوحد على القمة الشاهقة، يستجمع من هذا العلو الشاهق، وهو ينظر إلى المنحدر السحيق، ما يتبقى في مخيلته من صور فلا يستجمع في ذهنه من صور تعود إلى مجال الأمل؛ وقد أقام علاقة مجازية بين لفظتين متباعدتين في المجال: النقاش الذي ينقش أو يرسم، وهو من المجسم، والآمال وهي من المجرد، حين يقول:

إذا تلفت لم أبصر سوى صور في الذهن، يرسمها نقاش آمالي
تهفو بي الريح أحياناً، ويلحفني برد الطلال ببرد منه أسمال
ففي السماء غيوم ذات أروقة وفي الفضاء سيول ذات أوشال
كأن قوس الغمام الغر قنطرة معقودة فوق طامي الماء سيال
إذا الشعاع تراءى خلفها نشرت بـــدائعاً ذات ألـــوان وأشكـــــال

شـــوق ونـــأي وتبريح ومعتبـــة يا للحميـــــة من غدري وإهمالي

فإن يكن جف عودي بعد نضرته فالدهر مصدر إدبـــــار وإقبـــال
علام أجـزع؟ والأيـام تشـهد لـي بصدق ما كان من وسمي وإغفالي
راجعت فهرس آثاري، فما لمحت بصيرتي فيه ما يزري بأعمالـــي

وهذه القصيدة تصور قدرة الشاعر على التعبير عن حالته النفسية في ظل انقلاب الحال وتحول الزمان، وهو يستخدم لغة المفارقة، في رؤيته للقيم والمبادئ والناس والزمان. وإذا كان البارودي يلجأ إلى تأثر القدماء في اجتراح أساليبهم وموضوعاتهم؛ فنلحظ اتكاءه على غرضي الشكوى وذم الزمان، والفخر بالنفس، فإن ثمة صلة بين منظومة القيم المؤثرة وأسلوب الشاعر في التعبير عن النفس، فمن الشطط الطلب إلى الشاعر التجديد في أسلوب الشعر، وبنى الفكر والقيم الاجتماعية ما تزال على حالها، بيد أنه حين يعبر بصدق عن موقفه من الزمان والناس والحياة قد يلجأ إلى المألوف من الصور والأبنية التراثية الجاهزة المستعارة التي تسعفه في التفكير والتعبير والتصوير. فصورة الطائر الضعيف مهيض الجناح الذي لا يلقى حماية ولا رعاية، فقد الأبوين وظل عرضة لقسوة الطبيعة تحت وابل المطر وفي مهب الرياح، صورة مألوفة في التراث، ومدعاة للشفقة والرحمة، وهي الصورة التي استدعاها في الجزء الأخير من القصيدة ليصور ما آل إليه بعد نفيه بعيداً عن أسباب الحيلة في سرنديب.

ومن يتأمل هذه القصيدة يلحظ قدرة الشاعر على اجتراح لغته الخاصة في التصوير والتعبير، وفي ظني أن هذا التوهج في تجاوز المألوف والمأثور مبعثه الصدق في التعبير الذي يلجئه إلى استخدام لغة عصره وبيئته، بما فيها صورهم من استعارات ومجازات وكنايات وتشبيهات وسواها. وبوسعنا أن نقف عند البيتين اللذين مرا بنا:

إذا تلفت لم أبصر سوى صور في الذهن يرسمها نقاش آمالي
راجعت فهرس آثاري فما لمحت بصيرتي فيه ما يزري بأعمالي

لنرى أنهما تأثرا لغة عصره، واقتربا من اللغة اليومية، وليس من الممكن اجتزاء التراكيب أو الأساليب أو البنى الصرفية والنحوية والإيقاعية من بناها العامة للتدليل على هذا الملمح الذي يمثل هذا التطور في لغة الشعر عند البارودي.

– ٤ –

وإذا كان من غير الممكن أن نصور نقلة حاسمة من طور إلى طور فإن انتقالنا إلى الطور الثالث في تناول قصيدة البارودي التي قالها وهو في السجن ومطلعها:[١٨]

شفني وجدي وأبلاني السهر وتغشتني سمادير الكدر

غير بعيد الشبه عن الطور الثاني لأن القصيدتين الثانية والثالثة اللتين أستشهد بهما من مرحلة واحدة هي مرحلة السجن والنفي، وواضح ما لهاتين التجربتين من أثر واضح في تجاوز المألوف والجاهز.

١٨- ديوان البارودي، ج١، ص١٤.

وهذه القصيدة التي صدرها بقوله: "قالها وهو في السجن" تصور أصدق تصوير تطور اللغة الشعرية عند البارودي في رؤية العناصر التقليدية وعناصر التجديد، وفي التوسل بالتعبيرات والصيغ الجاهزة للتعبير عن تجربته الخاصة، واجتراح لغة جديدة، قوامها علاقات لغوية ومعجمية طرية، لم يحذ في بنائها حذو أحد ولم ينظر في نسجها على مثال سابق. وهي لغة يوسع فيها دائرة الصورة التقليدية ليضيف إليها لغة المشهد الذي يقوم على أداتين تبدوان متناقضتين هما الوصف والدراما.

ومن الطبيعي أن نلاحظ هذا التباين في المواد الأولية التي استقى منها الشاعر بناء تجربته، من بنى وصيغ شعرية استعارها من لغة أسلافه القدماء، ومن تعبيرات وصيغ يومية متداولة على ألسنة الناس من مصادر ثقافية مختلفة، ومن لغة طرية أنضجتها حرارة التجربة الشخصية. فإذا ما تأملنا مطلع القصيدة:

شفني وجدي وأبلاني السهر وتغشتني سمادير الكدر

فسواد الليل ما إن ينقضي وبياض الصبح ما إن ينتظر

فإنه بوسعنا أن نلاحظ أن العلاقات اللغوية علاقات تقليدية، لم يسع الشاعر إلى ممارسة انزياحات عليها بغية تغيير هذه العلاقات أو تحطيمها، فالعلاقة بين شفني، ووجدي، هي علاقة مألوفة وكأنها أصبحت أقرب إلى اللغة الطبيعية منها إلى اللغة المجازية، والأمر عينه ينطبق على العلاقة بين أبلاني، والسهر، فالشف أثر من آثار الوجد، والبلى أثر من آثار السهر، وإن كان في الأمر شيء من الغرابة، وإذا ما انتقلنا إلى الشطر الثاني ووجدنا صورة شعرية توسل فيها بالمجاز للتعبير عن تجربته الخاصة، فقد نستغرب من استخدامه غريب اللفظ من مثل "سمادير" في

تصوير فعل الكدر في العينين حين تغشي سحابته المظلمة أو الأقرب إلى الضباب الكثيف مجال الرؤية في العينين، والسمدور مفرد سمادير وهو غشاوة في العين، في تعبيره عما يحدثه الكدر من أثر نفسي ومادي. بيد أن شيئاً من استغرابنا قد يزول حين نكتشف أنه استعار هذا الشطر من شاعر عربي قديم هو الأقيشر الذي ولد في الجاهلية ونشأ في الإسلام كما يروي صاحب الأغاني، إذ يرد هذا الشطر ضمن أبيات قالها الأقيشر في مدح قدامة بن جعدة وهو بالحيرة:(١٩)

رب نَدمــان كريـــم ماجـــــد سيــد الخدين من فرعــي مضــرْ
قد سَقيْتُ الكأس حتى هــرّهـــا لم يخالــط صفوهــا منــه كــدر
قلت قــم صــل فصلــى قاعــداً تتغشاه سمـــاديـــر السكـــر
قرن الظهر مــع العصــر كمــا تُقـــرن الحِقــة بالحِــق الذكــر
تــرك الفجــر فمـــا يقرؤهـــا وقــرا الكــوثر من بين السور

والبارودي من أكثر الشعراء استلهاماً للتراث، لعمق قراءته وبعد تأثره، والأمر فيما أرى ليس من باب السطو على شعر شاعر بقدر ما هو استعارة لصورة يرى أنها قادرة على التعبير عن تجربته الفنية والشعورية في آن معاً. فعلى الرغم من اختلاف التجربتين واختلاف طبيعة كل منهما فإن البارودي وضع الكدر بدل السكر وهو ما يسوغ له استخدام التعبير في السياق، وفرق ما بين الغشاوة في كل منهما.

١٩- أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني**، ج١١، تحقيق إحسان عبّاس وإبراهيم السّعافين وبكر عبّاس، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٢، ص١٨١.

وأما البيت الثاني من قصيدة البارودي فهو من مألوف الشعر القديم الذي يذكر بصورة خاصة بمعلقة امرئ القيس في وصف همومه وفي علاقتها بديمومة الليل وطول تخييمه حتى لا يكاد يبدو له انجلاء، ولكن هذه الصورة معبرة عن الموقف الذي يعيشه البارودي وهو أبعث على الانقباض من الموقف الذي عاناه امرؤ القيس، فاستعارة الصورة القديمة متسقة مع الحالة الشعورية للبارودي.

وإذا كان البارودي في مستهل تجربته أولع بالنظر في تجارب الأسلاف الأقدمين وفني أحياناً فيها، وحاول أن يولد في صورهم وتراكيبهم ومعانيهم وبناهم الصرفية والإيقاعية فإن تجربته مع الحياة والواقع جعلته يعبر عن هذه التجربة أصدق تعبير في لغة تقريرية أقرب إلى المباشرة من مثل قوله:

لا أنيـــس يسمـــع الشكـــوى ولا خبـــر يأتـــي ولا طيـــف يمر

إذ يعبر الشاعر عن تضاؤل الحلم إلى تمني تحقق أبسط الأشياء، فها هي مطالبه لا تعد من المطالب الحقيقية، ولكن فرص العيش في هذه الدنيا تضيق حتى تبلغ حدودها الدنيا، فالمطالب الثلاثة ممكنة التحقيق في السجن بمفهومه العام لكنها لا تتحقق في سجنه الخاص، لأن للبارودي ظروفه الخاصة.

ولعل تجربة البارودي الحميمة أنطقته بما ليس من المألوف، فأقام حواراً بينه وبين الظلام المخيم الذي يقبض الصدر ويضيق عليه كل مسلك، فجعل الحوار يعتمد تشخيص المجردات، فالظلام يحاور بل يأمر بجفاء وغلظة فيتجسد عدواً مفترضاً، يبدو الصورة الأخرى للسجان الذي يقف دون الباب مستوفزاً تتلقى أذناه أخفت صوت لأنه موكل به، فالقلق مزدوج ومبعثه كذلك، ولقد نجح البارودي في

توظيف المشهد الوصفي في التعبير عن التوتر النفسي الداخلي الناجم من مواجهة افتراضية، فثمة مشهد في الداخل بين السجين الذي يحاول عبثاً أن يتعرف الأشياء في محيطه الضيق القابض، وأن يمارس فعل الإنسان في الحركة والحياة وبين الظلام الذي يقوم بدور الخصم الثقيل:

فسواد الليل ما إن ينقضي وبياض الصبح ما إن ينتظر
لا أنيس يسمع الشكوى ولا خبر يأتي ولا طيف يمر
بين حيطان وباب موصد كلما حركه السجان صر
يتمشى دونه حتى إذا لحقته نبأة مني استقر
كلما درت لأقضي حاجة قالت الظلمة مهلاً لا تدر
أتقرى الشيء أبغيه فلا أجد الشيء ولا نفسي تقر

لقد كان للحوار بين الشاعر والظلام أثر في حيوية المشهد بإقامة هذه العلاقة بين المشخص والإنسان، وهي علاقة عدائية يقوم فيها الظلام مع السجان بدور الذراع الطويلة للسلطة الطاغية التي تمنع الشاعر من القيام بأية حركة، وتحاول أن تخنق فيه بقايا الكبرياء، بل تمنع عنه ملامح الحياة والبقاء وهي أدنى صور الحركة. لقد اشتركت الظلمة والسجان في إصدار الأوامر العسكرية واستعار الظلام لغة السجان في تبني لغة الأمر العسكري: "مهلاً لا تدر". وتتساوق هذه الصورة مع صورة القلق الذي يعتري الشاعر حين يبحث عن الأشياء بحث فاقد البصر فلا يجدها، فيجتمع عليه قلقان، قلق خارجي وقلق داخلي. ويعزز البارودي هذه الصورة الحوارية بمشهد خارجي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالداخل فتكون حصيلته طاقة درامية متوترة تبدو لغة جديدة اجترحها البارودي من قدرة التجربة الفنية على خلق لغة

جديدة. ويتمثل هذا المشهد في حركة السجان الموكل بحراسة الشاعر السجين (وإذا جاز لنا أن نعلق النص النقدي لنتحول إلى حياة الشاعر الخاصة ونشير إلى أنه كان رئيس الحكومة الذي شارك في الثورة العرابية وكان من أخطر زعمائها فلنا أن نعرف مدى قلق السجان من فرار السجين أو انتحاره أو حدوث أي أمر آخر غير متوقع.) فالسجان يتمشى ذاهباً وآيباً أمام الحجرة ووقع خطا حذائه الثقيل في الممر تبعث بدقاتها الموقعة القلق والتوفز في نفس الشاعر، وتبقى الشيء الوحيد الذي يهتك الصمت المطبق على المكان، بينا أذنا السجان في المقابل مستعدة لاستقبال أدق نأمة تأتيه من الغرفة المظلمة التي يأوي فيها الشاعر، والشاعر المستوفز يتبادل الدور مع السجان، فالسجان يتوقف بتيقظ لافت حين تأتيه نبأة من الداخل، والشاعر يغلي فيه التوتر ويستبد به القلق حين يتناهى إلى سمعه صرير الباب حين يحركه السجان، وكم يبدو لهذه الحركة الثنائية من أثر متبادل في نفس السجين والسجان وقد غدا كل منهما ضحية واقعه وانتفت عن السجان الوظيفة النمطية التي يحتلها في الثنائية البروبية (نسبة إلى بروب في حديثه عن الوظائف).

بين حيطان وباب موصد كلما حركه السجان صر
يتمشى دونه حتى إذا لحقته نبأة مني استقر

على أن هذه اللغة التي أقامت توحداً بينها وبين التجربة لا تلبث أن تنكسر حين تلجأ إلى الجاهز والعادي وربما اليومي والمبتذل أحياناً؛ فحين يتحدث عن علاقته بالظلمة ويقيم بينهما حواراً نابعاً من التوحد الذي أشرنا إليه يعود إلى لغة مستعارة، علقت بها أدران الاستعمال الطويل من خلال علاقة الظلام بالكواكب، ويضيف

إليها مبالغة منتزعة من سياقها القرآني البالغ التأثير، فنشعر بشيء من انكسار التجربة حين يقول:

ظلمة مـــا إن بهـــا مـــن كوكـــب غير أنفـــاس تـــرامى بالشـــــرر
فاصبري يا نفس حتـــى تظفـــري إن حسن الصبـــر مفتـــاح الظـــفر
هي أنفـــاس تقضـــــى والفتـــــى حيـــث مـــا كان أســـير للقـــــدر

فجعل أنفاسه الحرّى تضيء غياهب ليله، وأقام تناصاً غير موفق مع النص القرآني في قوله تعالى يصف نار الجحيم: ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ (٣٣) ﴾[٢٠] ثم ختم قصيدته بالعبرة والموعظة الحسنة على عادة الشعراء في العصور المتأخرة، حين دعا نفسه إلى التصبر متناصاً مع مثل سائر، وهو تناص أحسبه غير موفق أيضاً؛ فأخذ عبارة "الصبر مفتاح الفرج" وأدخلها في سياقه دون أن ينقل فضاء المثل إلى فضاء قصيدته. وجاء بيت الختام عظة كتابية مألوفة لم تضف جديداً إلى بنية القصيدة ولا صورتها الكلية، ولكنها لم تأت خارجة على البنية أو الصورة العامة أيضاً.

٢٠ - سورة المرسلات، آية (٣٢و٣٣).

المصادر والمراجع:

١- أحمد شوقي، ديوان الشوقيات، م١، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧.

٢- الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، تحقيق إحسان عبّاس وإبراهيم السّعافين وبكر عبّاس، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٢.

٣- البارودي، محمود سامي البارودي:

- ديوان البارودي، مؤسسة عبدالعزيز البابطين للإبداع الشّعري، بالتّعاون مع الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، تحقيق علي الجارم ومحمّد شفيق معروف، ١٩٩٢.

- مختارات البارودي، المجلّد الأوّل، تحقيق علي الجارم ومحمد شفيق معروف، مؤسّسة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشّعري، الكويت، بالتعاون مع الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤.

٤- أبوتمام، شرح ديوان الحماسة لأبي علي المرزوقي، المجلّد الأوّل، نشره أحمد أمين وعبدالسّلام هارون، دار الجيل ، بيروت، ١٩٩١.

٥- حسّان بن ثابت، ديوان حسان بن ثابت، تحقيق سيّد حنفي حسانين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣.

٦- زهير بن أبي سلمى، ديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق كرم البستاني، دار صادر، بيروت، د.ت.

٧- السعافين، إبراهيم، مدرسة الإحياء والتراث، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨١.

٨- الشّنفرى، ديوان الشنفرى، إعداد وتقديم طلال حرب، دار صادر، بيروت.

٩- ضيف، شوقي، البارودي رائد الشعر الحديث، دار المعارف بمصر، ١٩٦٣.

١٠- عنترة بن شدّاد، ديوان عنترة تحقيق ودراسة، سعيد مولوي، بيروت، ١٩٧٠.

١١- قيس بن الملوح، ديوان مجنون ليلى، شرح عدنان زكي درويش، دار صادر، بيروت.

١٢- المرصفي، حسين، الوسيلة الأدبية، المدارس الملكيّة بدرب الجماميز، القاهرة، ١٤٩٢هـ.

١٣- أبو نواس، ديوان أبي نواس، دار صادر، بيروت، د.ت.

المجال التاريخيّ في الأعمال العلميَّة لمجمَع اللُّغة العربيَّة الأردنيّ

د.المهدي عيد الرواضية

مركز الدراسات الاستراتيجية/ الجامعة الأردنية

توطئة:

أثارَت سياسة «تتريك اللُّغة» التي انتهجتها الدولة العُثمانيَّة في أواخر عهدها حفيظة أبناء العرب وأهل الفكْر والعلم منهم، وشكَّلَ تغييب اللُّغة العربية سبباً مضافاً إلى غيره من الدواعي في الثورة عليهم واجتثاث حُكمهم من الأقطار العربية، ورافَقَت حركات التحرُّر والنهضة العربية، وتنامي الشعور القومي لدى العرب في أعقاب الحرب العالمية الأولى، محاولة إعادة الاعتبار للغة العربية بوصفها عامل وحدة للأمة العربية، ومصدر اعتزاز لكل عربي ومسلم في حملها رسالة الإسلام، بعد أن سعى كل مستعمرٍ لجعل لغته هي لغة الإدارة والعمل في القطر الذي وقعَ احتلاله.

فكانت الدعوة إلى صيانتها من العبث والتغييب مطلباً للكثير من المفكِّرين والمصلحين: الأفغانيّ ومحمد عبده والكواكبيّ ورشيد رضا وأقرانهم، فتأسَّست النوادي الأدبية والجمعيات الثقافيَّة لهذا الغرض، وتطوَّر الأمر بإنشاء المجامع اللغوية المتمتِّعة بصفةٍ رسميَّة: مجمع دمشق (١٨-١٩١٩م)، ومجمع القاهرة

(١٩٣٢م)، ومجمع بغداد (١٩٤٧م)، ثم مجمع اللُّغة العربية الأردني، الذي أُنشئ في وقت متأخِّرٍ ليكون رابع المجامع العربية من حيث تاريخ التأسيس(١).

انصبَّ اهتمام المجامع العربية على نشر الدراسات والبحوث والمؤلَّفات المتعلِّقة باللُّغة العربية، وعقْد المؤتمرات والندوات، وإقامة مشاريع تحقيق التراث العربي والإسلامي، مع التفاتةٍ واضحة للتعريب والترجمة وإيجاد البدائل العربية للمصطلحات العلميَّة المستحدثة «عَصْرنة اللُّغة» لمواكبة التطوُّر الغربيّ ومُسايرة ما استجدَّ في العالم من تقدُّم خصوصاً في مجال العلوم البحتة(٢).

ولم تَستثنِ المجامع العربية، جميعُها، حقلَ التاريخ من اهتماماتها وأنشطَتها، فكانت مجالاً لنشر الدراسات التاريخيَّة المتنوِّعة وتحقيق الكُتب التراثيَّة، ممَّا تحاول هذه الورقة إبرازه بالاتِّكاء على أعمال مجمع اللُّغة العربية الأردني، وإجراء رصد للبحوث والأنشطة التاريخيَّة أو المتصلة بالتاريخ وتقدير مدى ما حازَهُ من نشاط المجمع ومنشوراته.

ومفهومُ التاريخ، الذي تنشده المقالة، يتجاوز المفهوم المحدَّد الذي يحصره في التاريخ السياسيّ الموجّه لرصد الأحداث والكوائن وتقلُّبات الحُكم، بل يتعداهُ إلى

---

(١) كان الأمير عبدالله بن الحسين قد أمر لأول قيام إمارة شرقي الأردن بتأسيس مجمع علمي في عمان، برئاسة سعيد الكرمي وعضوية مجموعة من العلماء العرب المقيمين في الأردن، ولم يتهيأ لهذه الخطوة النجاح. انظر: **مجلة المجمع العلميّ العربي**، دمشق، مج٤، ج١، كانون الثاني ١٩٢٤– كانون الثاني ١٩٢٥م، ص٤٦.

(٢) تناولت جهود المجمع في مجال اللغة والنحو أطروحة جامعية أعدتها الباحثة فاطمة العليمات لنيل درجة الدكتوراه من الجامعة الأردنية عام ٢٠٠٦م، بعنوان: «أعمال مجمع اللغة العربية الأردني اللغوية والنحوية».

التاريخ بعموم تفرُّعاته وما تناسَل عنه من حقول كالجغرافيا التاريخيَّة، والتراجم، والتاريخ الحضاري، والثقافيّ، والاجتماعي، والتراث العربي والإسلامي، وتاريخ العلوم عند العرب ومساهمتها في الحضارة الإنسانية، وكل ما يتَّصل بالتاريخ برابطةٍ وصِلَة.

مجمع اللُّغة العربية الأردني: البدايات والنشأة

مثلما كانت لجنة الترجمة والتأليف المشكَّلة في عهد الحكومة الفيصليّة في سوريا نواةً للمجمع العلميّ العربي بدمشق، فإن اللَّجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر كانت هي الأخرى نواةً لمجمع اللُّغة العربية الأردني.

جاء إنشاء هذه اللَّجنة استجابةً لمقرَّرات مؤتمر التعريب الأوَّل الذي عُقد في الرباط بتاريخ ٢١ إبريل ١٩٦١م، وكانت الاستجابة الأردنية هي الوحيدة لتوصيات المؤتمر من بين الأقطار العربية، وكانت أوَّلاً تتبع لوزارة التربية والتعليم الأردنية[١]، وقد اتَّجهت جهود اللَّجنة لتعريب الكُتب العلميَّة التي تُيسِّر على طلاب الجامعات التشابك مع اللُّغات الأخرى في إطار العلوم البحتة، ومع ذلك فقد كان من بين منشوراتها ما يتَّصل بالتاريخ وتحقيق التراث، فأصْدَرت رسائل أبي العلاء المعرِّيّ (٣ج) بتحقيق الدكتور عبدالكريم خليفة[٢]، وهو كتابٌ وإن كان مجاله الأدب

(١) انظر: "**اللجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر في نشاطها الغامر**"، **مجلة اللسان العربي**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مج ١٠، ع١، ١٩٧٣م، ص٢٦١-٢٦٣.

(٢) أبو العلاء المعري، أحمد بن عبدالله بن سليمان التنوخي (ت٤٤٩هـ): **رسائل أبي العلاء المعري**، [شرح وتحقيق] عبدالكريم خليفة، عمان: اللجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر، ١٩٧٦م.

والبلاغة، فقد اشتمل على مضامينَ تاريخيَّة وإفادات قيّمة تتجاوزُ ظاهرَ ما عليه النصّ النثري الأدبيّ الذي صَنَعه المعريّ، كما قدَّمت اللجنة للمكتبة الأردنية مجموعة من الإصدارات التاريخيَّة، منها كتاب الأسماء الجغرافية في الأردن وفلسطين[١]، ونشرت الترجمة العربية لكتاب آثار الأردن للانكستر هاردنج G. Lankester Harding، وهو كتاب لا يزال –على رغم الأقدميَّة– محظيّاً بالاحترام والتداول، ومُعْتَمَداً في طبعاته العديدة عند دارسي تاريخ الأردن وآثاره، منذ عصور ما قبل التاريخ والعصور القديمة، وبما تضمَّنه من تعريفاتٍ دالَّة بالمدن التاريخيَّة الواقعة داخل حدود المملكة الأردنية الهاشمية[٢].

ثم اندرَجَت اللَّجنة الأردنية للتعريب تحت مظلَّة مجمع اللُّغة العربية الأردني عند تأسيسه في الأوَّل من شهر تموز سنة ١٩٧٦م، ووالَى –مُذ ذاك– مسيرته باقتدار في حماية اللُّغة العربية وصونها –وإن كان صواب التعبير: «حماية أنفسنا وصَوْن ألْسنتنا من الانحراف عن لغتنا السليمة إلى ما دونها»؛ لأنَّ اللُّغة العربية تحفظ ذاتها بذاتها، وإنما يقع الخلل فيمن ينحدر عن مرتبتها– وساهم مع المجامع العربية الأخرى في تيسير مواكبتها للعُلوم البحتة وجعْلها وعاءً حاملاً لما استجدَّ في الغرب من حقول معرفيّة ومُصطلحات علمية.

---

(١) عنبتاوي، وصفي، وقسطندي نقولا، وعبدالباري درة: **الأسماء الجغرافية في الأردن وفلسطين**، عمان: اللجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر، ١٩٧٠م.

(٢) هاردنج، لانكستر: **آثار الأردن**، [ترجمة] سليمان الموسى، عمان: اللجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر، ١٩٦٥م.

المشاريع العلميَّة والمنشورات البحثية للمجمع:

أنجز مجمع اللُّغة العربية الأردني، عبر مسيرته الطويلة التي ناهزت نصف قرن، الكثير من الأعمال العلميَّة والمعجميَّة التي تتَّصل باللُّغة العربية والحضارة العربية والإسلامية، وتابَع علاقة اللُّغة العربية بالحوسبة بعد أنْ ظهرَت الإنترنت وتطوَّرَ عملُ الحواسيب التي دخَلَت في مفاصل الحياة كافة، واتَّجه جانبٌ من أنشطته للبحث التاريخيّ، ممَّا يُمكن التماسُهُ في جهود المجمع في القنوات التالية:

مجلة المجمع:

جاء إنشاء مجلة المجمع استناداً إلى القانون الذي نصّ في مادَّته الخامسة على إصدار دوريَّة علميّة، وصدر أوَّل أعدادها في مطلع العام ١٩٧٨م، أي بعد تأسيس المجمع بنحو عام ونصف، وهي تصدر مرَّتين في السنة، وقد صدرت أغلب أعدادها بصورةٍ مستقلَّة لكل عدد، وانفرَدَت في سنواتٍ قليلة ومتقطِّعة في إصدار عدد مُزدوج للسنة الواحدة. واشتمل كلُّ عددٍ في المتوسِّط على ستةِ بحوثٍ أساسيَّة، وأقلُّ الأعداد مُشتملٌ على بحثين(١)، وأكثرُها يصل إلى عشَرة بحوث(٢).

وابتداءً من العدد المزدوج ٢٧-٢٨ تشكَّلت هيئة تحرير للمجلّة برئاسة عبدالكريم خليفة؛ رئيس المجمع، وأُدرجت أسماء أعضائها في أوّلها.

وبدأت المجلة في صورة إخراجها في مسربين، خُصص الأول للبحوث، والثاني للتعليقات والمناقشات، ثم أُضيف لهما ابتداءً من العدد الثالث بابٌ جديد

(١) كما وقع في العدد المزدوج ٢١-٢٢، س٦، ١٩٨٣م، والعددين ٧٠، ٧١، س٣٠، ٢٠٠٦م.

(٢) العدد المزدوج ٥-٦، س٢، أيار- كانون الأول ١٩٧٩م، والعدد ٣٠، س١٠، كانون الثاني- حزيران، ١٩٨٦م.

حملَ عنوان: «مع الكتب»، كما ذُيِّلَت أعدادها بملحقٍ عنوانه: «أخبار مجمَعيَّة»، يتضمَّن أخبار المجمع وأنشطته وكذا أخبار المجامع العربية الأخرى ونعي العلماء المتوفّين والتعريف بمنجزاتهم. واستقرَّت صورة أبواب المجلة على هذا النحو حتى آخر خمس سنوات، عندما أصبح الاقتصار على البحوث والدراسات المُحكَّمة سمةً لها.

والتزَمَت المجلة بصورة إخراج موحَّدة، في الشكل العام والخط وطريقة ترتيب البحوث، وتحسَّنت صورة إخراجها بشكل واضح منذ أن ترأس المجمع –وترأس هيئة التحرير أيضاً– الأستاذ الدكتور خالد الكركي في عام ٢٠١٥م، وظهر الاهتمام بتحسين نوع الخط المستخدم وتحسين صورة الغلاف وخطوطه. وتطوَّر الأمرُ بوضع مُلخَّصاتٍ للبحوث باللُّغة الإنجليزية، وترجمة مصادر ومراجع الدراسة أيضاً بما يتيح لها الانتشار في أوساط الدارسين الأجانب.

ورغم أنَّ الغلبة في موضوعات البحوث التي تضمَّنتها المجلة عموماً مُتجهةٌ لعلوم اللُّغة والأدب وقضايا التعريب وتوليد المصطلحات، بحُكْم اختصاص المجمع وأهدافه، فقد كان للبحوث التاريخيَّة نصيبٌ وافرٌ من الاعتناء، ففي العدد الأول من المجلة المشتمل على ثمانية بحوث، جاءت ثلاثةٌ منها في حقل التاريخ، إضافة إلى بحث رابع يقتربُ من علم التراجم وقعَ استهلالُ العدد به، وهو عن ابن رُشد كما يأتي بيانه.

إن هذا الاعتناء ببحوث التاريخ في مجلة لغوية، يُؤشِّر على التلازم بين العلوم الإنسانية الذي يصل حدَّ التداخُل أحياناً، ويشي بالعلاقة الرابطة بين التاريخ وعلوم

اللُّغة والأدب، مثلما أظهرته دراسة عبدالعزيز الدوري التي نشرها في العدد الأوَّل من مجلة المجمع بعنوان: «نشأة الثقافة العربية الإسلامية: نظرةٌ إلى العراق»[1]، وأرَّخَ فيها لانتشار العربية بفعل الإسلام، ولأوَّليَّة ظهور العلوم العربية والإسلامية، ونشأتها وتطوُّرها في القرون الأولى؛ إذ ساهمت نشأة الدولة الإسلامية وما تلاها من قيام الدول الإسلامية المتعاقبة في ذيوع التأليف والتصنيف ونشأة علوم مُستحدثة اقتضَتْها طبيعةُ الدعوة الإسلامية وتعاليمها كالتفسير والفقه والفرائض وغير ذلك.

ويَنْضافُ إلى ذلك؛ أن ثمة فرعاً قائماً من الدراسات اللغوية الحديثة قِوامُه البحث في تاريخ اللُّغات للشعوب والأقوام القدماء، وعلومهم، وسلسلة نَسَب هذه اللُّغات وتناسلها، وتطوُّرها، وأوجه الشبه والتلاقي بينها، أو الاختلاف والتباين في المبنى والصوت بما يسمَّى علمَ اللُّغة المقارن، ومن بينها اللُّغات السامية التي تندرجُ العربيةُ تحتها. إن مُستند هذه الدراسات –في المنهج والمصادر– يرتكز أساساً على البحث التاريخيّ والأثريّ، ويستمدُّ مادَّته من النصوص المبكِّرة في البَرْديَّات والنقوش الأثرية، إضافةً إلى الشعر الجاهلي خاصَّة فيما يتَّصل بدراسة تاريخ اللُّغة العربية، وما يُمكن الْتماسُه منه في جانب التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والحضاري.

وتضمَّنت المجلة عدداً كبيراً من البحوث التي تناولت الجهود اللُّغوية والأدبية (المنثورة والمنظومة) والفكِّرية للكثير من العُلماء العرب والمسلمين، وهذه الدراسات

---

(١) **مجلة مجمع اللغة العربية الأردني**، مج١، ع١، ١٣٩٨هـ/ كانون الثاني ١٩٧٨م، ص٤٩-٧٨. وأعيد نشره في **العدد الخاص بمناسبة «الذكرى الأربعين لتأسيس المجمع»**، ٢٠١٦م، ص٣٠٧-٣٤٥.

وإنْ كانت مُنصرفةً إلى الدراسات الأدبيّة ومعدودةً في دائرتها، فقد اشتملَت أيضاً على جوانبَ تأْريخيَّة لهؤلاء الأعلام، فعرَّفت بنشأتهم ومسيرتهم العملية والعلميَّة، ورصَدَت مؤلَّفاتهم ومُنجزاتهم، بما يجعلها تندرجُ ضمن حقل التراجم؛ أحد فروع علم التاريخ. بل إنَّ أوَّل عددٍ من المجلة، وقع استهلاله بدراسةٍ أعدَّها عبدالكريم خليفة بعنوان: «ابن رشد في أدبه»[1]، رَصَدَ فيها سياقة اسم الرجُل ونسبه ونشأته ومسيرته والمؤثِّرات في تكوينه العلميّ، وعدَّد مؤلّفاته، وهو القاضي الذي برعَ في فنونٍ متنوّعة من العلم: الفلسفة والطِّبّ والفكر والفقه والأدب واللُّغة والبلاغة والنحو، وأوردَ الباحثُ نماذجَ ممَّا قيل في حقِّه من أقْرانه وممَّن ترجَم له، ويلحقُ بهذا الضرب من البحث قدرٌ وافرٌ من الدراسات التي أُعدَّت حول الشُّعراء العرب، في جاهليَّتهم وإسلامهم، وبحَثَت في حياتهم والتأريخ لهم، والاستدراك على أشعارهم.

وبالإضافة للبحوث التاريخيَّة المتنوّعة التي نشرتها المجلة، فقد خَصَّصت نصيباً وافراً لتراجم العُلماء المُحدَثين والمعاصرين، خاصة من أعضاء المجامع العربية والنابهين من عربٍ ومُستشرقين، في الوطن العربي والعالم الإسلاميّ وأوروبا، وتضمَّنت تراجم تعريفية بهم، خاصّة بعد وفاتهم، وتجاوَزَت حدَّ النعي بتفصيل مُنجزاتهم وسيَرهم العلميَّة.

واشتمل العددُ الخاصّ من المجلة الصادر بمناسبة انقضاء أربعين عاماً من عمر المجمع على محورٍ خاصٍّ لاستذكار عشَرة من المجمعيّين الأوائل ممَّن

(١) مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، مج١، ع١، صفر ١٣٩٨هـ/ كانون الثاني ١٩٧٨م، ص٥-٤٨.

ساهموا في نشأته وأغنوا مسيرته وتطوّره وقُدِّمت فيه تراجم وشهادات حولهم، مع التعريف بهم والتنويه بجهودهم، وهم: أحمد سعيدان، ومحمد سعيد النابلسي، وذوقان الهنداوي، وقنديل شاكر، ومحمود إبراهيم، وعيسى الناعوري، وروكس بن زائد العزيزي، وناصر الدين الأسد، وعبدالكريم غرايبة، وإبراهيم زيد الكيلاني[١]. مثلما خُصصت بحوث الموسم الثامن والثلاثين من مواسم المجمع لاستذكار اثنين من العلماء الذين توفَّاهم الله ممَّن خدموا مسيرة المجمع، هما: الدكتور عبدالكريم خليفة، رئيس المجمع السابق، والدكتور محمد أحمد حمدان[٢].

وثمَّة موضوعات أخرى طَرَقتها المجلة وأغْفلها الإحصاء المُرفق، وإنْ كانت لها صلة -بوجهٍ من الوجوه- بعلم التاريخ؛ لتعلُّق موضوعها بالتراث العربي والإسلامي والحضارة الإسلامية عموماً، كالتعريف بالمخطوطات والنشرات التراثية المحقَّقة، ونقْدها، وإنما كانت وجهة الرصد والإحصاء مقتصرة على البحوث والدراسات المحكَّمة.

إذنْ، فلم تَحْشُر المجلّة نفسها؛ بسياستها وتأطيرها، في مجالٍ مُحدَّد من حقول المعرفة؛ خاصَّة علوم اللُّغة والأدب التي يرعاها المجمع بحُكم الاختصاص، وإنما انفتَحَت وتوسَّعت لنشر كل ما يتَّصل بالحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامي، ولم تتضمَّن الأعداد الأربعون الأولى أيَّةَ بطاقة تعريفية بالمجلة وتخصّصها، بينما انفرد العدد المزدوج (٤٢-٤٣) (١٩٩٢م) بعبارة تصدَّرت ظهريَّته: «مجلة مُتخصّصة

(١) مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، «العدد الخاص» بمناسبة الذكرى الأربعين لتأسيس المجمع، ٢٠١٦م، ص٣٧-٩٤.

(٢) **الموسم الثقافي الثامن والثلاثون**، مجمع اللغة العربية الأردني، عمان، ٢٠٢٠م.

مُحكمة»، دون الإبانة عن وجه التخصُّص وماهيته. والتزَمَت المجلة بوضع هذه العبارة ابتداءً من العدد (٨٠) (السنة ٣٥، ٢٠١١م)، مع وضع قائمة بشروط النشر التي نصَّت في أوَّلها على أن المجلة معنيَّة بالبحوث التي تُعالج قضايا اللُّغة العربية وآدابها. ومنذ أنْ أصبحت شروط النشر تُلازم أعداد المجلة، فقد تقلَّصت البحوث التاريخيَّة فيما بعد العدد (٨٠)، ولا نعلم ما إذا كانت سياسة المجلة أصبحت ترفض ما يصلها من بحوث تاريخيَّة أم أن ما اشْتُرِطَ في موضوع البحث قد صَرَف الباحثين عن التوجُّه إليها، وحتى البحوث التي نُشرت فيما بعد، وتضمَّنها المسرد المرفق، فقد كان موضوعها الأساسي الأدبَ أو اللُّغة وما يجري مجراهما، وكان اتِّصالها بالتاريخ محدوداً ومُقتضباً، ولا يستبين ذلك إلا بالاطِّلاع على نصِّ الدراسة المنشورة ومُعاينة محتواها.

وجَرَت سياسةُ المجلة على سَنَن قريناتها من المجلَّات العلميَّة –وحتى الثقافيَّة– في ذلك العصر؛ بإتاحة المجال للتعقيب والتعليق والاستدراك على البحوث المنشورة، وخصَّصت حيّزاً من صفحاتها لنشر هذه الملاحظات، وهذا وفَّر مساحة للنقاشات العلميَّة الهادئة والهادفة، وبلَغَت المراجعات في قوَّتها وصرامتها ما يُشبه مُلاحقة المُحكِّم أو المحقِّق، يُقابلها الكُتَّاب بصدور واسعة، بل أعدّ بعض القُرَّاء مُراجعات لبحوث بعض الأعداد بأكملها، وعلَّقوا عليها، مثلما أتاحَت المجلة لمؤلفي البحوث الردّ على ملاحظات مُنتقديهم في سلسلةٍ طويلة من الردود الغنية والمتَّصلة.

اشتمل كامل أعداد المجلة حتى العدد (١٠٤) الصادر في كانون الثاني- حزيران ٢٠٢١م على (٤٥٤) بحثاً مُحكَّماً، منها (٧٦) بحثاً تاريخياً مباشراً أو له اتِّصال بعلم التاريخ وفروعه، أي ما نسبته ٢٠%، وهي مُساهمة مُقدَّرة لمجلة مُتخصِّصة باللُّغة العربية، وقد توزَّعت موضوعات البحوث التاريخيَّة على جوانبَ متعدِّدة من حقول التاريخ حسبما يُظهره الرسم البياني التالي:

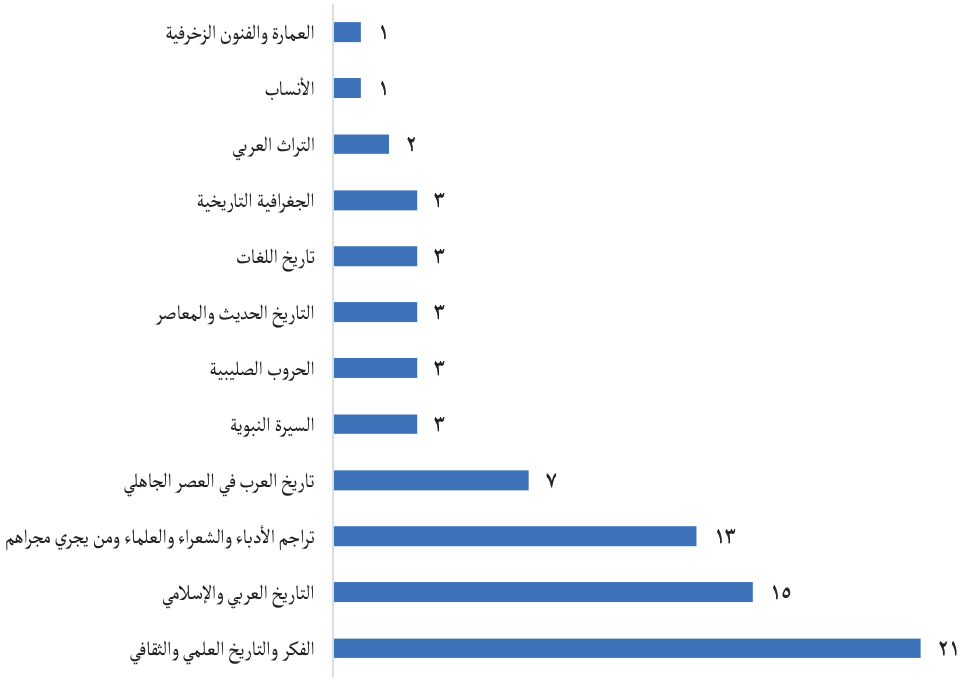

أما زمانياً، فقد توزَّعَت البحوث التاريخيَّة على حقب العصور التاريخيَّة المتعاقبة، منذ عصر ما قبلَ الإسلام حتى وقتنا الحاضر، وكانت الغلَبة للعصر الإسلامي المبكر والوسيط.

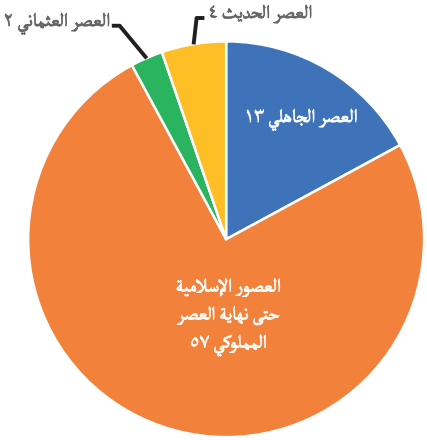

ومثلما تجاوَزَت المجلة الإطار الزمني بنشر البحوث المنتمية لمختلف الحقب والعصور، فقد انفتَحَت جغرافياً لتشمَل أغلب أقطار العالم العربي والإسلامي، بما في ذلك تاريخ الأندلس:

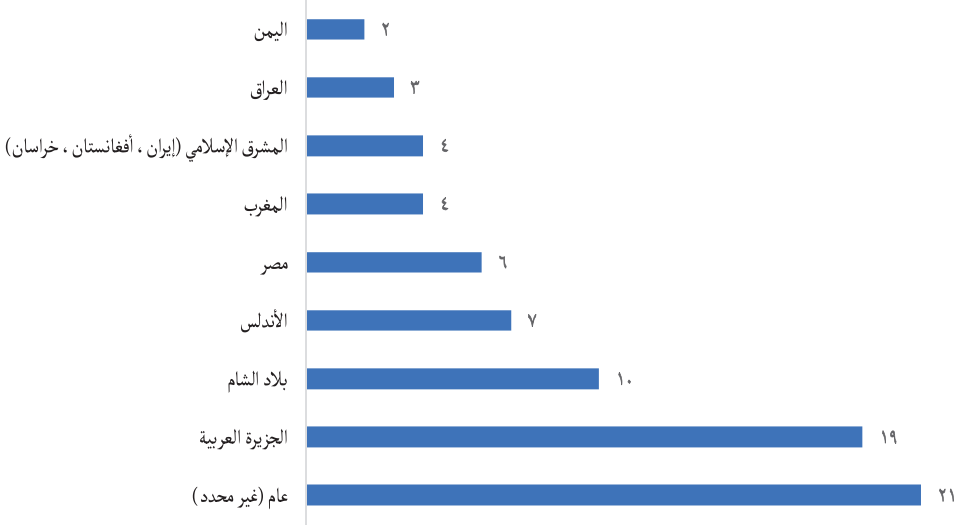

إن هذه المخرجات التي يكشفها الإحصاءُ لا تُؤشّر على توجُّهات المجلة ومُيولها في اختيار الموضوعات، بقدر ما تعكس توجُّهات كُتَّابها واهتماماتهم البحثية، وعلى نحوٍ أدقَّ: تخصُّصاتهم العلمية الدقيقة.

وفي رصد النطاق الجغرافي للبحوث التاريخيَّة، فإنَّ جانباً كبيراً من مُحدِّداته يرتبط بتراجم العلماء والأدباء التي تضمَّنتها المجلة، وهم من أقطار مختلفة، بما وسَّع من الرقعة الجغرافية.

إن قُرب مجمع اللُّغة العربية من أساتذة الجامعة الأردنية، مكاناً واهتماماً، جَعَلَت الأستاذ نهاد الموسى يرى أن مجلة المجمع أشبهُ ما تكون على –المستوى الأكاديمي العريض– مجلةً تصدرُ عن قسم اللُّغة العربية وآدابها، وتأدَّى له هذا الاستنتاج بمُعاينة الحضور الواسع لأساتذة اللُّغة والأدب من منتسبي الجامعة في أنشطة المجمع وخاصة في مجلته، بل إن رئيس المجمع الذي امتدَّت رئاسته عقوداً: الدكتور عبدالكريم خليفة (ت٢٠٢٠م) هو أستاذ في قسم اللُّغة العربية بالجامعة، ورئيس للجامعة الأردنية في السنوات ١٩٦٨–١٩٧١م[١]. وكذا نائبه الدكتور محمود السمرة (ت٢٠١٨م) الذي بقي في هذا المنصب منذ تأسيس المجمع حتى سنة ٢٠٠٨م، وكان عضواً في هيئة تحرير المجلة منذ إصدارها في عام ١٩٧٨م حتى عام ٢٠١٤م، ومثل هذا التصوُّر، وبشكل أقلّ، يَنصرفُ إلى أساتذة قسم التاريخ بالجامعة الأردنية، ثم جامعة اليرموك، فقد انتظَمَت حول

(١) الموسى، نهاد: "**الجامعة الأردنية واللغة العربية**"، ضمن كتاب: «بحوث ودراسات مقدمة للجامعة الأردنية في عيدها الخمسين»، [تحرير] محمد عدنان البخيت وآخرين، عمان: الجامعة الأردنية، ٢٠١٥م، ص٣٦.

المجمع منذ تأسيسه طبقةٌ من المؤرِّخين الذين وجدوا في مجلة المجمع مجالاً لنشر بحوثهم ودراساتهم، وكان بعضهم قد أصبح عضواً في المجمع أو عضواً في هيئة تحرير المجلة، أمثال: عبدالعزيز الدوري، ومصطفى الحياري، وعلي محافظة، ومحمد عدنان البخيت، وعوض خليفات.

المواسم الثقافيَّة:

استهلَّ المجمع عهْده بإقامة الندوات والمحاضرات في موضوعاتٍ مُحدَّدة يجري التباحثُ حولها، وأصبحت «سُنَّة سنويَّة» يجري الإعداد لها، وكانت أوَّل ندوةٍ أقامها المجمع تحت مسمَّى «ندوة المجمع الثقافيَّة الأولى»، وخُصِّصت لبحث «أسباب الضعف في اللُّغة العربية»[١]، تلتها ندوةٌ بعنوان: «تجربة جامعة دمشق في تعريب تعليم العلوم»[٢]، وثالثة بعنوان: «الرموز العلميَّة وأشكال الحروف العربية»[٣].

وابتداءً من سنة ١٩٨٣م، باشَرَ المجمع بعَقْدِ مواسمَ ثقافيَّة سنويَّة، ووالَى إقامتها بانتظام لغاية الآن، وبلغ عددُ المواسم الثقافيَّة المنعقدة حتى هذا العام (٢٠٢١م) (٣٨) موسماً، لامَسَت موضوعاتها الشأن الوطني والقومي العربي، لاتِّصال اللُّغة العربية بوَحدة العرب ومواجهة التغريب، والحفاظ على هويَّة الأُمَّة

(١) انظر حول الندوة: مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، مج١، ع١، كانون الثاني ١٩٧٨م، ص٢١٤-٢١٨.

(٢) **مجلة مجمع اللغة العربية الأردني**، مج١، ع٢، كانون الثاني ١٩٧٨م، ص١٦٥-١٧٥.

(٣) **مجلة مجمع اللغة العربية الأردني**، س٦، ع١٩-٢٠، كانون الثاني- حزيران ١٩٨٣م، ص٢٣٠-٢٤٧.

العربية والإسلامية، وبالتالي فقد حَمَلت بحوثها صفةً تأريخية وحضارية، شاركَ فيها عددٌ من العلماء والمفكِّرين ينتمونَ إلى أقطارٍ عربية مُتعدِّدة، وقد صاحَبت الموسم الأوَّل المنعقد في أواخر شهر أيار ١٩٨٣م محاضراتٌ متنوِّعة، كان من بينها محاضرتان في التاريخ، هما: «مساهمة المغرب في الحضارة الإنسانية» للدكتور عبدالله گنون، و«تصنيف العلوم عند العرب» للدكتور إحسان عبَّاس[١]، إضافةً إلى محاضرةٍ ثالثة تقتربُ من علم التاريخ كثيراً، قدَّمها المحقِّق المصريّ المعروف عبدالسلام هارون (ت١٩٨٨م)، الذي أغنى المكتبة العربية بتحقيقاته النقديَّة للنُّصوص التراثية، بعنوان: «تجربتي مع التراث العربي»[٢]، وأقامها على مَسْربين، تتبَّع في الأول منهما مفهوم «إحياء التراث» تاريخياً، وتقرَّر عنده أنها فكرةٌ قديمة تولَّاها الورَّاقونَ والنُّسَّاخ ومُلَّاك الخزائن والمكتبات في البيوت والقصور، واستعرضَ في المسرب الثاني من محاضرته مسيرته في تحقيق النصوص التراثية المتنوّعة؛ في الأدب والتاريخ وغيرهما من العلوم والمعارف، والمشاكلَ التي اعترضته، وهي تجربة غنيّة أتاحَت له التقعيد لعلم التحقيق في دراسته الموسومة: «تحقيق النصوص ونشرها»، التي تُعد -إلى جانب محاضرات المستشرق الألماني جوتهلف برجستراسر Gotthelf Bergsträesser (ت١٩٣٣م) التي ألقاها على طلبة

(١) **الموسم الثقافي الأول**، ١٩٨٣م، ص٣٩-٦٤، ٦٧-٩٨، وانظر مجلـــة المجمع، س٦، ع١٩-٢٠، كانون الثاني- حزيران ١٩٨٣م، ص٢٢٨، وأعيد نشره في العدد الخاص الصادر في الذكرى الأربعين لتأسيس المجمع، ٢٠١٦م، ص٢٢٧-٢٦٠.

(٢) الموسم الثقافي الأول، ١٩٨٣م، ص١٠١-١٢٨، وأعيد نشر البحث في العدد الخاص الصادر في الذكرى الأربعين لتأسيس المجمع، ٢٠١٦م، ص٢٦١-٢٨٧.

الدراسات العليا بجامعة القاهرة ونُشرت فيما بعد[١]– من أوائل الدراسات في هذا الباب، ولا تزال مَحظيَّة بالقبول والاحترام لدى الدارسين منذ صدور الطبعة الأولى في سنة ١٩٥٤م.

وتضمن الموسم الثقافيّ الخامس سنة ١٩٨٧م محاضرةً بعنوان: «كتابة التاريخ عند العرب: الفكرة والمنهج»، للدكتور عبدالعزيز الدوري[٢]. وكان الموسم الثقافيّ التاسع سنة ١٩٩١م تحت عنوان «تعريب التعليم الجامعي في الأردن ضرورة قوميَّة وتنمويَّة»، والموسم الثقافيّ العاشر سنة ١٩٩٢ تحت عنوان «اللُّغة العربية ودورها في تأكيد هوية الأُمَّة العربية ووحدتها»، والموسم الحادي عشر سنة ١٩٩٣ بعنوان «دور اللُّغة العربية في بناء المجتمع العربي ونهضة الأُمَّة العربية»، وأعدَّ المحاضرة الأولى المؤرِّخ عبدالعزيز الدوري، بعنوان: «دور اللُّغة العربية في توحيد الأُمَّة العربية ونهضتها»[٣]، استدْعَى فيها التاريخ بأعْونِ الأسباب والشواهد الدالَّة على أثر اللُّغة العربية في عروبة أقاليم الدولة الإسلامية في العصور الإسلامية المتعاقبة.

وخُصص الموسم الثقافيّ الثالث عشر سنة ١٩٩٥م للبحث في جوانبَ من تاريخ فلسطين المعاصر تحت الاحتلال الإسرائيلي، وخاصة بعد حرب ١٩٤٨م، وحمل عنوان «الهويَّة العربية الإسلامية في فلسطين تحت الاحتلال اليهودي من

---

(١) برجستراسر، جوتهلف: **أصول نقد النصوص ونشر الكتب**، [أعدها وقدم لها] محمد حمدي البكري، القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦٩م.

(٢) **الموسم الثقافي الخامس**، عمان: مجمع اللغة العربية الأردني ١٩٨٧م، ص٧١–٩٥.

(٣) **الموسم الثقافي الحادي عشر**، عمان: مجمع اللغة العربية الأردني ١٩٩٣م، ص١١–٢٧.

سنة ١٩٤٨م إلى سنة ١٩٩٤م». واشتمل الموسم على خمس محاضرات، هي: «المؤسَّسات الثقافيّة العربية: الجمعيَّات والنوادي، والصحافة، والأفلام...إلخ في فلسطين تحت الاحتلال اليهودي ١٩٤٨-١٩٩٤م»، للدكتور تيسير جبارة[١]، و«الاقتصاد العربي الفلسطيني تحت الاحتلال اليهودي ١٩٤٨-١٩٩٤م»، للدكتور عبدالفتاح أبو شكر[٢]، و«طمس المعالم العربية والإسلامية وتهويدها في فلسطين تحت الاحتلال اليهودي ١٩٤٨-١٩٩٤م»، للدكتور حسن عبدالقادر صالح[٣]، و«اللُّغة العربية في التعليم العام العالي في فلسطين تحت الاحتلال اليهودي من ١٩٤٨-١٩٩٤م»، للدكتور ناجي عبدالجبار[٤]، و«المناهج والكتب المدرسية في المدارس العربية في فلسطين تحت الاحتلال اليهودي ١٩٤٨-١٩٩٤م»، للدكتور عبداللطيف البرغوثي[٥].

وفي الموسم السادس عشر، المنعقد سنة ١٩٩٨م بعنوان: «تيسير اكتساب اللُّغة العربية» بحثٌ في التاريخ العلميّ العربي بعنوان «نشأة اللُّغة العربية العلميَّة وتطوّرها»، أعدّه العالم الرياضي المصريّ رشدي راشد، تتبَّعَ فيه البدايات الأولى

(١) **الموسم الثقافي الثالث عشر**، عمان: مجمع اللغة العربية الأردني، ١٩٩٥م، ص١٧-٦٠.

(٢) نفسه، عمان: مجمع اللغة العربية الأردني، ١٩٩٥م، ص٦٩-١١٨.

(٣) نفسه، عمان: مجمع اللغة العربية الأردني، ١٩٩٥م، ص١١٩- ٢٥٧.

(٤) نفسه، عمان: مجمع اللغة العربية الأردني، ١٩٩٥م، ص٢٦٣-٣٢٦.

(٥) نفسه، عمان: مجمع اللغة العربية الأردني، ١٩٩٥م، ص٣٢٧-٣٩٠.

لنشأة التأليف العربي والترجمة من الثقافات الأخرى في حقل العلوم البحتة والتطبيقيّة، وملامح تطوّرها[١].

وعايَن الموسم التاسع والعشرون مسألة التطورات على الساحة العربية عقب تفجُّر الثورات العربية التي أطلق عليها اسم: «الربيع العربي»، وأبانَت بعضُ بحوث الموسم الذي أقيم في عام ٢٠١١م تحت عنوان: «اللُّغة العربية ووحدة الأُمَّة»، عن أهمية اللُّغة العربية في وجود العرب السياسي في التاريخ المعاصر، بوصفها ثانية الركائز في قيام الوحدة التي طالَب بها شباب هذه الثورات، فتداخَلَت فيه البحوث اللغوية بالسياسة والتاريخ، وخاصّة ما تضمّنته دراسة الدكتور حسن نافعة الموسومة بـ: «اللُّغة العربية والأمن القومي العربي والقرار السياسي»[٢]، ودراسة الدكتور سالم المعوش بعنوان: «دور اللُّغة العربية في بناء المجتمع العربي وتطوّره»[٣]، التي توسَّع فيها وأصدرها فيما بعد في كتاب مستقلّ وبالعنوان ذاته[٤].

وتناول الموسم الثقافيّ السادس والثلاثون لسنة ٢٠١٨م وعنوانه: «اللُّغة العربية والنهوض بالأُمَّة»، محورَين تاريخيَّين، تضمّن الأوّل منهما دراستَيْن عن

---

(١) **الموسم الثقافي السادس عشر**، عمان: مجمع اللغة العربية الأردني، ١٩٩٨م، ص١١٩-١٣٨.

(٢) **الموسم الثقافي التاسع والعشرون**، عمان: مجمع اللغة العربية الأردني، ٢٠١١م، ص١٥-٤١.

(٣) نفسه، عمان: مجمع اللغة العربية الأردني، ٢٠١١م، ص٣١٩-٤٣٠.

(٤) المعوش، سالم: **دور اللُّغة العربية في بناء المجتمع العربي وتطوّره**، بيروت: مؤسسة الرحاب للطباعة والنشر، ٢٠١٥م.

القدس، أولاهما: «القدس والأُمَّة» للدكتور علي محافظة[١]، وحَوْصَلَ فيها حضور المدينة في الوجدان العربي «المسيحي والمسلم»، ورصد مسيرة الدفاع عنها وتخليصها من الاحتلال في حقبٍ تاريخيَّة مُتعدّدة، وخاصّة الفتح الصلاحيّ لها زمن الصليبيِّين، ومسيرة النضال لتحريرها من الاحتلال الإسرائيلي في التاريخ المعاصر، وحَمَلَت الدراسة الثانية العنوان ذاته: «القُدس والأُمَّة» للدكتور محمد الخلايلة[٢]، عايَن فيها البُعدَ الديني للمدينة في أذهان المسلمين وعقيدتهم، ولم يغفُل في عرض محاورها عن اسْتدعاء التاريخ وتتبُّع مسيرتها عبر العصور التاريخيَّة المتعاقبة، قبل البعثة وبعدها، وصولاً إلى التاريخ المعاصر.

أما المحور الثاني الذي تناوله الموسم، وله اتِّصالٌ وثيقٌ بالتاريخ العلميّ العربي، فقد تضمَّن دراستين حول تحقيق التراث المخطوط حملتا العنوان ذاته «تحقيق التراث: ما له وما عليه»، أعدَّ الدراسة الأولى الدكتور صلاح جرار[٣]، والثانية للدكتور أنور أبو سويلم[٤]، وتناولت كلتا الدراستين جُملة من المشاكل التي تعتري عملية تحقيق النصوص التراثية، ونوّهت كلتاهما بغنى ما تركه العرب

(١) **الموسم الثقافي السادس والثلاثون**، عمان: مجمع اللغة العربية الأردني، ٢٠١٩م، ص١٥-٥٨.

(٢) نفسه، عمان: مجمع اللغة العربية الأردني، ٢٠١٩م، ص٥٩-٧٤.

(٣) نفسه، عمان: مجمع اللغة العربية الأردني، ٢٠١٩م، ص٧٥-١٠٢.

(٤) نفسه، عمان: مجمع اللغة العربية الأردني، ٢٠١٩م، ص١٠٣-١١٧.

والمسلمون من إرثٍ علميّ ومُساهمة حضاريّة في تطوُّر العُلوم والمعارف، بما يقتضي حُسن التعامل معه وإخراجه مُحقَّقاً وفقَ القواعد العلميَّة المعتبَرة عند أهل الصَّنْعَة وعلى أكْمل الوجوه.

ويلحقُ بهذين البحثين، رصدُ الدكتور عبدالمجيد نصير، الذي أجراه للبحوث المتعلّقة بالتراث العربي والإسلامي التي وقَعَ بحثُها في محاضرات المواسم الثقافيَّة الخمسة والعشرين الأولى المنعقدة في السنوات (١٩٨٣-٢٠٠٦م)، وقدَّم فيه قائمةً باثنيْ عشرَ بحثاً تقع ضمن هذا الإطار[١].

وقد تقدَّمت الإشارة إلى الموسم الثقافيّ الثامن والثلاثين لسنة ٢٠٢٠م[٢]، الذي خصَّصه المجمع لاستذكار علمَيْن من أعلامه ممَّن توفَّاهم الله، هما الدكتور عبدالكريم خليفة، والدكتور محمد حمدان، بما يجعل مادَّة هذا الموسم تقع في نطاق علم التراجم، وتضمّنت أوراقه تعريفاً بمسيرتهما العلميَّة والعمليَّة وجُهودهما في البحث العلميّ.

المؤتمرات السنوية:

باشَرَ المجمعُ منذ العام ٢٠١٧م بعَقْدِ مُؤتمراتٍ سنويَّة، تنتظمُ بحوثها تحت عنوان محدَّد يقع اختياره والاستكتاب حوله. واقتصَرَت موضوعات المؤتمرات الأربعة التي أُقيمت في السنوات ٢٠١٧م، ٢٠١٨م، ٢٠١٩م، ٢٠٢٠م على

---

(١) نصير، عبدالمجيد: "**التراث العلمي العربي الإسلامي في المواسم الثقافيَّة لمجمع اللغة العربية الأردني؛ دراسة وتحليل**". الموسم الثقافي الخامس والعشرون، عمان: مجمع اللغة العربية الأردني، ٢٠٠٧م، ص٦٥-١١١.

(٢) **الموسم الثقافي الثامن والثلاثون**، عمان: مجمع اللغة العربية الأردني، ٢٠٢١م.

موضوعاتٍ متخصّصة في اللُّغة العربية والنحو والبلاغة وقضاياها المعاصرة، وغابَ التاريخُ عن التناول في أوراقها، وإن كانت بعض الأوراق المشاركة لا تخلو من بُعد تاريخيّ وفكريّ؛ خاصة فيما يتَّصل بمسائل الهوية الثقافيَّة في بعض الأقطار العربية.

الكتب العلميَّة:

اتَّجهَت جهودُ المجْمَع لأوَّل تأسيسه إلى تعريب الكُتب العلميَّة وإتاحتها لطلبة الجامعات، خدمةً للغة العربية ومسايرتها لتطوُّر العلوم البحتة. وأصدرَ المجمع في سنواته العشْر الأولى مجموعةً من الكُتب المترجمة، في مجالات: الرياضيات والكيمياء والفيزياء والجيولوجيا والبيولوجيا والطب، بلغ عددها تسعةَ عشرَ كتاباً[١].

أما الكتب والمؤلفات التي لها اتِّصال بالتاريخ، فقد تقدَّمت الإشارة إلى النشرة المعرَّبة من كتاب «آثار الأردن» للانكستر هاردنج، التي أصدرتها اللَّجنة الأردنية للتعريب، وهي اللَّجنة التي اندرَجَت فيما بعدُ تحت مظلَّة المجمع. كما أصدر المجْمع أوَّل مُعجم عربيّ من نوعه وهو «معجم ألفاظ الحياة العامَّة في الأردن»[٢].

---

(١) انظر قائمة بالكتب العلميَّة المترجمة لدى: عابد، عبدالقادر: "**دور مجامع اللغة العربية في تعريب المصطلحات العلميَّة**"، **مجلة مجمع اللغة العربية الأردني**، العدد الخاص في الذكرى الأربعين لتأسيس المجمع، ٢٠١٦م، ص٢٠٠-٢٠٢.

(٢) بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ٢٠٠٦م. وانظر حول هذا المشروع: عبابنة، جعفر: "**معجم ألفاظ الحياة العامة في الأردن: ما له وما عليه**"، الموسم الثقافي الثالث والثلاثون، عمان: مجمع اللغة العربية الأردني، ٢٠١٥م، ص١٥-٣٢.

وأصدر المجمع مؤخَّراً كتاباً كبيراً، على قدرٍ من الأهميّة والفائدة، يؤرِّخُ لجملةٍ من العلوم البحتة «التقنية» وتطوُّرها في الحضارة العربية والإسلامية، ممَّا يقع ضمن دائرة المصطلَح التاريخيّ «العلوم العقلية»، وعُنوانُه: «تاريخ العلوم والتكنولوجيا في الحضارة العربية الإسلامية»(١)، اشتمل على دراسات مُستقلَّة لكل علم من العلوم التي طرَقَها الكتاب، وتصدَّرت الكتابَ دراسةٌ حولَ تطوُّر العلوم البحتة في الحضارات الإنسانيَّة المختلفة، ودراسةٌ أخرى، قيّمة وضافية، حول مسيرة التعريب ونَقْل العلوم من مختلف اللُّغات إلى اللُّغة العربية، فيها تَعْداد لأبرز مدارس الترجمة في التاريخ العربي والتعريف بالمترجمين الأوائل، وكيفيّة تعاملهم مع المصطلح العلميّ عند تعريبه.

أرَّخَ الكتابُ لبعض العلوم التي تطوَّرت في الحضارة العربية والإسلامية، أعدَّها أساتذة مختصُّون في الحقول موضع البحث، وهي: الطبّ البشريّ والبيطرة والأدوية والعقاقير، والزراعة «الفلاحة»، والتقانة «التكنولوجيا» وصناعة الآلات، والعمارة، والرياضيات، والفلك، والكيمياء، والعلوم الحياتية، وعلوم الأرض «الجيولوجيا»، والجغرافيا.

والأمل في أنْ يُواليَ المجمَع استكمال هذا الجهد الكبير والمقدَّر، ويَقْفيهِ بكتابٍ آخر يستوفي فيه البحث والتوسُّع في بعض العلوم التي وقع تناولها على وجه

(١) تحرير: عبدالقادر عابد، وسرى سبع العيش، عمان: مجمع اللغة العربية الأردني، ٢٠٢٠م، ويشار إلى أن الدكتور عبدالقادر عابد الذي اشترك في تحرير الكتاب، قد أعد أيضاً دراستين من موضوعات الكتاب، وهو أستاذٌ في علم الجيولوجيا وعضوٌ في المجمع، وقد توفاه الله في هذا العام ٢٠٢١م، يرحمه الله.

العموم، كالعلوم الطبيَّة التي تحتاج إلى تقسيم بحسب الاختصاص وفئات مُتعاطيه (طبُّ أهل البادية، الطبّ النبويّ، الجراحة والتشريح، الحجامة، معالجة الكسور، الأسنان...إلخ)، وكذا العمارة التي جاء البحث فيها عامّاً؛ أُغفلَت فيه العناصر الأساسية المكوِّنة للعمارة العربية من حيث التخطيط العمراني، ممَّا يُمكن الْتماسه على نحوٍ واضح من المدن الممصَّرة في صدر الإسلام، أو من المدن المستحدثة في مشرق العالم الإسلامي ومغربه، وهندسة الطُّرق، وكذا تقنيات البناء وموادّها وتطويعها بالحفر والهندام والمزج، وما يَلحقُ بها من أنظمة التبريد (البادهنج)، والإضاءة.

ويُستدَرَك فيه أيضاً العلوم «العقليَّة» الأخرى التي لم يقع بحثها، مثل: صناعة الورق والأحبار والمداد والأصباغ والأقلام وبَرْيها، وتقنيات المياه واستنباطها وروافعها ومدّ القنوات، وعلوم البحر والمراكب البحريّة، والموسيقى والحياكة والصناعات الخشبية «النجارة» وهي العلوم والصنائع التي أفردها ابن خلدون في مقدمته[1]، وإعداد الأطعمة والطبيخ ومُطيِّباته، والعلوم الحربية والعسكرية وآلاتها، والفنون الإسلامية الدقيقة كالزخرفة والرسم والخطوط، وعلوم المعادن المستخرجة من الأرض والبحر كالجواهر والأحجار الكريمة واللؤلؤ، وقد تعرَّضت دراسة عبدالقادر عابد في الجيولوجيا إلى بعض هذه المعادن على نحو مُقتضبٍ يقتضي التوسُّع في بيان طُرق الاستخراج والمعالجة والتطويع وبيان استخداماتها الرائجة في

(١) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ): **العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومَن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، [تحقيق] مجموعة من الباحثين بإشراف إبراهيم شبوح. تونس: القيروان للنشر، ٢٠٠٦-٢٠١٥م. ٢: ١٢٢-١٤٩.

حياة الناس[١]، وتجاوز البحث عن تناول مواد أخرى كالنفط والقار والحديد والنحاس.

كُتب التُّراث:

نصَّت المادَّةُ الرابعة من قانون المجمع على أن من أعمال المجمع ومهامه: «إحياء التراث العربي والإسلامي في اللُّغة والعلوم والآداب والفنون»، ومصطلح «إحياء التراث» مُتوجِّهٌ لتحقيق التراث وإخراجه من صورة المخطوط المغمور في المكتبات ودور المخطوطات إلى المطبوع المتاح لجمهرة الدارسين، وفق الضوابط المعتبرة والأُسس العلميَّة المعتمدة في التحقيق.

ورغم تشكيل لجنة للتراث في المجمع، وتكرُّر الدعوات في محاضرات المجمع وندواته لإنشاء وحدة لتحقيق التراث ونشره، فإن السُّبل الملائمة لقيام هذا المشروع لم تتهيَّأ حتى الآن.

ومن أقدم الإصدارات التراثية المحقَّقة كتاب رسائل أبي العلاء المعري، الذي حقَّقه الدكتور عبدالكريم خليفة، وجاء في ثلاثة أجزاء، وصَدَر عن اللَّجنة الأردنية للتعريب[٢].

أما المجمع فقد تبنَّى إصدار ثلاثة من الكتب التراثية المحقَّقة، اثنان منها في

---

(١) انظر: عابد، عبدالقادر: **إسهامات العرب المسلمين في علوم الأرض (الجيولوجيا)**، ضمن بحوث الكتاب المذكور، ص٥٤٨-٥٦٤.

(٢) رسائل أبي العلاء المعري [شرح وتحقيق] عبدالكريم خليفة، عمان: اللجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر، ١٩٧٦م.

علم الفلاحة، هما: كتاب «المقنع في الفلاحة» لابن حجَّاج الإشبيليّ[١]، نَجَز تحقيقُه باعتناء أستاذَين من أساتذة الأدب العربي، وبإشراف المؤرخ عبدالعزيز الدوري، والكتاب معدودٌ من المصادر العربية المبكِّرة في علم الزراعة وطُرق زراعة النباتات والأشجار، والثاني: كتاب «الفلاحة الأندلُسيَّة» ليحيى بن محمد المعروف بابن العوَّام الإشبيليّ (ت٥٨٠هـ)[٢]، اشترك في تحقيقه ثلاثةٌ من الأساتذة، وتصدَّرته دراسةٌ موسَّعة لهذا الأثر وبيان قيمته والتعريف بمؤلِّفه.

والكتاب التُّراثيّ الثالث الذي أصدره المجمع كان في طبِّ العيون، وهو: كتاب «معرفة محنة الكحالين»، ليوحنا بن ماسويه (ت٢٤٣هـ/٨٦٧م)[٣]، ولفظة المحنة تعني: الامتحان، وهو أثرٌ طبِّيٌّ مُبكِّر في علاج أمراض العيون ومُداواتها.

وقد قدَّم له المحقِّقان بدراسةٍ ضافية تقع في خمسة فصول، تناولَت تاريخ الطِّبّ العربيّ ونشأته والمؤثّرات في تطوّره، وحياة مؤلّف الكتاب ابن ماسويه ومُنجزاته العلميَّة، وفصلاً عن طبّ العيون الذي يقع هذا العمل ضمن دائرته. وعَقَدَ

---

(١) ابن حجاج الإشبيلي، أحمد بن محمد، أبو عمر (ت بعد ٤٦٧هـ): **المقنع في الفلاحة**. [تحقيق] صلاح جرار، جاسر أبو صفية، [إشراف] عبدالعزيز الدوري، عمان: مجمع اللغة العربية الأردني، ١٩٨٢م.

(٢) ابن العوام الإشبيلي، يحيى بن محمد بن أحمد (ت٥٨٠هـ): **الفلاحة الأندلسية**، [تحقيق] سمير الدروبي، وأنور أبو سويلم، وعلي المحاسنة، عمان: مجمع اللغة العربية الأردني، ٢٠١٢م. وانظر تعريفاً بهذه النشرة لدى: الدروبي، سمير: "**مجمع اللغة العربية الأردني وتحقيق التراث**"، **مجلة مجمع اللغة العربية الأردني**، العدد الخاص «في الذكرى الأربعين لتأسيس المجمع»، ٢٠١٦م، ص١٥٧-١٦٣.

(٣) ابن ماسويه، يوحنا (ت٢٤٣هـ/ ٨٦٧م): **معرفة محنة الكحالين**، [تحقيق ودراسة] نشأت الحمارنة، اكتمال رجب، عمان: مجمع اللغة العربية الأردني، ٢٠١٨م.

المحقِّقان فصلاً للتشبيك بين الزمن القديم والزمن الحاضر فيما يخصّ طبِّ العيون –وخاصّة التشريح–، ومُلاحظة التطوّر بتغيُّر بعض المصطلحات واستمرارية أخرى، وتَخْطئةِ بعض المفاهيم العلميَّة بظهور حقائق مُثْبَتة دَفَعت بعض النظريات القديمة وخطَّأتها. وأخيراً قدَّم المحقِّقان عرضاً لمادَّة الكتاب وطريقة المؤلّف ومنهجه في وضع الكتاب وبسط مادّته، تلاه نصّ الكتاب المحقّق.

ويُشار إلى جهود المجمع في نشر فهارس المخطوطات، إذ باشر في وقتٍ مُبكّر بنشر سلسلة من فهارس المكتبات التراثيَّة الفلسطينيّة بهدف الحفاظ عليها من عبث الاحتلال وتسرُّب مُقتنياتها، فأُعدَّت فهارس دالَّة بمقتنيات بعض المكتبات الفلسطينية التي توفَّرت مادّتها في مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية[١]، وصدرت منها الفهارس التالية:

- مخطوطات فضائل بيت المقدس: دراسة وبيبليوغرافيا[٢].
- فهرس مخطوطات مكتبة الحرم الإبراهيميّ في الخليل[٣].

---

(١) انظر: الحمود: نوفان: "**الجامعة الأردنية ترصد الوثائق والمخطوطات «إنجازات وتطلعات»**"، ضمن كتاب: «بحوث ودراسات مقدمة للجامعة الأردنية في عيدها الخمسين»، [تحرير] محمد عدنان البخيت وآخرين، عمان: الجامعة الأردنية، ٢٠١٥م، ص٢٦٢، وانظر حول فهارس المخطوطات التي أصدرها المجمع وعرضاً لمحتوياتها لدى: الدروبي، سمير: مجمع اللغة العربية الأردني وتحقيق التراث، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد الخاص «في الذكرى الأربعين لتأسيس المجمع»، ٢٠١٦م، ص١٤٣–١٤٧.

(٢) إعداد كامل العسلي، عمان: مجمع اللغة العربية الأردني، ١٩٨١م.

(٣) إعداد: محمود علي عطا الله، عمان: مجمع اللغة العربية الأردني، ١٩٨٣م.

- فهرس مخطوطات مكتبة الحاج نمر النابلسيّ في نابلس[١].
- فهرس المكتبة الإسلاميّة في يافا[٢].
- فهرس مخطوطات المكتبة الأحمدية في عكا[٣].
- فهرس مخطوطات كلية الدعوة وأصول الدين في القُدس[٤].
- فهرس المخطوطات المحفوظة في مجمع اللُّغة العربية الأردني[٥].

خاتمة:

سار مجمع اللُّغة العربية الأردنيّ، من خلال مجلّته ومواسمه الثقافيَّة وأنشطته المتعدّدة، على سَنَن مَن تقدّمه من المجامع العربية، في عدم الانغلاق الضيّق في دائرة البحوث المتخصّصة باللُّغة العربية وَحْدَها، وإنما بالتوسُّع باسْتيعاب الكثير من الدراسات والبحوث التي تنتمي إلى علومٍ أخرى، كان من بينها علم التاريخ، الذي نال حيّزاً مُقدَّراً من أعمال المجمع ومشاريعه.

وإضافة لما تضمّنته منشورات المجمع وأنشطته المتعدِّدة من بحوث تاريخيَّة، ممَّا تقدَّم الإلماع إليه، فإن المتابَعَة لمسيرة المجمع وأعماله التي تضمّنتها أعداد المجلة والمواسم الثقافيَّة قد أرَّخت للمجمَع نفسه، باعتباره مؤسّسة وطنية وعربية حمَلَت –إلى جانب نظيراتها في الوطن العربي– هَمّاً قوميّاً وبُعداً حضاريّاً وفكريّاً. ولقد اشتمل الباب الأول من العدد الخاصّ الصادر من المجلَّة بمناسبة الذكرى

(١) إعداد: محمود علي عطا الله، عمان: مجمع اللغة العربية الأردني، ١٩٨٣م.
(٢) إعداد: محمود علي عطا الله، عمان: مجمع اللغة العربية الأردني، ١٩٨٤م.
(٣) إعداد: محمود علي عطا الله، عمان: مجمع اللغة العربية الأردني، ١٩٨٣م.
(٤) إعداد: أحمد العلمي، عمان: مجمع اللغة العربية الأردني، ١٩٨٦م.
(٥) إعداد: محمد علي العناسوة، عمان: مجمع اللغة العربية الأردني، ١٩٩٨م.

الأربعين لتأسيس المجمع على شهاداتٍ حول المجمع؛ أرَّخَت له في النشأة والمسيرة، كتَبَها أربعة من الأساتذة الذين لازموا مسيرته منذ تأسيسه، في مقدّمتهم: الدكتور عبدالكريم خليفة، الرئيس السابق للمجمع، والدكتور إسحاق الفرحان (ت٢٠١٨م)، والدكتور همام غصيب، والدكتور عبداللطيف عربيات (ت٢٠١٩م)[١].

(١) مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد الخاص بمناسبة الذكرى الأربعين لتأسيس المجمع، ٢٠١٦م، ص١٣-٣٥.

ملحق (١)

مسردٌ بالبحوث التاريخيَّة المنشورة في مجلة مجمع اللُّغة العربية الأردني

اسم البحث	الباحث	موضوعه	العدد
ابن رشد في أدبه	عبدالكريم خليفة	تراجم العلماء/ الأدب، الفكر	مج١، ع١، كانون الثاني ١٩٧٨م، ص٥-٤٨.
نشأة الثقافة العربية الإسلامية «نظرة إلى العراق»	عبدالعزيز الدوري	تاريخ العلوم العربية والإسلامية، نشأتها وتطورها في القرون الأولى	مج١، ع١، كانون الثاني ١٩٧٨م، ص٤٩-٧٨. وأعيد نشره في العدد الخاص «في الذكرى الأربعين لتأسيس المجمع»، ٢٠١٦م، ص٣٠٧-٣٤٥.
الأندلس في المغرب	عيسى الناعوري	العمارة والفنون الزخرفية الأندلسية وتأثيرها في عمارة المغرب	مج١، ع١، كانون الثاني ١٩٧٨م، ص٧٩-١٠٩.
أحداث طرابلس الشام ١٠١٥-١٠١٦هـ/ ١٦٠٦-١٦٠٧م	محمد عدنان البخيت	التاريخ العثماني/ السياسي	مج١، ع١، كانون الثاني ١٩٧٨م، ص١٧١-٢٠٦.
في العربية التاريخية	إبراهيم السامرائي	تاريخ اللغة العربية	مج١، ع٢، تموز ١٩٧٨م، ص٧-٢٨.
الثنائية والميزان الصرفي في اللغات العربية في الجزيرة العربية	باكزة رفيق حلمي	تاريخ اللغة العربية	مج١، ع٢، تموز ١٩٧٨م، ص٥٨-٧٨.
من تاريخ حيفا العُثمانيَّة «دراسة في أحوال عمران الساحل الشامي»	محمد عدنان البخيت	التاريخ العثماني، الجغرافية التاريخية	مج١، ع٢، تموز ١٩٧٨م، ص١١٢-١٣٧.

كتب الأنساب وتاريخ الجزيرة	عبدالعزيز الدوري	الأنساب، التاريخ العربي	س٢، ع٥-٦، أيار - كانون الأول ١٩٧٩م. ص٥-٢٩.
الباحثون الإيطاليون ودراسة التاريخ العربي	أمبرتو ريتستانو/ ترجمة: عيسى الناعوري	التاريخ العلمي/ التاريخ العربي والإسلامي في مختلف العصور	س٢، ع٥-٦، أيار - كانون الأول ١٩٧٩م. ص١٦٧-٢٠٥.
العرب وتراث فارس في العصر الحديث	يوسف بكار	التاريخ العلمي/ ترجمة التراث الفارسي إلى العربية	س٣، ع٧-٨، كانون الثاني - تموز ١٩٨٠م. ص٦٤-١٠٤.
كشف الخفاء في البيعة لعلي الرضا	محمد ضيف الله بطاينة	التاريخ العباسي/ الخلافة	س٣، ع٧-٨، كانون الثاني - تموز ١٩٨٠م. ص١٠٥-١١٧.
المستعمرات الألمانية في فلسطين	علي محافظة	التاريخ العربي الحديث/ الاستعمار	س٣، ع٩-١٠، آب - كانون الأول ١٩٨٠م، ص٤٦-٩٩.
نهاية الثغور الشامية	مصطفى الحياري	التاريخ العباسي/ الصراع البيزنطي	س٤، ع١١-١٢، كانون الثاني - حزيران ١٩٨١م. ص٢١-٤٢.
رأي في تحديد عصر الراغب الأصفهاني	عمر الساريسي	تراجم الأدباء	س٤، ع١١-١٢، كانون الثاني - حزيران ١٩٨١م. ص٤٣-٧٦.

التراث الفكري في غابر اليمن وحاضرها	إسماعيل بن علي الأكوع	التاريخ الفكري والعلمي/ اليمن	س٤، ع١١-١٢، كانون الثاني - حزيران ١٩٨١م. ص٧٧-٩١.
الهجرة النبوية واليهود في الجزيرة العربية	إبراهيم القطان	السيرة النبوية/ تاريخ الجزيرة العربية	س٤، ع١٣-١٤، تموز - كانون الأول ١٩٨١م، ص٥-٣٨.
المنشآت الصحية بالمغرب عبر التاريخ	عبدالهادي التازي	تاريخ المغرب العربي	س٤، ع١٣-١٤، تموز - كانون الأول ١٩٨١م، ص٦٨-٧٥
المثل والقيم الأخلاقية في الشعر الجاهلي	عفيف عبدالرحمن	التاريخ العربي الاجتماعي قبل الإسلام	س٤، ع١٣-١٤، تموز - كانون الأول ١٩٨١م، ص١٢٧-١٥٨.
الأوقاف الإسلامية بجوار المسجد الأقصى «أصلها وتاريخها واغتصاب إسرائيل لها»	عبداللطيف الطيباوي	تاريخ فلسطين/ نقد لترجمة كتاب	س٤، ع١٣-١٤، تموز - كانون الأول ١٩٨١م، ص٢٠٦-٢٢٧.
شعراء الدعوة الإسلامية في عهد الرسول	حاتم غنيم	التاريخ الإسلامي/ السيرة النبوية	س٥، ع١٥-١٦، كانون الثاني - حزيران، ١٩٨٢م. ص٥-٦١.
أهمية طبقات الدرجيني في دراسة التاريخ الإسلامي	عوض خليفات	التاريخ الإسلامي/ الإباضية	س٥، ع١٥-١٦، كانون الثاني - حزيران، ١٩٨٢م. ص١٠٢-١٣٦.
التراث العربي: لماذا نحققه، وكيف؟	أحمد سعيدان	التراث العربي المخطوط	س٧، ع٢٣-٢٤، كانون الثاني - حزيران ١٩٨٤م. ص٧-١٩.

مع أسماء الأعلام العربية الإسلامية	إبراهيم السامرائي	التراجم العربية	س٨، ع٢٥-٢٦، تموز - كانون الأول، ١٩٨٤م، ص٣٥-٤٣.
المرجئة في خراسان في العصر الأموي	حسين عطوان	التاريخ الإسلامي/ الفرق	س٩، ع٢٨-٢٩، تموز - كانون الأول ١٩٨٥م، ص٥-١٠٦.
في أيام غسان مع الأحاليف في الشعر الجاهلي	نصرت عبدالرحمن	تاريخ العرب قبل الإسلام	س١٠، ع٣٠، كانون الثاني - حزيران، ١٩٨٦م. ص٩٧-١٥٢.
مخاليف اليمن عند الجغرافيين المسلمين	إسماعيل بن علي الأكوع	الجغرافية التاريخية/ اليمن	س١١، ع٣٢، كانون الثاني - حزيران ١٩٨٧م. ص٩-١١٢.
جزيرة شقر الأندلسية (المكان والزمان) في الأدب الأندلسي	صلاح جرار	الجغرافيا التاريخية/ الأندلس	س١٢، ع٣٤، كانون الثاني - حزيران ١٩٨٨م، ص١٥١-١٩٦.
مع التاريخ المنصوري: «تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان لابن نظيف الحموي»، تحقيق أبو العيد دودو	إبراهيم السامرائي	التاريخ الإسلامي/ نقد الكتب	س١٢، ع٣٥، تموز - كانون الأول ١٩٨٨م، ص٢٨٥-٣١٨.
ابن الزكي وخطبته القدسية	عبدالجليل عبدالمهدي	التاريخ الإسلامي/ الحروب الصليبية	س١٣، ع٣٦، كانون الثاني - حزيران ١٩٨٩م، ص١٧٦-٢٣٢.
المرأة في بلاد الشام: متعلمة ومعلمة	عبدالجليل عبدالمهدي	التاريخ الإسلامي/ المرأة الشامية/ التاريخ العلميّ	س١٤، ع٣٨، كانون الثاني - حزيران ١٩٩٠م، ص٣٥-٧٦.

صورة عاد في الشعر الجاهلي	أنور أبو سويلم	تاريخ العرب قبل الإسلام	س١٤، ع٣٩، تموز – كانون الأول ١٩٩٠م، ص١٢٣–١٥٤.
التاريخ الدبلوماسي للمغرب	عبدالهادي التازي	التاريخ السياسي/ المغرب العربي/ نقد الكتب	س١٤، ع٣٩، تموز – كانون الأول ١٩٩٠م، ص٢٥٧–٢٨٠.
ابن عطية الكاتب: حياته ورسائله	محمد مجيد السعيد	تراجم الكُتَّاب	س١٥، ع٤٠، كانون الثاني – حزيران ١٩٩١م، ص١١–٨٠.
تراث لحن العامة مصدراً من مصادر المعجم التاريخي	أحمد محمد قدور	تاريخ اللغة	س١٥، ع٤٠، كانون الثاني – حزيران ١٩٩١م، ص٨١–١٠٦.
تعريف بالوثائق البردية العربية وأهميتها في دراسة التاريخ الإسلامي	فالح حسين	التاريخ الإسلامي/ البرديات العربية	س١٥، ع٤٠، كانون الثاني – حزيران ١٩٩١م، ص١٠٧–١٣٢.
النقد الاجتماعي في الشعر الشامي في عصر الحروب الصليبية	شفيق محمد الرقب	التاريخ الإسلامي/ الحروب الصليبية	س١٥، ع٤٠، كانون الثاني – حزيران ١٩٩١م، ص١٥٩–١٨٥.
المدارس والمعاهد العليا؛ دورها في النهضة العربية الحديثة	صالح الخرفي	تاريخ العرب الحديث/ التاريخ العلميّ	س١٥، ع٤١، تموز – كانون الأول ١٩٩١م، ص١١–٥٤.
نصوص تراثية حول وجود محتسب في المجتمع القرشي قبل الإسلام	إحسان صدقي العمد	تاريخ العرب قبل الإسلام	س١٥، ع٤١، تموز – كانون الأول ١٩٩١م، ص٥٥–٧٨.

حركة الوراقين في الحضارة العربية الإسلامية	ربحي مصطفى عليان	التاريخ العلميّ	س١٥، ع٤١، تموز – كانون الأول ١٩٩١م، ص١٣١–١٦٠.
الكتب الأساسية في تاريخ العلوم الطبيعية عند العرب والمسلمين	لطف الله قاري	تاريخ العلوم الطبيعية	س١٦، ع٤٢–٤٣، كانون الثاني – كانون الأول ١٩٩٢، ص٢٥٧–٢٨١.
يحيى بن طالب الحنفي: حياته وشعره	علي إرشيد المحاسنة	تراجم الشعراء	س١٩، ع٤٨، كانون الثاني – حزيران ١٩٩٥م، ص١٦٧–٢١٠.
عبدالرحمن بن الهيثم، طليعة الأطباء النباتيين في الأندلس	فاضل السباعي	تراجم الأطباء	س١٩، ع٤٩، تموز – كانون الأول ١٩٩٥م، ص٢٧–٥٤.
أخطاء الوراقين والنقلة، وأثر ذلك في تشويه النصوص	فوزي الشايب	التاريخ العلميّ	س٢٠، ع٥٠، كانون الثاني – حزيران ١٩٩٦م، ص٩٩–١٢٢.
طرفة بن العبد: نحو تصحيح الإطار الزمني لحياة الشعراء الجاهليين	عرسان حسين الراميني	تراجم الشعراء	س٢١، ع٥٣، تموز – كانون الأول ١٩٩٧م، ص٨٥–١١٢.
أهل مكة وتطور المجتمعات «دلالات مفردات القرآن عليها»	صالح أحمد العلي	تاريخ العرب الاجتماعي	س٢٢، ع٥٤، كانون الثاني – حزيران ١٩٩٨م، ص١١–٥٦.
شعر الهجاء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية	شفيق الرقب	الحياة الاجتماعية في الشام/ الحروب الصليبية	س٢٢، ع٥٥، تموز – كانون الأول ١٩٩٨م، ص١٠٧–١٦٨.

عبدالله بن أيوب التيمي: حياته وشعره	رشدي علي حسن	تراجم الشعراء	س٢٢، ع٥٥، تموز – كانون الأول ١٩٩٨م، ص١٦٩-٢١٦.
الكعبة المشرفة في الشعر الجاهلي	عبدالغني زيتون	تاريخ العرب قبل الإسلام	س٢٣، ع٥٦، كانون الثاني – حزيران ١٩٩٩م، ص١١٧-١٦٨.
السيوطي ورسالته «فهرست مؤلفاتي» (العلوم الدينية) ١	سمير الدروبي	التاريخ العلميّ	س٢٣، ع٥٦، كانون الثاني – حزيران ١٩٩٩م، ص١٦٩-٢٢٤.
التأثير الإسلامي في كوميديا دانتي «قصة نظرية صارت حقيقة تاريخيَّة كبرى»	حكمة علي الأوسي	الفكر الإسلامي	س٢٣، ع٥٧، تموز – كانون الأول ١٩٩٩م، ص١١-٣٨.
السيوطي ورسالته «فهرست مؤلفاتي» (العلوم الدينية) ٢	سمير الدروبي	التاريخ العلميّ	س٢٣، ع٥٧، تموز – كانون الأول ١٩٩٩م، ص٩٩-١٤٨.
أبو عثمان سعيد بن حكم صاحب جزيرة منرقة	محمد دغيم	تاريخ الأندلس/ التراجم	س٢٤، ع٥٩، تموز – كانون الأول ٢٠٠٠م، ص١١-٤٢.
معركة القادسية في شعر صدر الإسلام	حمدي منصور	تاريخ صدر الإسلام	س٢٤، ع٥٩، تموز – كانون الأول ٢٠٠٠م، ص٤٣-٩٨.
محمد بن مسعود العزني وجهوده في النحو	محمد حسن عواد	تراجم النحاة	س٢٥، ع٦٠، كانون الثاني – حزيران ٢٠٠١م، ص٥٩-٨٢.

سماعات مؤلفات الصغاني اللغوية	أحمد خان	التاريخ العلميّ	س٢٥، ع٦٠، كانون الثاني . حزيران ٢٠٠١م، ص٨٣-١١٦.
طريقة القراءة عند المكفوفين بصرياً في قصائد من الشعر الأندلسي	صلاح جرار	التاريخ العلميّ	س٢٥، ع٦١، تموز – كانون الأول ٢٠٠١م، ص٧٧-١٠٤.
حركة الترجمة والتعريب في ديوان الإنشاء المملوكي «البواعث، واللغات، والمترجمات»	سمير الدروبي	التاريخ العلميّ/ العصر المملوكي	س٢٦، ع٦٢، كانون الثاني – حزيران ٢٠٠٢م، ص١٠-٧٠.
شعر ابن رواحة الحموي «الشاعر الشهيد»	سعيد عبدالجابر	تراجم الشعراء	س٢٦، ع٦٣، تموز – كانون الأول ٢٠٠٢م، ص١١-٤٩.
صحيفة الرسول صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة «دراسة لمحتواها، ودلالتها على تنظيمهم»	صالح أحمد العلي	السيرة النبوية/ تاريخ صدر الإسلام	س٢٧، ع٦٤، كانون الثاني – حزيران ٢٠٠٣م، ص١١-٢٧.
السيوطي ورسالته «فهرست مؤلفاتي» (علوم اللُّغة والنحو والبلاغة والأدب والتاريخ)	سمير الدروبي	التاريخ العلميّ	س٢٧، ع٦٤، كانون الثاني – حزيران ٢٠٠٣م، ص٢٩-٩٣.
أصناف التراجمة في ديوان الإنشاء المملوكي	سمير الدروبي	التاريخ العلميّ/ العصر المملوكي	س٢٧، ع٦٥، تموز – كانون الأول ٢٠٠٣م، ص١١-٤٣.

امرؤ القيس بن حُجْر «رحلته إلى الشرق أم الغرب؟» (القسم الأول)	ليلى العمري	تراجم الشعراء/ تاريخ العرب قبل الإسلام	س٢٧، ع٦٥، تموز – كانون الأول ٢٠٠٣م، ص١١٩–١٧٠.
امرؤ القيس بن حُجْر «رحلته إلى الشرق أم الغرب؟» (القسم الثاني)	ليلى العمري	تراجم الشعراء/ تاريخ العرب قبل الإسلام	س٢٨، ع٦٦، كانون الثاني – حزيران ٢٠٠٤م، ص١٥٧–١٨٧.
أهم صناعات الجاهليين كما تبدت في أشعارهم	حمدي منصور	تاريخ العرب قبل الإسلام/ التاريخ الاقتصادي	س٢٨، ع٦٧، تموز – كانون الثاني ٢٠٠٤م، ص١٢١–١٧٤.
الفتح والأرض في الأندلس	عبدالعزيز الدوري، غيداء خزنة كاتبي	تاريخ الأندلس	س٣١، ع٧٢، كانون الثاني – حزيران ٢٠٠٧م، ص٣٩–٧٠.
جماليات التصوير الفني عند الشعراء اللصوص في صدر الإسلام والعصر الأموي	سمير الديوب	التاريخ الاجتماعي/ صدر الإسلام والعصر الأموي	س٣١، ع٧٣، تموز – كانون الأول ٢٠٠٧م، ص١١–٤٥.
موقف الجاحظ من الثقافات الأجنبية	محمد محمود الدروبي	التاريخ العلميّ	س٣٤، ع٧٨، كانون الثاني – حزيران ٢٠١٠م، ص٤١–٨٠.
لهجات القبائل العربية في النقوش الواردة في القرآن الكريم والتراث	زياد طلافحة	التاريخ العربي قبل الإسلام	س٣٥، ع٨٠، كانون الثاني – حزيران ٢٠١١م، ص١٦٧–٢١١.

صور من النقد السياسي في أدب العصر المملوكي الأول: موقف السلطة من المثقف أنموذجاً	رائد عبدالرحيم	التاريخ العربي/ العصر المملوكي	س٣٧، ع٨٤، كانون الثاني – حزيران ٢٠١٣م. ص٤٩–١٢١.
بناء الأسطول الأموي «النشأة والتطور»	غيداء خزنة كاتبي	التاريخ العربي/ العصر الأموي	س٣٩، ع٨٩، كانون الأول ٢٠١٥م، ص٢٥٣–٣٣٦.
مشروع لكتابة المعجم التاريخي للاصطلاحات الطبية	نشأت حمارنة	التاريخ العلميّ	س٤٠، ع٩٠، حزيران ٢٠١٦م، ص٢٠٥–٢٦٧.
تصنيف العلوم عند العرب	إحسان عباس	التاريخ العلميّ	عدد خاص في الذكرى الأربعين لتأسيس المجمع، ٢٠١٦م، ص٢٢٧–٢٦٠.
تجربتي مع التراث العربي	عبدالسلام هارون	التراث العربي المخطوط	عدد خاص في الذكرى الأربعين لتأسيس المجمع، ٢٠١٦م، ص٦١–٢٨٧.
التوجه الفكري لعرب الجاهلية من خلال فن المحاورات النثري (كتابا الأغاني والسيرة النبوية أنموذجاً)	زاهر الشماع	الفكر العربي/ تاريخ ما قبل الإسلام	س٤١، ع٩٣، كانون الأول ٢٠١٧م، ص١٧–٥٧.
ما بين الأدب والسياسة: تحفة الوزراء لأبي منصور الثعالبي	سعد أبو دية	النظم الإدارية في الإسلام/ السياسة	س٤٢، ع٩٤، حزيران ٢٠١٨م، ص١٩٧–٢٢٥.
الرواية التاريخيَّة والذات الكاتبة: «القرمية لسميحة خريس نموذجاً»	حسن المجالي، حكمت النوايسة	التاريخ الحديث، الثورة العربية الكبرى	س٤٤، ع١٠١، نيسان – حزيران ٢٠٢٠م، ص١١–٣٦.

ثانياً: أبحاث مختارة من الموسم الثقافي ومجلة المجمع

ابن رشد في أدبه(*)

الأستاذ الدكتور عبدالكريم خليفة (ت٢٠٢٠م)

مقدمة

تهدف هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على جانب مهمّ من جوانب إنتاج عَلَمٍ من أعلام الفكر في حضارتنا العربية الإسلامية؛ وهذا الجانب يتمثل في "أدب" ابن رشد، وهو واحد من أشهر الكتّاب ومن أكثرهم خصباً وإنتاجاً.

وإن هذه الدراسة شائكة في نظرنا، وذلك لصعوبة الفصل بين مجال الفكر والفلسفة من ناحية، والأدب من ناحية أخرى. فإن مفاهيم الأدب وتعريفاته تتعدد وتختلف باختلاف الاتجاهات الفكرية والثقافية والاجتماعية عند الباحثين. وربما كان أهمَّ من ذلك كلّه أن نصل إلى مفهوم الأدب عند الكاتب ذاته. ليس من السهل أن تحدد مفهوم الأدب عند ابن رشد، دون النظر في فلسفته وفي مفهوم الأدب عند معلمه الأول "أرسطو".

أليس من الخطأ أن تعتبر مفهوماً واحداً للأدب، تحاول إقحامه على جميع أنشطة الفكر الإنساني؟ ... ألا تتداخل مفاهيم الأدب هذه بألوانه ومذاهبه؟..

(*) نُشر هذا البحث في العدد الأول من مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، سنة ١٩٧٨م.

لا شكَّ أن هناك فرقاً كبيراً بين أدبٍ واقعيٍّ تحتل فيه جدّيّة الفكر مكانة ممتازة، وأدبٍ لاهٍ يُضفي عليه الأديب رونق النكتة والظرف.

فقد كان ابن رشد جادّاً، وكانت الدراية أغلب عليه من الرواية. وبلغت جِدّيّته إلى الحد الذي عبَّر عنه صاحب كتاب التكملة بقوله: "...وعُنِيَ بالعلم مِن صغره إلى كبره، حتى حُكيَ عنه أنه لم يدع النظر ولا القراءة منذُ عَقِلَ إلا ليلة وفاة أبيه، وليلة بنائه على أهله...وأنه سَوَّدَ في ما صنَّفَ وقيَّدَ وألَّفَ وهذَّب واختصر نحواً من عشرة آلاف ورقة. ومال إلى علوم الأوائل، فكانت له فيها الإمامة دون أهل عصره"[١] ونحن لا يهمّنا في هذا المجال مدى دقة هذه الرواية، ولكنْ ما توحي به من نظرة ابن رشد الجادّة إلى الحياة وتحكيمه العقل، وذلك بغلبة الدراية عنده على الرواية...

فإذا نظرنا مثلاً إلى المساجلة الفكرية باعتبارها أحد الفنون الأدبية الراقية، ألا يحقُّ لنا أن نُصَنِّفَ في إطارها تلك المساجلة التي دارت بين ابن رشد والغزالي؟ فقد وصفها العقاد بقوله: "فلم يحفظ لنا تاريخ الفكر مساجلة بين حكيمين في قوة المساجلة التي دارت بين ابن رشد والغزالي، ومضاء سلاحها، ونفاذ حججها وبراهينها..."[٢].

---

(١) التكملة، ج٢، ص٥٥٤.

(٢) العقاد، ص٥٥.

وهنا يشير الكاتب في الواقع إلى معركتين فكريتين ما زال أثرهما العميق في التفكير الفلسفي الإسلامي. فقد أثار الأولى الغزالي في كتابه: "تهافت الفلاسفة" وأثار الثانية ابن رشد بكتابه: "تهافت التهافت".

وبالرغم من أن ابن رشد قد ذاع صيته لدى الإفرنج في مجالين أساسيين من المعرفة، هما الطبّ والفلسفة، فإنّ جوانبه الفكريّة والثقافية الأخرى لم تكن أقل إشراقاً؛ فهو على حد تعبير بعض الروايات، كما سنرى فيما بعد: "كان يُفْزَع إلى فتواه في الطبّ كما يُفْزَع إلى فتواه في الفقه، مع الحظ الوافر من الإعراب والآداب"(٣).

وإنّ الدارس للحركة العلمية في ذلك العصر، لا يَعجَب من هذا كله، فقد عاش ابن رشد في بيئة علمية عالية جمعت مشاهير عصره، يعينه على ذلك طبعٌ مؤاتٍ واستعداد فطريّ أصيل.

أمّا في مجال الحركة العلمية في الأندلس، ورغبةِ أهلها في العلم، فنحن نستذكر ما أورده المقّري، إذ قال: "وأمّا حال أهل الأندلس في فنون العلم، فتحقيق الإنصاف في شأنهم في هذا الباب، أنهم أحرص الناس على التميّز: فالجاهل الذي لم يوفّقه الله للعلم يجهد أن يتميَّز بصنعه، ويربأ بنفسه أن يُرى فارغاً عالة على الناس، لأن هذا عندهم في غاية القبح؛ والعالم عندهم معظَّمٌ من الخاصة

(٣) فرح، ص٢٧.

والعامة...فالعالم منهم بارع، لأنه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه، يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه، وينفق ما عنده حتى يعلم. وكلّ العلوم لها عندهم حظّ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم، فإن لهما حظّاً عظيماً عند خواصّهم، ولا يُتظاهَر بها خوف العامة. فإنّه كلما قيل "فلان يقرأ الفلسفة" أو "يشتغل بالتنجيم" أطلقت عليه اسم زنديق، وقيَّدَت عليه أنفاسه. فإن زلَّ في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أو يقتله السلطان تقرُّباً لقلوب العامة. وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت..."[٤].

إنّ ظاهرة التضييق على حرية الفكر، التي أشار إليها المقّري، قد أصابت بلهيبها ابن رشد ذاته في محنته التي حلَّت به في أُخريات عمره، وإنَّ هذه الظاهرة لم تكن في الحقيقة لتقتصر على الأندلس، بل امتدّت من مشرق دار الإسلام إلى مغربه الأقصى، وذلك في فترات معيّنة.

ولو ألقينا نظرة على أحداث الفترة الزمنية التي لقي بها ابن رشد محنته، لوجدنا أمثلة كثيرة في هراة وواسط ودمشق وبغداد[٥].

اسمه ونسبه وكنيته:

هو محمد بن أبي القاسم أحمد ابن أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد، يكنى أبا الوليد. وهو حفيد قاضي الجماعة بقرطبة[٦].

---

(٤) النفح، ج١، ص٢٠٥.

(٥) انظر العبر، ج٤، ص٢٨٥.

ولد بقرطبة سنة ٥٢٠هـ، ١١٢٦م. وأدرك من حياة جَدّه شهراً سنة عشرين[٧]. وقد اشتهر في أوروبا في القرون الوسطى باسم AVEROES[٨].

نشأ ابن رشد في بيت علم وفضل، وكان أبوه أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد أبو القاسم، قد تولَّى القضاء[٩]. وتتحدَّث المصادر عن نشأة أبي القاسم هذا، فتقول: "إنه من أهل بيت فقه وعلم"[١٠]. وربما ساهمت شهرة ابن رشد الحفيد وابن رشد الجَدّ، في قلّة المعلومات التي وصلتنا عن أبي القاسم. وتوفي والد ابن رشد سنة ٥٦٣هـ[١١]. وهذا يعني أن الأديب الفيلسوف ابن رشد، قد ذاعت شهرته العلمية في حياة والده.

أما جَدُّه محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد[١٢] فيُروَى أن أصله من بلدة سرقسطة[١٣]. وكان قاضي الجماعة بقرطبة، وصاحِبَ الصلاة بالمسجد الجامع بها، يكنى أبا الوليد... وكان قطبها، عالماً حافظاً للفقه، مقدَّماً فيه على جميع أهل

---

(٦) النباهي، ص١١١. انظر: ابن أبي أصيبعة، ص٥٣٠، ج١، ص١٠٥.

(٧) العبر، ج٤، ص٢٨٧، شذرات الذهب، ج٤، ص٣٢٠.

(٨) Encyclo. Vol. II, P.410-413

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) بغية الملتمس، ص١٥٦.

(١١) المصدر نفسه.

(١٢) النباهي، ص٩٨.

(١٣) الصلة، ج٢، ص٥٧٦، عن هامش الأصل، قال عمر بن دحية: أصله من بلدة سرقسطة.

عصره، عارفاً بالفتوى على مذهب مالك وأصحابه، بصيراً بأقوالهم واتّفاقهم واختلافهم، نافذاً في علم الفرائض والأصول، من أهل الرياسة في العلم والبراعة والفهم مع الدين والفضل والوقار والحلم والسمت، والهدي الصالح.

ويستمرّ صاحب كتاب الصلة فيقول: "سمعت الفقيه أبا مروان عبدالملك بن مسرة صاحبنا أكرمه الله، ومكانه من العلم والفضل والثقة مكانه، يقول: شاهدت شيخنا القاضي أبا الوليد، رحمه الله، يصوم يوم الجمعة دائماً في الحضر والسفر"(١٤).

ولد أبو الوليد ابن رشد (الجد) في شوال سنة ٤٥٠ هـ(١٥). وقد روى عن أبي جعفر أحمد بن رزق الفقيه، وعن أبي مروان ابن سراج، وأبي عبدالله بن خيرة، وأبي عبدالله محمد بن فرج، وأبي علي الغساني، وأجاز له أبو العباس العذري ما رواه(١٦).

وتَقَلَّد أبو الوليد القضاء بقرطبة، وسار فيه، على حدّ تعبير الرواية، بأحسن سيرة وأقوم طريقة، ثم استعفى عنه فأعفي؛ ونشر كتبه وتواليفه ومسائله وتصانيفه(١٧). ومن تواليفه كتاب المقدمات لأوائل كتب المدوَّنة، وكتاب البيان

(١٤) الصلة، ج٢، ص٥٧٦، النباهي، ص٩٨.
(١٥) الصلة، ج٢، ص٥٧٧.
(١٦) المصدر نفسه.
(١٧) النباهي، ص٩٩، الصلة، ج٢، ص٥٧٧.

والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل، واختصار المبسوطة، واختصار مشكل الآثار للطحاوي، إلى غير ذلك من تواليفه. ويعقّب على ذلك صاحب كتاب الصلة بقوله: "سمعنا عليه بعضها، وأجاز لنا سائرها"[١٨].

ومن مؤلفاته أيضاً، "الفتاوى"[١٩]. فقد جمع ابن الفران، شيخ الجامع الكبير في قرطبة، فتاوى أبي الوليد ابن رشد (الجدّ)، في كتاب خَطّي[٢٠]. ولا شك أن هذه المكانة العلمية الرفيعة التي كان يشغلها الجد، قد كان لها آثارها العميقة وطوابعها الواضحة في شخصية ابن رشد (الحفيد) وتكوينه العلميّ والثقافيّ. وتوفي أبو الوليد ابن رشد (الجد)، ليلة الأحد، ودفن عشي يوم الأحد الحادي عشر من ذي القعدة سنة عشرين وخمسمائة، ودفن بمقبرة العباس، وصلَّى عليه ابنه أبو القاسم، وشهده جمع عظيم من الناس؛ وكان الثناء عليه حسناً جميلاً[٢١]. وهكذا فقد ولد أبو الوليد ابن رشد (الحفيد) سنة ٥٢٠هـ، بقرطبة ونشأ فيها، في بيت علم وفضل، ممّا كان له أكبر الأثر في تكوينه الفكري والثقافي.

---

(١٨) الصلة، ج٢، ص٥٧٧.

(١٩) الأعلام، ج٦، ص٢١٠.

(٢٠) يوجد هذا المخطوط، على حد رواية الجامعة/ فرح أنطون، ص٨ في مكتبة باريس وقد نقل إليها من دير سان فيكتور في إسبانيا.

(٢١) الصلة، ج٢، ص٥٧٧.

مجريات حياته:

ولد ابن رشد بقرطبة سنة ٥٢٠هـ، ونشأ فيها حيث درس الفقه والطبّ وعلوم الأوائل، وتتلمذ على مشاهير علمائها... وفي سنة ٥٤٨هـ نراه في مراكش، حاضرة الدولة الموحِّديّة التي بسطت سلطانها على الأندلس والمغرب. وربما كان ابن طُفيل، المفكّر المشهور، وطبيب البلاط الموحّدي، هو الذي أشار عليه بالقدوم إلى عدوة المغرب؛ إذا قام ابن طُفيل بتقديم "ابن رشد" الشاب إلى أبي يعقوب يوسف سلطان الموحّدين؛ وتروي لنا المصادر قصّة هذه المقابلة التي كان من نتائجها حثّ ابن رشد بوضع شروحٍ مُيَسَّرة لأرسطو...[٢٢].

وتعاقبت الأحداث في حياة ابن رشد... ففي سنة ٥٦٥هـ تولَّى القضاء بإشبيلية، وبعد ذلك أصبح قاضي قرطبة. وبالرغم من مشاغله الكثيرة، فقد أَلَّف أهمَّ كتبه في هذه الفترة..

وفي سنة ٥٧٨هـ استدعاه يعقوب المنصور، الذي خلف أباه يوسف، لكي يصبح طبيبه بمراكش، فقد تقدمت السن كثيراً بابن طفيل. ولم يلبث ابن رشد طويلاً في البلاط الموحّدي، إذ نراه بعد فترة قصيرة يعود إلى قرطبة، لكي يشغل فيها منصب قاضي القضاة.

كان ابن رشد ذا حظوة عند خليفة الموحّدين، يعقوب المنصور في بداية الأمر، ثم ما لبث أن نقم عليه، بعد أن اتُّهم بالزندقة. فأمر الخليفة بإحراق كتب

(٢٢) انظر: Encyclo. Vol. II, P.410-413

الفلسفة، ما عدا كتب الطبّ والحساب، وفرض على ابن رشد أن يقيم في "اليسانة" وهي بلد قريب من قرطبة، كانت أولاً لليهود، وأن لا يخرج عنها[٢٣]. وقد نقم السلطان أيضاً على جماعة أخرى من الفضلاء الأعيان، وأمر أن يكونوا في مواضع أخر، وأظهر أنه فعل لهم ذلك بسبب ما يُدَّعَى فيهم أنهم مشتغلون بالحكمة وعلوم الأوائل. وهم أبو جعفر الذهبي، والفقيه أبو عبدالله محمد بن إبراهيم، قاضي بجاية، وأبو الربيع الكفيف، وأبو العباس الحافظ الشاعر القرابي[٢٤].

وفي الحديث عن نهاية محنة ابن رشد ورفاقه يقول ابن أبي أصيبعة: "وبقوا مدة، ثم إن جماعة من الأعيان بإشبيلية شهدوا لابن رشد أنه على غير ما نسب إليه، فرضي المنصور عنه وعن سائر الجماعة، وذلك في سنة خمس وتسعين وخمسمائة، وجعل أبا جعفر الذهبي مزواراً للطلبة ومزواراً للأطباء[٢٥].

وقد أورد "رينان" قطعة من سيرة ابن رشد للأنصاري (وفق مخطوط المكتبة الإمبراطورية ملحق عربي سنة ٦٨٢، ص٧) جاء فيها عن محنة أبي الوليد[٢٦]:

"فكمدت سوق السعايات، وضرب عن كل طالب ومطلوب، والأعداء كانوا لا يسأمون من الانتظار، ويرقبون أوقات الضرار، فلما كان التلُّوم من المنصور بمدينة

(٢٣) انظر: ابن أبي أصيبعة، ص٥٣٢.
(٢٤) المصدر نفسه.
(٢٥) انظر: المصدر نفسه، ص٥٣٢.
(٢٦) انظر: رينان، ص٤٣٨-٤٤٤.

قرطبة، وامتدّ بها أمد الإقامة، وانبسط الناس لمجالس المذاكرة، تجددت للطالبين آفاقهم، وقوي تألبهم واسترسالهم، فأدلوا بتلك الألقيات، وأوضحوا ما ارتقبوا فيه من شنيع السوءات، الماحية لأبي الوليد كثيراً من الحسنات. فقُرِئت بالمجلس، وتُدووِلَت أغراضها ومعانيها، وقواعدها ومبانيها، فخرجت بما دلَّت عليه أسوأ مخرج. وربما ذيَّلها مكر الطالبين، فلم يكن عند اجتماع الملأ إلا المدافعة عن شريعة الإسلام؛ ثم آثر الخليفة فضيلة الإبقاء، وأَغمَد السيف التماس جميل الجزاء، وأمر طلبة مجلسه وفقهاء دولته بالحضور بجامع المسلمين، وتعريف الملأ بأنه مَرَقَ من الدين، وأنه استوجب لعنة الظالمين. وأضيف إليه القاضي أبو عبدالله ابن إبراهيم الأصولي في هذا الازدحام، ولُفَّ معه في حريق هذا الملام، لأشياء أيضاً نقمت عليه في مجالس المذاكرة، وفي أثناء كلامه مع توالي الأيام..."، ثم يستمر الأنصاري في الحديث عن الاجتماع بالجامع الأعظم بقرطبة، إلى أن يقول: "فنالهم ما شاء الله من الجفاء، وتفرَّقوا على حكم من يعلم السرّ وأخفى؛ ثم أمر أبو الوليد بسكنى اليسانة، لقول من قال: إنه ينسب في بني إسرائيل، وإنه لا يُعْرَف له نسبة في قبائل الأندلس..."، ثم يتابع الحديث عن ابن رشد وصاحبه الذي لفه الحريق معه فيقول الأنصاري: "وليس في زمانهما من بكمالهما ولا من نسج على منوالهما، وتفرق تلاميذ أبي الوليد أيدي سباء"(٢٧).

(٢٧) انظر: رينان، ص٥٣٢.

ومن الواضح أنَّ هناك أسباباً خفيَّة قد دفعت إلى نكبة ابن رشد: فالأنصاري مثلاً يواصل حديثه فيقول: "ويذكر أن من أسباب نكبته هذه اختصاصه بأبي يحيى أخي المنصور والي قرطبة". وقد أورد ابن أبي أصيبعة أسباباً أخرى. قال القاضي أبو مروان: "وممّا كان في قلب المنصور من ابن رشد أنه كان متى حضر مجلس المنصور، وتكلّم معه أو بحث عنده في شيء من العلم يخاطب المنصور بأن يقول: تسمع يا أخي. وأيضاً فإن ابن رشد كان قد صَنَّف كتاباً في الحيوان، وذكر فيه أنواع الحيوان، ونعت كل واحد منها. فلما ذكر الزرافة وصفها ثم قال: "وقد رأيت الزرافة عند ملك البربر"، يعني المنصور. فلما بلغ ذلك المنصور صعب عليه، وكان أحد الأسباب الموجبة في أنه نقم على ابن رشد وأبعده...[٢٨].

وكانت هذه المحنة التي أصابت أبا الوليد، مناسبة اغتنمها خصومه للتشنيع عليه[٢٩].

وبعد عودة الخليفة المنصور إلى مراكش، ما لبث أن عفا عن ابن رشد ورفاقه واستدعاه إليها. ولكنْ ما لبث ابن رشد أن توفي فيها، بعد ذلك بقليل؛ فكانت وفاته كما أوردها الأنصاري، ليلة الخميس التاسعة من صفر سنة خمس وتسعين

(٢٨) ابن أبي أصيبعة، ص٥٣٢.

(٢٩) انظر: النباهي، ص١١١، رينان، ص٤٣٧-٤٤٤.

وخمسمائة بموافقة عاشر دجنبر. ودفن بجبانة باب تاغزوت. وبعد ثلاثة أشهر حمل إلى قرطبة، فدفن بها في روضة سلفه بمقبرة ابن عباس(٣٠).

شخصية ابن رشد وأثرها في أدبه:

كان لشخصية ابن رشد أثرها العميق في أدبه، فقد طبعته بطابَع العمق والجدية، ونأت به عن الفنون الأدبية التقليدية؛ ولا عجب إذا رأينا العقلانية والواقعية تطبعان أدبه وإنتاجه الفكري في جميع فنون المعرفة، ولذا كانت الدراية أغلب عليه من الرواية(٣١).

عُني أبو الوليد ابن رشد بالعلم من صغره إلى كبره، وكانت لهذه الحياة الجادّة آثارها في تكوين شخصيته. فكان على حد تعبير بعض الروايات، على شرفه، أشدَّ الناس تواضعاً وأخفضهم جناحاً(٣٢). ويورد ابن أبي أصيبعة حديثاً للقاضي أبي مروان الباجي يقول: "كان القاضي أبو الوليد ابن رشد حسن الرأي، ذكيّاً، رثّ البزّة، قويّ النفس،.."(٣٣).

---

(٣٠) انظر: رينان، ص٤٤٢.

(٣١) انظر: التكملة، ج٢، ص٥٥٤.

(٣٢) المصدر نفسه.

(٣٣) ابن أبي أصيبعة، ص٥٣١.

كان لهذه المقومات الشخصية أثرها البعيد في حياة ابن رشد، وما تركته من طوابع مميّزة في أدبه. فكان إلى جانب السيرة الحميدة، قد وهب ذاته للعلم والمعرفة، وقَصَرَ حياته على خدمة وطنه.

فهذا صاحب التكملة يتحدث عن هذه الجوانب في شخصية ابن رشد فيقول: "وولي قضاء قرطبة بعد أبي محمد بن مغيث فحمدت سيرته، وتأثلت له عند الملوك وجاهة عظيمة، لم يصرفها في ترفيع حال، ولا جمع مال، إنما قصرها على مصالح أهل بلده خاصة، ومنافع أهل الأندلس عامة"(٣٤). وكان إلى ذلك كلّه، سمحاً كريم النفس، فكان يبذل العطاء لقُصّاده، ويُلام أحياناً على البذل لمن لا يُحبّونه ولا يَكُفّون عن اتّهامه فيقول: إنَّ إعطاء العدوّ هو الفضيلة، أما إعطاء الصديق، فلا فضل فيه. وقد أعطى مرة رجلاً أهانه، وحذَّره من فعل ذلك بغيره لأنه لا يأمن بوادر غضبه(٣٥).

وإذا كان ابن رشد متسامحاً في أمر نفسه، فإنه لم يكن متسامحاً في أمر غيره؛ ومن ذاك قصّته مع الشاعر ابن خروف حين هجا أبا جعفر الحميري العالم المؤدب، فقد أوجع الشاعر ضرباً، وأنذره أَلّا يعود لمثلها.

كانت شخصية ابن رشد مطبوعة على مزاج الفيلسوف الحكيم، تنأى به عن الاتجاه إلى تلك الفنون الأدبية والفنية، في الظرف والنغم والإيقاع، كما كان الشأن

(٣٤) التكملة، ج٢، ص٥٥٤.

(٣٥) انظر: العقاد، ص١٩.

مع جلّة حكماء ذلك العصر وأطبائه، مثل ابن طفيل، وابن باجة، وابن زهر، وغيرهم. وهكذا كان ابن رشد يحسن المساجلة ولا يحسن المنادمة. ولا يبالي تزييف لغة "البلاط" في سبيل تحقيق لغة العلم، ورفع الكلفة من مجالس الباحثين فيه[٣٦]. وربما كانت هذه الصفات من الأسباب الخفيّة التي أدّت إلى التنكيل بهذا المفكر الإسلامي العظيم.

لقد أجمع أكثر الدارسين لابن رشد على وصفه بأنه "أكثر شُرّاح مؤلفات أرسطو عمقاً"[٣٧]. كان ابن رشد معجباً الإعجاب كله بالمعلم الأول "أرسطو".

ولكن يبقى السؤال الضخم أمام دارس أدب ابن رشد، وهو: إلى أي حدّ تأثر ابن رشد شخصياً بآراء أرسطو وفلسفته في الأخلاق والسياسة والخطابة والشعر؟ وبعبارة أخرى فنحن نتساءل إلى أي حدّ نستطيع أن نعتبر هذه الآراء تمثّل فلسفة ابن رشد واتجاهاته في فهم العلوم والآداب؟

ومما لا شك فيه أن هناك عاملين أساسيين أَثَّرا في مفهومه المتميّز للأدب، وهذان العاملان هما: شخصيّته الجادة، وتكوينه الثقافي، واشتغاله بعلوم الأوائل بانصرافه إلى دراسة أرسطو والتعمّق بشرح فلسفته وآرائه.

---

(٣٦) انظر: العقاد، ص٢٦.

(٣٧) انظر: بين الدين والفلسفة، ص٢٨.

وإن نظرة شاملة في مؤلفات ابن رشد[٣٨] تظهر لنا الطابع العقلاني لأدب أبي الوليد: فمؤلفاته بصورة عامة يمكن تقسيمها إلى أربعة أقسام: فهنالك شروح أو مصنّفات فلسفية وعلمية، وشروح أو مصنفات طبية؛ وكذلك هناك مصنّفات كلامية وفقهية، ومصنّفات أدبية ولغوية.

وكان مجال التأليف عند ابن رشد قد تأثر بطبيعة نظرته الفلسفية؛ فقد حرص دائماً على تأكيد ذلك المذهب الفلسفي الذي تميَّزت به الفلسفة العربية في الأندلس خاصة، والفكر العربي بصورة عامة؛ وفحواه تقسيم الأقيسة إلى ثلاثة أصناف: برهانية وجدلية وخطابية. وبناء على ذلك يقسم الناس إلى فئات أو طبقات ثلاث متقابلة: هم أهل البرهان، فالجدليون، فالخطابيون. وهو يعني بأهل البرهان الفلاسفة أو الخاصة، وبالخطابيين جمهور الناس الغالب أو العامة، وبالجدليين طائفة من الناس هي دون الفلاسفة مرتبة، إلا أنها مع ذلك تتميّز عن الجمهور، هم المتكلمون[٣٩].

---

(٣٨) في مؤلفات ابن رشد انظر: ابن أبي أصيبعة، ص٥٣٢، ٥٣٣، التكملة ج٢، ص٥٤٤-ص٥٥٥، الذهبي، ص٢٨٧، رينان، ص٧٩-٩٣، وهما من أكثر القوائم ضبطاً وتفصيلاً؛ وهناك نشرة الأب "بونج" عن مخطوطات ابن رشد الموجودة في أنحاء العالم. وقد أشارت المصادر أيضاً إلى تلك القائمة المهمة التي تحوي مؤلفات ابن رشد في المخطوطة رقم (٨٨) بمكتبة الأسكوريال بإسبانيا.

(٣٩) انظر: فخري، ص٣٣.

وربما يَسْهُل على دارس مؤلفات ابن رشد، بعد هذا، أن يصنّفها وفق هذه الأقيسة. فنحن نعتقد مثلاً أن كتابه "تهافت التهافت" هو مساجلة أدبية قام بأثنائها بفحص دقيق، وتأويل عميق متبصّر لكتاب "تهافت الفلاسفة" للغزالي. فهو ينعي بحرارة على الغزالي حين يصرّح بأنه لم يقصد من تهافته بيان الحقّ في نفسه، وإنما قصد التشويش على الفلاسفة، ونزع الثقة بهم...[٤٠]. وكذلك تستطيع أن تدرج في إطار الأدب، وفق مفهوم ابن رشد، كتابه الذي سمّاه "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال"، وكتاب "منهاج الأدلة في علم الأصول"... وغيرها، دون أن نضع حدّاً فاصلاً بين علم الكلام وأثره في الأدب.

أما في مجال اللغة، فقد أشارت المصادر إلى "كتابه في العربية الذي وسمه بالضروري"[٤١]. وكذلك كتابه في الكلام على الكلمة والاسم المشتق[٤٢]. وهكذا نستطيع القول إن مجاله الأدبي قد اتّسم بتلك المعركة الفكرية التي تركت أثراً عميقاً في التفكير الإسلامي؛ هذا مع العلم أن الفلسفة الأدبية لم تشغل سوى حيّز صغير في مذهب هذا الفيلسوف، بإزاء فلسفته المادية. فقد كان الخلاف، بينه وبين المتكلمين في الفلسفة الأدبية، شبيهاً بالخلاف بينه وبينهم في فلسفته الطبيعية[٤٣].

---

(٤٠) انظر: بين الدين والفلسفة، ص١٩٧.

(٤١) التكملة، ج٢، ص٥٥٤.

(٤٢) انظر: رينان، ص٩٠.

(٤٣) انظر: فرح، ص٥٨.

لقد كانت شخصية ابن رشد واضحة متميزة في أدبه، وفي اجتهاده الفكري، وفي فلسفته. وإنّ تصانيفه التي وسمها بالشروح، كانت على مستويات مختلفة من حيث المنهج والغاية التي يرمي إليها. وهو في ذلك كلّه كان يميز أحياناً، حتى في هذه الشروح بين رأيه ورأي المتن الذي يشرحه.

وهكذا فإن شخصية هذا القاضي الفيلسوف، التي طُبِعت على الجِدّ، تركت آثارها العميقة في مفهومه للأدب. فقد كان يتعفَّف عن حضور مجالس اللهو والطرب، مما استباحه جملة من علماء عصره وحكمائه. وقد بلغ من تعفّفه عمّا لا يراه خليقاً بعلمه ومكانه من القضاء أنه "أحرق شِعره الذي نظمه في الغزل أيام شبابه". وبذلك، مع الأسف، حُرِم الدارسون من مصدر مهم من مصادر دراسة أدبه وحياته.

وفي هذا الإطار العقلاني لمفهوم الأدب، وتغليبه هذا الجانب على الجانب الفني، نورد الرواية التالية:

قال أبو الفضل التفاشي: جرت مناظرة بين يدي ملك المغرب المنصور يعقوب بين الفقيه أبي الوليد ابن رشد والرئيس أبي بكر ابن زهر، فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة: ما أدري ما تقول، غير أنه إذا مات عالِمٌ بإشبيلية، فأُريدَ بَيْعُ

كتبه، حُمِلَت إلى قرطبة حتى تُباع فيها، وإن مات مطرب بقرطبة فأُريدَ بَيْعُ آلاته، حُمِلَت إلى إشبيلية(٤٤).

ارتباط الأدب عند ابن رشد بالحقيقة والمعرفة:

نظر ابن رشد إلى الأدب نظرة شاملة وعميقة، وقد فهم رسالته الأدبية من خلال اتجاهين أساسيين استغرقا حياته الأدبية كلّها. وهذان الاتجاهان يتميزان بالبحث عن الحقيقة وواجب الوجود، من ناحية، وعن المعرفة التي هي عبادة للخالق؛ ويلتقي ابن رشد في ذلك مع الفارابي وغيره من المفكرين الإسلاميين الذين يعتبرون البحث عن المعرفة عبادةً لله، سبحانه وتعالى، وتسبيحاً له في ملكوته. ولنستمع إلى ابن رشد في هذه العبارة التي حُذِفَت، على حد تعبير "رينان"، من شرح ما بعد الطبيعة في الطبعات اللاتينية، وقد ترجمها مسيو "منك" من العبرية.

قال: قال ابن رشد: "يقوم دين الفيلسوف الخاص على دراسة ما هو كائن؛ وذلك لأن أرفع عبادة يمكن أن يعبد الله بها، تقوم على معرفة ما صنع، لما يؤدي إليه هذا من معرفتنا إياه على حقيقته كلها. وهذا هو أصلح الأعمال عند الله..."(٤٥).

اتجه ابن رشد إلى البحث عن الحقيقة، تاركاً لنا في ذلك نتاجاً خصباً وأدباً رفيعاً يقع، على حد تعبير بعض الروايات، في حوالي عشرة آلاف ورقة.

---

(٤٤) النفح، ج١، ص١٤٧.

(٤٥) رينان، ص١٧٦.

وهو في بحثه عن الحقيقة، كان له موقف متميّز من المسائل الكبرى التي أثارت الجدل في عصره وفيما تلاه من القرون الوسطى. فقد ثار الجدل حول مسألة قِدَم العالم، ومسألة علم الله بالجزئيات، ومسألة النفس وبقائها؛ هذا فضلاً عن مسألتين أُخريين، ثار حولهما الجدل واحتدم، وهما: مسألة الصفات الإلهية، ومسألة الحقيقتين. والمسألة الأخيرة مؤداها أن حقيقة الشرع وحقيقة العلم والحكمة شيء واحد، يختلف في العبارة ولا يختلف في الجوهر. وقد شَغَلَت هذه القضية أقلام الكتّاب والمفكرين في ذلك العصر. فوضع ابن طفيل قصّته المعروفة "حي بن يقظان"، ووضع ابن رشد كتابه الموسوم "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال". فالفكرة التي أملت على ابن طفيل قصته، هي ذاتها التي أملت على ابن رشد كتابه. وإن الفرق بين الأسلوبين يعود إلى الفرق بين شخصيّتَي الكاتبين.

فابن طفيل، كما يبدو من أخباره وآثاره، صاحب مزاج طريف، يُحسن فنَّ المنادمة والمسامرة، في حين أن شخصية ابن رشد الجادة، ونظرته العقلانية إلى الأشياء، قد تردد أصداؤها في أدبه، مما حدا بمن ترجموا له بوصفه بأن الدراية كانت أغلب عليه من الرواية[٤٦]. وكان وصفه هذا في مجال الفقه، ولكنه ينسحب بطبيعة الحال على حياته الثقافية والفكرية كلها. فقد تميز ابن رشد منذ وقت مبكر في مجال الفقه، بالنظرة العقلية والقياس في الأحكام. هذا مع العلم أن محصوله في

(٤٦) التكملة، ج٢، ص٥٥٤.

الرواية كان واسعاً. وأن المصادر تُحَدّثنا مثلاً بأنه كان يحفظ الموطّأ عن ظهر قلب(٤٧).

وإن نزعة التوفيق بين الشريعة والفلسفة تُعتَبَر معقد الأصالة والطرافة في تفكيره. أما في مجال المعرفة، فلم يَتوانَ ابن رشد في البحث والتنقيب عن جميع المعارف الإنسانية دراسة وتدقيقاً وشرحاً، وفي مختلف الحقول، في الطب والمنطق والفلك والرياضيات والفلسفة وغيرها من صنوف المعارف الإنسانية.

فالبحث وراء المعرفة، في نظر ابن رشد يُقَرّبُه إلى فهم حقيقة الخالق؛ فهو عبادة وتسبيح لله في ملكوته، وبالتالي فإن هذا المسرى يؤدي به إلى فهم جوهر الدين وحقيقته، حيث يُتَمّم "الوحي" ما عجز عنه العقل. وهكذا فإن الأدب ونتاج الفكر الإنساني يرتبط في نظر ابن رشد بالحقيقة والمعرفة من حيث الغاية والهدف.

الخطابة عند ابن رشد:

وفي هذا الموضوع لا بُدَّ لنا أن نقف عند كتاب "تلخيص الخطابة"، حيث يبدأ ابن رشد الكلام فيه في كل فقرة بقوله: "قال" ثم يورد بضع كلمات من أوائل الفقرة، ويمضي بعد ذلك في الشرح، دون أن يتميز ما لأرسطو مما له هو ذاته، ويستطرد أحياناً ويأتي بكثير من الأمثلة من عنده، ولكنه في هذا كلّه يتابع ترتيب النص الأصلي لأرسطو ويتقيّد به. ويتوسع أحياناً، فيزيد كثيراً عن حجم نص أرسطو(٤٨).

---

(٤٧) انظر: رينان، ص٦٣.

(٤٨) انظر: تلخيص الخطابة، ص(ز).

وقد فرغ ابن رشد من كتابه هذا يوم الجمعة الثالث من شعبان من عام سبعين وخمسمائة، بقرطبة[٤٩].

وقد تَوَسَّع ابن رشد في إيضاح معاني أرسطو التي يذكرها النص؛ وهو يعترف في نهاية الكتاب أن ما سَجَّله لم يتعدَّ فهمه واستيعابه لهذه النصوص، إذ يقول: "وقد لخصنا منها ما تأدى إلينا فهمه، وغلب على ظننا أنه مقصوده؛ وعسى الله أن يَمنّ بالتفرغ التام، للفحص عن نص أقاويله في هذه الأشياء"[٥٠].

وإن هذا الاتجاه يحملنا على الاعتقاد بطابع ابن رشد وشخصيته في هذه الشروح، ولا سيما في "تلخيص الخطابة"؛ فتراه مثلاً يستبدل في كتابه هذا بالأمثلة اليونانية نظائرها في اللغة العربية، متلائماً مع البيئة العربية الإسلامية التي يكتب لها ويعيش فيها؛ فيورد شواهد من الفقه والتاريخ الإسلامي واللغة العربية. وقد نجح ابن رشد نجاحاً كبيراً في تطبيق القواعد والنماذج التي ذكرها أرسطو، على اللغة العربية وتراثها، ولا سيما في المقالة الثالثة: أقسام فن الخطابة، في صفات الأسلوب...إلخ[٥١].

فإن ابن رشد يتبنَّى مذهب "المعلم الأول" أرسطو في الخطابة، كما يتبناه في الشعر، كما سنرى فيما بعد. "فصناعة الخطابة" تناسب صناعة الجدل، وذلك أن

---

(٤٩) تلخيص الخطابة، ص٣٣٢.

(٥٠) المصدر نفسه، ص٣٣٢.

(٥١) انظر: المصدر نفسه، ص٢٤٨-٣٣٢.

كلتيهما تَؤُمَّانِ غاية واحدة وهي مخاطبة الغير... ويوجد استعمالهما مشتركاً للجميع؛ أعني أن كلّ واحد من الناس يستعمل، بالطبع، الأقاويل الجدلية والأقاويل الخطابية...[٥٢]. وفي موضع آخر يقول: "وكلّ واحد من الناس يوجد مستعملاً لنحو ما من أنحاء البلاغة، ومنتهياً منها إلى مقدار ما، وذلك في صنفي الأقاويل اللذين أحدهما المناظرة، والثاني التعليم والإرشاد، وأكثر ذلك في الموضوعات الخاصة بهذه الصناعة، وهي مثل الشكلية والاعتذار وسائر الأقاويل التي في الأمور الجزئية..."[٥٣].

فالكلام عنده على مذهب أرسطو، مركَّب من ثلاثة: من قائل، وهو الخطيب؛ ومن مقول فيه، وهو الذي يعمل فيه القول؛ ومن الذين يوجه إليهم القول، وهم السامعون. والغاية بالقول إنما هي متوجهة نحو هؤلاء السامعين. والسامعون لا مَحالة إمّا مُناظِر، وإمّا حاكم، وإمّا المقصود إقناعه ... والحاكم في الأمور المستقبلية، هو الرئيس، والحاكم في الأمور الكائنة هو الذي ينصبه الرئيس، مثل القاضي في مدننا هذه وهي مدن الإسلام. وأما الناظر فإنما يناظر بقوة الملكة الخطابية[٥٤].

(٥٢) تلخيص الخطابة، ص٣.

(٥٣) المصدر نفسه، ص٤.

(٥٤) المصدر نفسه، ص٢٨-٢٩.

ولنستمع لابن رشد كيف يطبِّق نظريات أرسطو في تفصيل الأقاويل الخطابية على نصوص من اللغة العربية، بل يستشهد على ذلك بآيات من القرآن الكريم. قال: والمكرور والمعاطف في الأقاويل الخطابية، هو أن يكون أول القول وآخره بلفظ واحد، أو قريب من الواحد. وهذا مثل قولهم: "القتل أنفى للقتل"، ومثل قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ ..[٥٥].

وهناك أمثلة كثيرة؛ بل إن المقالة الثالثة كما أشرنا سابقاً، هي محاولة جادَّة من ابن رشد، لكي يتمثَّل نظريات أرسطو في الخطابة ويطبقها على اللغة العربية وآدابها. ولنستمع إليه يقول:

"وأما الأسماء المترادفة، فصالحة جدّاً لصناعة الشعر، وقد تصح أيضاً لصناعة الخطابة. والشاعر يستعمل هذا الصنف لأسباب أخصّها به استعمالها لتصحيح الوزن والقافية، مثل قوله:

"وهِنْدٌ أتى مِن دونها النأيُ والبُعدُ"[٥٦].

فابن رشد يشير بهذا النص إلى بيت للحطيئة من داليّته المشهورة التي يمدح بها بغيض بن عامر، ومطلعها:

"ألا طَرَقَتْنا بعدما هجعوا هِندُ وقد سِرْنَ خَمساً واتلأبّ بنا نَجدُ".

---

(٥٥) تلخيص الخطابة، ص٢٨٨.

(٥٦) المصدر نفسه، ص٢٦٣.

وتمام البيت الذي استشهد به ابن رشد هو:

ألا حَبّذا هِنـــدٌ وأرضٌ بهـــا هِنـــد وهِنْدٌ أتى مِن دونها النأي والبعـــد

وفي حديثه عن توابع الألفاظ يقول:

"وينبغي أن تعلم أن الأخذ بالوجوه[٥٧] ليس له غناء في الخُطَب المكتوبة، وإنما غناؤه في المَتْلُوَّة؛ وأن عادة العرب في استعمالها قليلة. وأما من سلف من الأمم، فربما أقاموها في الأشعار مقام الألفاظ، أعني التشكيلات، ويحذفون اللفظ الدالّ على ذلك المعنى إما إرادةً للاختصار، وإما طلباً للوزن والإلذاذ؛ وهذا لم تجر به عادة العرب. ولهذا صار ما يقول أرسطو في كثير من هذه الأشياء، كما يقول أبو نصر، غير مفهوم عندنا ولا نافع. والأخذ بالوجوه إنما هو نافع أكثر في الخطب التي تتلى على جهة المنازعة، لأنه إنما يحتاج إلى الاستعانة بجميع الأشياء المقنعة في موضع المنازعة لتحصل الغلبة.

وأمثال هذه الخطب هي الخطب التي كانت بين علي ومعاوية. وأمثال ذلك في الأشعار، كالأشعار التي كانت بين جرير والفرزدق"[٥٨].

---

(٥٧) وقد عرَّف "الأخذ بالوجوه" بقوله: "الأمور المستعملة مع الألفاظ على جهة المعونة في جودة التقسيم وإيقاع التصديق وبلوغ الغرض المقصود". انظر: تلخيص الخطابة، ص٢٥٠.

(٥٨) تلخيص الخطابة، ص٢٥١-٢٥٢.

وهكذا فقد أضاف ابن رشد إضافات أصيلة في الشروح التي وضعها على مصنَّفات أرسطو. ولم يَكتفِ بالنقل، بل ترك آثار عبقريته الفذّة على تلك النظريات والآراء، التي قامت بدور مهمّ في النهضة الأدبية فيما بعد.

ابن رشد والشعر:

لم يكن أبو الوليد ابن رشد شاعراً ولا ذا طبيعة شعرية، فإن اتجاهه الفكري، وما جُبِل عليه من جدّية في التفكير والسلوك، كانا ينأيان به عن حياة الفن والشعر.

ولم يكن ابن رشد في عالم الشعر، مع ذلك كله، بأقل من أولئك النجباء، الألبّاء من نظرائه من كبار الفلاسفة، والأطباء والفقهاء، كابن سيناء وابن حزم وغيرهما، في المشرق، كما هو في المغرب والأندلس؛ وقد كان الشعر في الأندلس، على حد تعبير بعض الروايات، سائراً على جميع الألسنة في الأندلس: فالشعر يجري على ألسنة الرجال كما يجري على ألسنة النساء، ويجري على ألسنة الشعراء كما يجري على ألسنة الفقهاء والعلماء. ولكنَّ شعر هؤلاء العلماء لم يكن ليتجاوز النظم والتأليف المحكم بين المقاطع والألفاظ. ونحن إذا استثنينا بعض الأمثلة القليلة، فإننا نستطيع القول: إن جميع هؤلاء العلماء قد نظموا الشعر وانتحلوه، دون أن يكونوا ذوي شأن في مجال الغنائية أو الفن، ولكنه حلية يتَّصف بها كل نجيب. وكان ابن رشد من كبار هؤلاء النجباء الألبّاء، فلا بدّ من أن يضيف الشعر إلى جملة علومه وكفاياته.

فهذا ابن الأبار يصفه فيقول:

"وكان يُفزَع إلى فتواه في الطب كما يُفزَع إلى فتواه في الفقه، مع الحظّ الوافر من الإعراب والآداب. حَكَى عنه أبو القاسم بن الطيلسان أنه كان يحفظ شعر حبيب والمتنبي، ويُكثر التمثّل بهما في مجلسه، ويورد ذلك أحسن إيراد"(٥٩).

ويحدّثنا ابن سعيد، صاحب المغرب، وقد كان قريب عهد من الفترة التي عاش فيها ابن رشد، فيقول: "أدركه والدي وقرأ عليه، وقال في وصفه الشقندي: "فقيه الأندلس، وفيلسوفها الذي لا يَحتاج في نباهته إلى تنبيه". وأنشد من شعره قوله:

ما العِشقُ شأني، ولكنْ لستُ أُنكِرُهُ كم حَلّ عقدة سلواني تَذَكُّرُهُ
من لي بِغَضِّ جفوني عن مخبِّرة الـ أجفان قد أظهرتْ ما لستُ أَضْمِرُهُ
لولا النُّهى لأَطَعتُ اللّحْظ ثانيةً فيمن يَرُدُّ سنا الألحاظ مَنْظَرُهُ
ما لابنِ سِتّينَ قادَتْه لِغايَتِهِ عشريةٌ فنأى عنه تَبَصُّرُهُ
قد كان رضوى وقاراً فهو سافيةٌ الحُسنُ يورِدُه، والهون يُصدِرُهُ.(٦٠)

(٥٩) التكملة، ج٢، ص٥٥٤.

(٦٠) المغرب، ج١، ص١٠٤-١٠٥.

وفي هذا الموضوع، يتحدث الفيلسوف الفرنسي المشهور، أرنست رينان، فيقول:

"ونعلم من ليون الإفريقي أن ابن رشد كان قد نظم عدة قصائد خلقية وغزلية، فأحرقها في مشيبه؛ وينقل ليون إلينا قطعة منها تجعلنا نفترض بالحقيقة، كون الحكمة، من بعض النواحي، لم تأت ابن رشد إلّا مع السنين.."[٦١]. ومهما يكن من أمر، فقد راض ابن رشد نفسه على التوقّر فبالغ في رياضتها، وربّما دفعه ذلك إلى حرق أشعارٍ نظمها في صباه؛ وبذلك، مع الأسف، فَقَدْنا لوناً مهمّاً من نتاج عبقريته، يمكن أن يُلقي ضوءاً على حياته الخاصة ونتاجه الأدبي.

لم يكن ابن رشد ممن نَظَم الشعر وانتحله، على مذهب نظرائه من العلماء والفلاسفة، ولكنه كان له موقف من الشعر، بصورة عامة، يتداخل مع موقف أرسطو ونظريته في الشعر، والواقع أن تلخيصه "فن الشعر" لأرسطو يشهد بعلوّ كعبه في الأدب العربي، ولا سيما شعر ما قبل الإسلام.

وتجد في كل صفحة من هذا الكتاب، على حد تعبير المستشرق الفرنسي أرنست رينان، استشهاداً بعنترة وامرئ القيس والأعشى والنابغة وأبي تمام والمتنبي وكتاب الأغاني ...[٦٢].

ويربط ابن رشد بين الموسيقى والشعر، كما هو الأمر عند أرسطو؛ فالموسيقى بنظره تُعْنَى بتثقيف النفس وتمريسها على الفضائل الخلقية. وهو

(٦١) رينان، ص٦٢-٦٣.

(٦٢) انظر: المصدر نفسه، ص٦٣.

يعني بالموسيقى الأقاويل المحلية ذات اللحن، على حد تعبيره. فكانت بهذا الفن خادمة لصناعة الشعر الذي يؤثر في الصِّبْيَة والأحداث أكثر من الخطابة والبرهان –وهما ضربان من ضروب الإقناع–. فإذا رقوا عن هذا الطور استُعمِلَت معهم الأقاويل الخطابية والجدلية، وفي الطور الأخير البرهانية التي يراد بها الفلاسفة أو الحكماء خاصة(٦٣).

فابن رشد ينظر إلى الشعر، وفق نظرة أرسطو، وذلك من خلال وظيفته في التربية وتأثيره في الناشئة؛ ومن ناحية أخرى فإنه يرى فيه صنفاً من صنوف الإقناع؛ والإقناع أحد سبيلين رئيسيين لغرس الفضائل في نفوس سكان الدولة. فالأقاويل الخطابية والشعرية يخاطَبُ بها الجمهور، وقد اعتمدها أيضاً أفلاطون في "الجمهورية"(٦٤).

فابن رشد يقف من الشعر من خلال وظيفته التربوية موقفاً هادفاً: فمن القصص التي، كما يقول، ينبغي نبذها ما كان حاثّاً على طلب اللذة أو على ابتغاء المال، لأنها تحول دون التمرُّس بحياة الجندية. وهذه المفاسد، كما يقول ابن رشد، يكثر ذكرها في أشعار العرب، "فلم يكن أضر من تلقينها للصبية منذ نعومة أظفارهم"؛ وهو ما درج عليه معلموهم منذ القدم(٦٥).

---

(٦٣) انظر: فخري، ص١٢٣.

(٦٤) انظر: المصدر نفسه، ص١٢٣.

(٦٥) انظر: المصدر نفسه، ص١٢٦.

لا شك أن أبا الوليد، يقف موقفاً انتقائياً من الشعر العربي في مجال التربية. وهذا أمر ينسجم والأهداف التربوية السامية، التي رسمها منذ البداية، من وجوب غرس الفضائل في نفوس أبناء المدينة الفاضلة. ولا يمكن أن يكون هذا الموقف كُرْهاً للشعر العربي بصورة عامة، وهو الذي كان يحفظ شعر حبيب والمتنبي، ويُكْثِر التمثل بهما في مجلسه.

كان لابن رشد باع في قول الشعر، ولكنّه لم يكن يمثل جوانب عبقريته المشرقة؛ وكانت له آراء ونظرات فنية ونقدية فيه امتزجت بآراء أرسطو ونظرته للشعر امتزاجاً كلّياً. ونحن نعتقد أن ابن رشد قد حالفه التوفيق في مجال الشعر كما حالفه في مجال الخطابة، من حيث محاولته لتطبيق نظريات أرسطو على نماذج أصيلة في اللغة العربية وآدابها، شعراً ونثراً ...

أدب ابن رشد ونزعته الإنسانية والاجتماعية:

لقد ذاع صيت ابن رشد بين "اللاتين" لأمرين: لكونه طبيباً وكونه شارحاً لأرسطو؛ بيد أن فخره شارحاً أعظم من فخره طبيباً بمراحل. فمهما يكن من شهرة نالتها "الكليات" لم تبلغ ما ناله "قانون" ابن سيناء من اعتبار بالغ(٦٦).

(٦٦) انظر: رينان، ص٧٣.

وإنما انتهى بشرحه الأكبر إلى تكوين قطب ثبت في الفلسفة، "فالطبيعة تفسر بأرسطو، وأرسطو يفسر بابن رشد"(٦٧).

وألَّفَ ابن رشد، عدا هذه الشروح، عدداً كبيراً من الكتب يَعْسُر إحصاؤها تماماً. وقد شَمَلَت مؤلفاته مختلف مجالات المعرفة الإنسانية: في الفلسفة، وعلم الكلام، والفقه، والفلك، والطب، والنحو، واللغة.

ونحن إذا تجاوزنا مفهوم الأدب من حيث هو نتاج فكري هدفه التسلية والموعظة إلى مفهوم أَعمّ، وذلك من حيث هو نتاج فكري يؤثر الكاتب من خلاله في القارئ ويحركه نحو الأفضل، نكون قد اقتربنا كثيراً لكي نصنِّف في هذا الإطار مجموعة من مؤلفات ابن رشد الأدبية، وأَهمُّها:

١- كتاب "تهافت التهافت"، وقد وضعه ابن رشد لكي يدحض به كتاب الغزالي الذي عنوانه "تهافت الفلاسفة".

٢- كتاب "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال"، وقد حاول فيه ابن رشد أن يوفِّق بين الشريعة والفلسفة.

٣- كتاب "الكشف عن مناهج الأَدلَّة".

ولكي نستطيع أن نفهم اتجاهات ابن رشد في مصنَّفاته المختلفة، لا بُدَّ لنا أن نتعرف على نظرة ابن رشد للكاتب، من ناحية، ولنوعية الجمهور الذي يكتب إليه

(٦٧) رينان، ص٧٣.

من ناحية أخرى. فالناس في نظره مختلفون حسب استعداداتهم وقدراتهم، ومن هذا التفاوت في الفِطَر والعقول، جعل الناس على حد تعبيره طوائف ثلاثاً:

١- الخطابيّون، وهم الجمهور الغالب الذي يصدق بالأدلة الخطابية.

٢- أهل الجدل، ومنهم رجال علم الكلام؛ وهم الذين ارتفعوا عن العامة ولكنّهم لم يصلوا لأهل البرهان اليقيني.

٣- البرهانيون، بطبعهم وبالحكمة التي أَخذوا أنفسهم بها.

وبناء على ذلك يقول ابن رشد بانقسام الشريعة إلى ظاهر له أهله، وهم العامة وأشباههم، وباطن له أهله، وهم ذوو البرهان(٦٨).

وإن نظرية ابن رشد في التعلُّم تقوم على هذه الفروق الفردية، إذ كان ينادي دائماً "بأنَّ جَعْلَ الناس شرعاً واحداً في التعلُّم خلاف المحسوس والمعقول"؛ هذه النظرية التي كانت معروفة جيداً عند الكثير من الفلاسفة قبله، مثل الفارابي وابن سيناء وغيرهما ...

كان ابن رشد يرى وجوب تقيد الكاتب بنوعية الجمهور الذي يكتب إليه. فقد حرم مثلاً الحديث مع الجمهور في علم الله على النحو الفلسفي. وقد أخذ على الغزالي إثباته التأويل في غير كتب البرهان، وتقديمه ذلك إلى جمهور الناس.

(٦٨) انظر: بين الدين والفلسفة، ص٩٣.

وشجب المتكلّمين، وبخاصة المعتزلة، أنهم بتآويلهم التي صَرَّحوا بها للجمهور، أوقعوا الناس في شتات وتباغض وحروب، ومزقوا الشرع(٦٩).

ولكننا نجد ابن رشد يقع في مثل هذا الطبع، فيعتذر بأن الجمهور قد عرف من أولئك الذين يلومهم هذه التآويل. فكان لا بدَّ له أن يتكلم فيها، وذلك لبيان الحق من جهة، ولدفع الأذى عن الجمهور من جهة أخرى.

وإن هذا اللون من الكتابة التي خرج بها من إطار كتب الخاصة، أهل البرهان، إلى نطاق العامة، أهل الجدل والخطابة، ليست في جوهرها سوى مساجلات ومناظرات كتابية، يحاول الكاتب دحض آراء خصومه، وإصلاح ما أفسدته، على حد تعبيره، لدى الجمهور. بل ينصّ أحياناً أن بعض الأفكار، لا سبيل إلى إنشائها في هذا الكتاب، مما يؤكد أن كتاب "تهافت التهافت"، ليس من الكتب التي تُدَّخَر للخاصة، وإنما هو كتاب للعامة، على حَدّ مفهومه؛ إذ يقول أحياناً في مناقشة بعض الموضوعات: "وهذا العلم لا سبيل إلى إفشائه في هذا الموضع"(٧٠).

وإن أسلوب ابن رشد في "تهافت التهافت"، يبتعد كثيراً عن الأساليب البرهانية، فقد خرج به من هذه الدائرة من حيث الهدف، ولكنه يتلوَّن أحياناً بانفعالية تُخرج الكاتب عن وقاره وموضوعيته إلى السباب والتهكم اللاذع.

---

(٦٩) انظر: بين الدين والفلسفة، ص١٠١.

(٧٠) تهافت التهافت، ج١، ص٩٢.

فيشير إلى أبي حامد الغزالي فيقول: "فإتيانه بمثل هذه الأقاويل السفسطائية قبيح، فإنه يُظّنُّ به أنه ممن لا يذهب عليه ذلك، وإنما أراد بذلك مداهنة أهل زمانه"(٧١)، وهذه تهمة، ولا شكَّ، خطيرة يوجِّها ابن رشد إلى أبي حامد. وفي موضع آخر يقول: "قلت: هذا الكلام، الذي هو جواب عن الفلاسفة، في نهاية السقوط"(٧٢). وفي مكان آخر "قلت: هذا كله سفسطائي خبيث"(٧٣). وكذلك: "هذا بَيِّن بنفسه؛ وقائل هذا، هو الملبس، لا الفلاسفة، فإن الملبس هو الذي يقصد التغليط لا الحق. وإذا أخطأ في الحق فليس يقال فيه: إنه ملبس"(٧٤). وفي تعليق له حول بعض الأفكار يقول: "وهذا كله عند الفلاسفة هوس وتخليط"(٧٥). وكثيراً ما يَتَّهم ابنُ رشد ابنَ سينا وشيعته فيقول: "فانظر هذا الغلط، ما أكثره على الحكماء؟ فعليك أن تتبين قولهم هذا: هل هو برهان؟ أم لا؟ أعني في كتب القدماء، لا في كتب ابن سينا وغيره، الذين غيَّروا مذهب القوم في العلم الإلهي، حتى صار ظنياً"(٧٦).

---

(٧١) تهافت التهافت، ج١، ص٩٣.

(٧٢) المصدر نفسه، ج١، ص١٦٠.

(٧٣) المصدر نفسه، ج١، ص٢٤٢.

(٧٤) المصدر نفسه، ج١، ص٢٥٣.

(٧٥) المصدر نفسه، ج١، ص٢٨٢.

(٧٦) المصدر نفسه، ج١، ص٣٠١.

ويـتهم أحيانـاً ابـن سـيناء، والفـارابي أحيانـاً، بعـدم فهـم مـذاهب قـدماء الفلاسـفة، فيقـول: "قلـت: هـذا كلـه تَخَـرُّص علـى الفلاسـفة مـن ابـن سـيناء وأبـي نصـر، وغيـره ..."(٧٧). وقـد يهـاجم الغزالـي بعنـف، مـع دحضـه لآراء ابـن سـينا إذ يقـول: "وأمـا الكـلام فيمـا صـدر عنهـا (أي العقـول) فـانفرد ابـن سـينا بـالقول الـذي حكـاه (أي الغزالـي) عـن الفلاسـفة وتَجَـرَّد هـو للـرد علـيهم، ليوهم أنه ردّ على جميعهم".

وهذا، كما قال، "تَعَمُّق ممَّن قاله في الهوس"(٧٨). وها هو أيضاً ينعى على الفارابي وابن سينا مقالهما، إذ يصيح مندهشاً: "والعجب كلّ العجب، كيف خفي هذا على أبي نصر وابن سينا، لأنهما أول من قال هذه الخرافات، فقلَّدهما الناس، ونسبوا هذا القول إلى الفلاسفة ..."(٧٩).

وإن مثل هذه الإشارات التـي تنم عن أسلوب انفعالي كثيرة جداً. وهو فـي أسلوبه هذا قد يَعْنُف إلـى حدّ السباب، ويهزأ إلـى حد السخرية اللاذعة. ففـي مناقشته لبعض آراء أبـي حامد يقول: "فهو صادق في ذلك، إذ لم يبلغ الرجل

(٧٧) تهافت التهافت، ج١، ص٣٠٦.

(٧٨) المصدر نفسه، ج١، ص٣٨٥.

(٧٩) المصدر نفسه، ج١، ص٣٩٧.

المرتبة من العلم المحيطة بهذه المسألة. وهذا هو الظاهر من حاله فيما بعد.."[٨٠].

وقد وقع أبو حامد الغزالي في تيّار السباب والعنف أيضاً؛ ولنستمع إلى الغزالي وقد جاوز حدّ الانفعال إلى السباب تقريباً إذ يقول:

"قال أبو حامد رادّاً على الفلاسفة:

"قلنا: ما ذكرتموه تحكُّمات، وهي على التحقيق ظلمات فوق ظلمات، لو حكاه الإنسان عن منام رآه، لاستدلَّ به على سوء مزاجه، أو أورد جنسه في الفقيهات، التي قصارى الطلب فيها تخمينات، لقيل: إنها ترَّهات، لا تفيد غلبة الظنون"".

فهي على حدّ تعبير أبي حامد، تحكّمات ... وظلمات ... وترّهات ... الخ. وعندما يناقشه ابن رشد، يقابله انفعالاً بانفعال، وانتقاصاً بانتقاص.

يقول ابن رشد في الرد على الغزالي، بعد أن أورد ما حكاه سابقاً: "قلت: لا يبعد أن يعرض مثل هذا للجهال مع العلماء، وللجمهور مع الخواصّ، كما يعرف ذلك لهم في المصنوعات؛ فإن الصُّنّاع، إذا أوردوا صفات كثيرة من مصنوعاتهم على العوام، وتضمنوا الأفعال العجيبة عنها، هزئ بهم الجمهور، وظنوا أنهم

(٨٠) تهافت التهافت، ج١، ص٤٠٩.

مبرسمون، وهم في الحقيقة الذين ينزلون منزلة المبرسمين من العقلاء، والجهال من العلماء. وأمثال هذه الأقاويل لا ينبغي أن نتلقى بها آراء العلماء وأهل النظر"[٨١].

وهكذا فنحن نستطيع أن نصنِّف كتب ابن رشد هذه خارج دائرة الخاصة، وأنها موجهة إلى العامة من القراء. وهي بذلك تخرج من ميدان البحث الفلسفي الرصين، إلى ميدان المساجلات الأدبية وأساليبها ... لقد كتب ابن رشد مؤلفاته هذه وقد وجهها إلى العامة، وفق مفهومه، يريد إصلاح ما أفسدته أقوال السابقين. فهو يحاول إصلاح ما أفسده سابقوه بالتصريح بآراء مُفسِدة، وتآويل ضالة، تلقفها غير أهلها، فعمَّ بذلك ضررها ...[٨٢].

وفي هذه المساجلة الفكرية، يقول العقاد: "فلم يحفظ لنا تاريخ الفكر مساجلة بين حكيمين في قوة المساجلة التي دارت بين ابن رشد والغزالي، ومضاء سلاحها، ونفاذ حججها وبراهينها ..."[٨٣].

ولم يكن ابن رشد في شروحه المشهورة وفي تصانيفه، العلمية منها والفقهية والأدبية، سوى مفكِّر عظيم يُوَجِّهُ جميع طاقاته وجهة إنسانية رفيعة، هَدَفُها الأسمى تنمية الفضائل لدى أفراد الأمة، وخلقُ مجتمع إسلامي قويم.

---

(٨١) تهافت التهافت، ج١، ص٣٢٠-٣٢١.

(٨٢) انظر: بين الدين والفلسفة، ص١٠١.

(٨٣) العقاد، ص٥٥.

ونحن نلمس هذه النزعة الواقعية في مختلف مصنفاته، إلى جانب تلك النزعة الإنسانية السامية.

ونحن، إذا استثنينا بعض الإشارات المقتضبة إلى قضايا أخلاقية وسياسية، نلمحها في بعض مؤلفاته، كتهافت التهافت، والكشف عن مناهج الأدلة، وسواها؛ فقد اقتصر ابن رشد في تآليفه في الأخلاق والسياسة، على شرح الأخلاق إلى نيقوماخس. وجوامع سياسة أفلاطون ...[٨٤]. وقد فَصَّل ابن رشد في شروحه هذه كما فعل في شرح الخطابة والشعر. فهو لا يكتفي بشرح الجمهورية، بل يعمد إلى تطبيق بعض مبادئها على الأوضاع السياسية والاجتماعية السائدة في البلاد الإسلامية آنذاك، وخاصة الأندلس والمغرب.

فصلاح المجتمع وسعادته، هو الهدف الأسمى، الذي كان يرمي إليه ابن رشد في جميع مصنفاته، العلمية منها والفلسفية واللغوية؛ فقد ختم كتابه المشهور في ميدان الفقه "بداية المجتهد ونهاية المقتصد"، بقوله:

"وينبغي قبل هذا أن يُعْلَم أن السنن المشروعة العملية المقصود منها هو الفضائل النفسانية، فمنها ما يرجع إلى تعظيم من يجب تعظيمه، وشكر من يجب شكره. وفي هذا الجنس تدخل العبادات ... ومنها ما يرجع إلى الفضيلة التي نسميها "عفَّة" ... ومنها ما يرجع إلى طلب العدل والكفّ عن الجور ... ومنها

(٨٤) انظر: فخري، ص١١٨.

السنن الواردة في الأعراض، ومنها السنن الواردة في جمع الأموال وتقويمها، وهي التي يُقصَد بها طلب الفضيلة التي تسمَّى السخاء، وتجنُّب الرذيلة التي تسمى البخل؛ والزكاة تدخل في هذا الباب من وجه، وتدخل في باب الاشتراك في الأموال، وكذلك الأمر في الصدقات.

ومنها سنن واردة في الاجتماع الذي هو شرط في حياة الإنسان وحفظ الفضيلة العلمية والعملية ... ومن السنن المهمّة في حيّز الاجتماع السنن الواردة في المحبّة والبغضة والتعاون على إقامة هذه السنن؛ وهو الذي يسمَّى النهي عن المنكر والأمر بالمعروف ... الخ .."[٨٥].

فمن الواضح أن ابن رشد يرى أن الدين يرمي بشعائره وأوامره إلى غايات إنسانية واجتماعية رفيعة، هَدَفُها صلاح المجتمع وسعادته. وكان لابن رشد، من خلال أدبه، موقف واضح من أهم القضايا الاجتماعية والسياسية؛ فقد كان له رأي واضح في السياسة، والاجتماع، والتربية، والمرأة، وحرية الإنسان: ففي مجال السياسة، فإن نظرته كانت مبنية على فلسفة أفلاطون، وقد بسطها في شرحه "جمهورية" هذا الفيلسوف، وجوهر تعاليمها، أنه يجب إلقاء زمام الأحكام إلى

(٨٥) انظر: بداية المجتهد، ج٢، ص٤٦٤.

الشيوخ والفلاسفة ليديروها بقسط وعدل. ويجب حث الناس على الفضائل بتعليمهم البيان والعلوم التي تثقف العقل(٨٦).

ويتناول أبو الوليد ثلاث قضايا هي بمثابة المدخل إلى علم السياسة، وهي:

أولاً- ما هي الشروط التي ينبغي أن تتوافر لكي توجد هذه الفضائل المشار إليها ... إذ ليس الغرض من هذا العلم معرفة ماهية هذه الفضائل، كما يقول أرسطو، بل العمل بها.

ثانياً- كيف يمكنُ غرسُ هذه الفضائل في نفوس الأحداث، بحيث تنمو تدريجيّاً، وكيف تصان بعد أن تبلغ مرتبة الكمال؟ وكيف يمكن استئصالُ الشر من نفوس الأشرار.

ثالثاً- ما هي الصفات والفضائل التي تشتدُّ إذا اقترنت بفضيلة ما، وتضعف إذا اقترنت بفضيلة أخرى؟ أي كيف تؤثر هذه الفضائل إحداها في الأخرى(٨٧).

وكان ابن رشد يكره الاستبداد العسكري والإقطاعات العسكرية، ويرى استغناء الدولة عن القضاة والأطباء، دليلاً على انتظام شؤونها. ويقوم مَثَل الدولة الأعلى على عدم الاحتياج إلى قاض، ولا إلى طبيب؛ وليس على الجيش واجب غير

(٨٦) انظر: رينان، ص١٧٠، فرح، ص٥٩.

(٨٧) انظر: فخري، ص١٢٢.

السهر على حرس الأمة. وما يحدث لو أكلت كلاب الراعي غنمه؟ وتُعَدُّ إقطاعات الجيش آفة الدول(٨٨).

وقد رأى ابن رشد أن الحاكم الظالم هو ذلك الذي يحكم الشعب من أجل نفسه لا من أجل شعبه. وأنَّ شرَّ الظلم ظلم الكهنة؛ وأن أحوال العرب في عهد الخلفاء الراشدين كانت على غاية من الصلاح، "فكأنما وصف أفلاطون حكومتهم، لما وصف في "جمهوريته" الحكومة الجمهورية الصحيحة التي يجب أن تكون مثالاً لجميع الحكومات".

ولكنَّ معاوية هدم ذلك البناء الجليل القديم، وأقام مكانه دولة بني أمية وسلطانها الشديد، ففتح بذلك باباً للفتن ما تزال إلى الآن قائمة قاعدة حتى في بلادنا هذه (أي الأندلس).(٨٩). أما موقفه من المرأة فهو يساوي بين المرأة والرجل من حيث الطبيعة فيقول: "وتختلف النساء عن الرجال درجة لا طبيعة، وهنَّ أهل لكل ما يفعل الرجال من حرب وفلسفة. الخ ...، ولكن على درجة دون درجتهم. وهنَّ يَفُقْنَهم أحياناً، كما في الموسيقى، وذلك مع كون كمال هذه الصناعة يقوم على التلحين مِن قِبَل رجل والغناء مِن قِبل امرأة. ويدلُّ مثال بعض الدول الإفريقية على استعدادهن الكبير للحرب؛ ولا يُعَدُّ من الخوارق إمكان انتهائهن إلى الحكومة

(٨٨) رينان، ص١٧٠، وهذا النص أورده عن طبيعيات ص٣١ – PRIHERM.

(٨٩) انظر: رينان، ص١٧١.

الجمهورية. أولا يرى، كما هو الواقع، أن إناث الكلاب تحرس القطيع كما تحرس ذكورها؟ وإلى هذا أضاف ابن رشد قوله:

"لا تَدَعُنا حالنا الاجتماعية نبصر كل ما يوجد من إمكانيات في المرأة؛ ويظهر أنهن لم يخلقن لغير الولادة وإرضاع الأولاد.

وقد قضت هذه الحال من العبودية فيهن على قدرة القيام بجلائل الأعمال. ولذا فإننا لا نرى بيننا امرأة مزيَّنة بفضائل خلقية. وتمرُّ حياتهن كما تمرُّ حياة النباتات، وهن في كفالة أزواجهن أنفسهم. ومن هنا، أيضاً، أتى البؤس الذي يلتهم مدننا؛ وذلك لأن عدد النساء فيها ضعف عدد الرجال، ولا يستطعن كسب الحاجيّ بعملهن."(٩٠).

وتَطَرَّق ابن رشد إلى حرية الإنسان، ووصل هذا المفهوم الإنساني الرفيع بما ورد عنه في آي القرآن الكريم. فالإنسان غير مطلق الحرية تماماً ولا مقيَّدُها تماماً. وذلك أنه إذا نُظِر إليه من جهة نفسه وباطنه، فهو حُرٌّ مطلق لأن نفسه مطلقة الحرية في جسمه. ولكن إذا نُظِر إليه من جهة حوادث الحياة الخارجية، كان مقيَّداً

(٩٠) رينان، ص١٧٠-١٧١، وقد نقل النصوص عن "طبيعيات" ص٣١ (PRIHERM)، ص٤٨.

بها، لما لها من التأثير على أعماله. وهو يقول: "إن هذا هو السر في أن القرآن يجعل الإنسان تارة مختاراً وتارة مقيَّداً."[٩١].

ويسير ابن رشد على منوال أفلاطون في قضايا التربية، فيحذِّر في مجال تربية الصغار من التمثيل بالحكايات الكاذبة "أي الأساطير" التي ترسخ في أذهانهم فَتُفسِد سريرتهم[٩٢]. وهو على مذهب أفلاطون بالتربية الجماعية، وحاجة الفرد لأقرانه. فقد تبيَّن أن اكتساب المرء لأي من هذه الفضائل دون معونة الأقران مستحيل، إذ إن الإنسان يحتاج إلى من عداه، في اكتساب الفضيلة؛ فهو كائن مدني بالطبع[٩٣].

وفي حديثه عن الخصال المكتسبة التي ينبغي على الحاكم أو الرئيس أن يتصف بها، يرسم ابن رشد منهاجاً تربوياً واضحاً، فيما يتعلق بالرئيس، من الطفولة الأولى حتى يبلغ سن الخمسين، لأنه، على حَدّ تعبيره، يجب تفويض الحكومة إلى الشيوخ.

فبعد أن يتحدث عن الطفولة الأولى للحاكم أو الرئيس، يقول: ومنها، أي من الخصال المكتسبة، الإقبال على العلوم المختلفة والتوفُّر على دراستها. وتبدأ هذه الدراسة بعلم الحساب، فالهندسة، فعلم النجوم، فالموسيقى؛ وهي علوم لا تُطْلَب من

(٩١) انظر: فرح، ص٥٨.

(٩٢) انظر: فخري، ص١٢٤.

(٩٣) فخري، ص١٢٠.

أجل الكمال الإنساني، شيمة الطبيعيات والإلهيات، بل من أجل إعداد الفكر للإقبال على هذين العلمين ... وحين يبلغ الحكّام سنّ السادسة عشرة أو السابعة عشرة ينبغي أن يُقبلوا على تعلم الفروسية حتى سن العشرين، وعندها يأخذون بتعلم الفلسفة حتى سنّ الثلاثين. فإذا بلغوا الخامسة والثلاثين دُفِعت لهم رئاسة الجيش، طوال خمس عشرة سنة؛ فإذا بلغوا سن الخمسين، باتوا قادرين على الاضطلاع بمهام الرئاسة وإدارة شؤون الدولة ...

أما التربيةُ الأخلاقيةُ لجميع المواطنين، فهي تقوم، في نظر ابن رشد، على تلقينهم الفضيلة بتعليمهم الخطابة والشعر والجدل. ولا شكَّ أن فيلسوفنا يقصد الانتقاء في مجال الخطابة والشعر والجدل، فهي وسائل من أجل تربية الفضيلة في نفوس جميع المواطنين. ومن هنا نستطيع أن نفهم قوله عندما يُعقّب على ذلك قائلاً: "والشعر مفسد، ولا سيما شعر العرب"[٩٤]. فإن ابن رشد لا ينال من قيمة الشعر الفنية، ولم يهدف أن ينتقص من شعر العرب من حيث هو، ولكنه يرى أن يختار المربي من هذه الأشعار ما يكفل بتلقين الفضيلة، وتربيتها في نفوس المواطنين.

العلاقة بين الشكل والمحتوى:

يشغل الجدل، بصورة عامة، مكانة مهمة من مؤلفات ابن رشد. وهو على حد تعبير رينان: "يدخل إليه من الرشاقة ما هو ممتع. ومما كان يقع أحياناً، أن يرتقي

(٩٤) انظر: رينان، ص١٧٠-١٧١.

بحماسته العلمية، وكَلَفِه بالفلسفة إلى نبرة من الخلقية، بليغة إلى الغاية. ويسود الإسهاب شروحه، ولكن بلا جفاف. وتتجلى شخصية المؤلف فيما يعرف أن يسوقه إلى المواضع المهمة من استطراد وتأملات ..."[٩٥].

والحقيقة أن هذه الإشارات تُكَوِّن أهم خصائص ابن رشد في أسلوب كتابته. أما جفاف أسلوبه فلا بد لنا أن نستذكر حقيقة مهمة، حيث أن طبعات كتبه في الحقيقة لا تعرض في نصوصها العربية سوى شرح قام على ترجمة عربية من ترجمة سريانية من أصل يوناني. أما في نصوصها باللغات الأجنبية فهي تقوم على ترجمة لاتينية من ترجمة عبرية. هذا مع العلم أن كثيراً من مصنفاته قد فُقِدَت أصولها العربية.

وإن الدارس لأدب ابن رشد ومصنَّفاته يمكن أن يلمح ركائز يمكن أن تُمَيِّز نظرة ابن رشد في أسلوبه، من ناحية، وفي فن الكتابة، من ناحية أخرى. فهنالك طبيعة الجمهور الذي يكتب إليه الكاتب؛ وهذه النظرة رأيناها واضحة تماماً في أبحاثنا السابقة؛ فهو ينادي بأن على الكاتب أن يكون على بصيرة من نوعية الجمهور الذي يكتب إليه، وبالتالي بنوعية الأفكار وطبيعة الأبحاث التي يقدمها إلى قرائه، وإلا وقع في خطيئة كبيرة، وأَدَّى جهده إلى الإفساد. "فليس كل صنف من أصناف الناس ينبغي أن يُسْتَعْمَل معهم البرهان، في الأشياء النظرية التي يراد منهم اعتقادها. وذلك إمّا لأن الإنسان قد نشأ على مشهورات تخالف الحقَّ، فإذا

(٩٥) رينان، ص٦٧.

سلك به نحو الأشياء التي نشأ عليها، سَهُل إقناعه، وإمّا لأن نظرته ليست مُعَدَّة لقبول البرهان أصلاً، وإمّا لأنه لا يمكن بيانه له في ذلك الزمان اليسير الذي يراد منه وقوع التصديق فيه ..."[٩٦].

فهو في ذلك يقول بوجود علاقة وثيقة بين طبيعة الجمهور وحقائق المعرفة التي يمكن أن تُعْرَض عليهم. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، يجعل للانفعالات النفسية دوراً مهمّاً نحو استمالة الحكام والناظرين، حيث يقول: ... الأشياء المعينة في وقوع التصديق، مثل التكلم في الخوف والرحمة والغضب، وما أشبه ذلك من الانفعالات النفسانية التي ليست مُعَدَّة نحو الأمر المقصود تبيينه أولاً وبالذات، وإنما هي مُعَدَّة نحو استمالة الحكام والناظرين، ولذلك كانت كأنها مُوَطِّئَة للتصديق لا فاعلة له ..."[٩٧].

ويجعل ابن رشد للألفاظ مكانتها في زيادة التصديق؛ وإن هذه المكانة تختلف باختلاف طبيعة المعارف، وذلك على حد تعبير ابن رشد، لأن للألفاظ في ذلك معونة في زيادة التصديق الحاصل بين البرهان وقوته، كالحال في الصنائع الأخرى، فإنها يلفى لها معونة في إيقاع التصديق المستعمل فيها وإن كانت في ذلك تختلف.

---

(٩٦) تلخيص الخطابة، ص١١.

(٩٧) المصدر نفسه، ص٥.

فأَقَلُّها حاجةً في ذلك صناعة الجدل، ثم من بعدها صناعة السفسطة، ثم من بعدها الخطابة، ثم من بعدها صناعة الشعر. فهاتان الصناعتان أكثر حاجةً إلى ذلك ...

وإنما صارت الألفاظ والأصوات تفعل في هاتين الصناعتين هذا الفعل من أجل أنها تخيل في المعنى رفعة أو خسة، وبالجملة أمراً زائداً على مفهوم اللفظ، مثل غرابة اللفظ، فإنها تخيل غرابة المعنى، ولذلك فخامته تخيل فخامة المعنى. والنغم كذلك يفيد فيه هذا المعنى ... وليس يَقْصد ذلك أحد عندما يتكلم على طريق الهندسة ولا على طريق العدد(٩٨).

فقد أدرك ابن رشد العلاقة الوثيقة بين الشكل والمحتوى، وقد اقترب في مفهوم ذلك إلى المدى الذي لا يرى منه الشكل منفصلاً عن المحتوى، بل إن الصورة مرتبطة ارتباطاً عفوياً مع المادة. فابن رشد يرى مع أرسطو أن الكون هو تغير في الجوهر، وأنه لا يتكوَّن شيء من لا شيء، بل من موضوع. وهذا على حدّ تعبير ابن رشد في تفسير ما بعد الطبيعة حيث يقول: "... المذهب الذي أخذناه عن أرسطو، وهو أن الفاعل إنما يفعل المركب من المادة والصورة، وذلك بأن يحرك المادة ويغيرها حتى يخرج ما فيها من القوة إلى الفعل ...".

(٩٨) تلخيص الخطابة، ص٢٥٣.

إن هذه النظرة الفلسفية للعلاقة بين المادة والصورة قد انعكست تماماً في موقف ابن رشد من الأدب بصورة عامة، حيث يرى المادة متصلة اتصالاً عفوياً بالشكل، وليست منفصلة عنه. وهي النظرة التي يأخذ بها النقد الأدبي في مناهجه الحديثة.

وربما كانت هذه النظرة إلى العلاقة بين الشكل والمحتوى، بين المادة والصورة، وتطبيقها على الأدب، وفق مفهومه العقلاني له، أهمَّ قضيّتين يمكن أن يطرحهما الدارس لأدب ابن رشد. أما القضية الأخرى، فقد أشرنا إليها فيما سبق، وهي ارتباط الأدب بالحقيقة والمعرفة، في نظر ابن رشد ...

ابن رشد في مجال اللغة والبلاغة والنحو:

كان للُّغة أثر كبير في تحديد فكر ابن رشد، وتطويع نظريات أرسطو وفلسفته إلى واقع الحضارة العربية الإسلامية بمفاهيمها وعقيدتها، بل إلى لغتها وأدبها.

فقد اعتذر ابن رشد عن ذكر الأمثلة اليونانية لأنه رآها مجهولة تماماً لدى القارئ العربي الذي يتوجَّه إليه، ولا تتلاءم أيضاً مع الجوّ الإسلامي الذي يكتب له ويعيش فيه؛ على أنه استبدل بهذه الأمثلة اليونانية نظائرها في الإسلام، فاستشهد بشواهد من الفقه والتاريخ الإسلامي واللغة العربية ... حيث أراد أن يطبِّق القواعد والنماذج التي يذكرها أرسطو على اللغة والأدب والخطب العربية ..[٩٩].

(٩٩) انظر: مقدمة تلخيص الخطابة، ص(ي).

وكان ابن رشد يقول منذ البداية، بأن الشريعة الإسلامية تحضُّ من خلال الآيات القرآنية والحديث على النظر الفلسفي. وهي توجب استعمال البرهان المنطقي، على حد تعبيره، لمعرفة الله تعالى وموجوداته. ويستشهد على ذلك بآيات من القرآن الكريم، فيورد مثلاً الآية الكريمة: "فاعتبروا يا أولى الأبصار"[١٠٠]. ويبيّن أن الاعتبار هنا ليس إلا استنباط المجهول من المعلوم، وهو القياس الفلسفي أو المنطقي المعروف[١٠١].

وبناء على هذا الاتجاه، فقد استخدم ابن رشد أمثلة عربية وإسلامية كثيرة في كتاب "تلخيص الخطابة" وفي كتاب "الشعر" أيضاً. وبالرغم من أنها شروح لكتب أرسطو، غير أن ابن رشد في التخليص أو التحليل يتكلَّم باسمه الخاص دائماً، فيعرض مذهب الفيلسوف مضيفاً، حاذفاً، باحثاً في الرسائل الأخرى ما تكمل به الفكرة، متَّخِذاً ترتيباً ومنهاجاً من اختياره؛ وهكذا على حدّ تعبير الفيلسوف الفرنسي "رينان": "فإن التخليصات رسائل حقيقية كرسائل أرسطو"[١٠٢]. ففي حديثه مثلاً عن الأمور المستعملة مع الألفاظ على جهة المعونة في جودة التقسيم وإيقاع التصديق وبلوغ الغرض المقصود، وهي على حدّ تعبير ابن رشد نفسه، التي جرت عادة القدماء أن يُسَمُّوها الأخذ بالوجوه، يقول: "وذلك أن هذه الأشياء، لما كان من

(١٠٠) سورة الحشر، ٢/٥٩.

(١٠١) انظر: بين الدين والفلسفة، ص٩١.

(١٠٢) رينان، ص٧٤.

شأنها أن تميل السامعين إلى الإصغاء والاستماع والإقبال على المتكلم بالوجه، وتفريغ النفس لما يورده، استُعير لها هذا الاسم. وهذه الأشياء صنفان: إمّا أشكال، وإمّا أصوات ونغم ...

والأشكال، بالجملة، يقصد بها أحد أمرين: إمّا تفهيم المعنى وتخييله الموقع للتصديق، كما روي عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال في آخر خطبة: "بُعِثتُ أنا والساعة كهاتين" وأشار بإصبعيه يقرنهما ..."(١٠٣).

وتراه يخرج في شروح إلى دراسات مقارنة، فيتحدث عن موقع بعض النظرات البلاغية في أشعار الأمم، ويقارنها بما هو في لغة العرب وآدابها. فنرى ابن رشد يتحدث في موضع آخر من "تلخيص الخطابة" فيقول: "وفيها أيضاً أنها تُسْتَعمَل بضرب من الوزن في الكلام الخطبي ... وهذا الضرب من النغم ضروري في أوزان أشعار من سلف من الأمم ما عدا العرب؛ فإن من سلف من الأمم كانوا يزنون أبياتهم بالنغم والوقفات، والعرب تزنها بالوقفات فقط. ومنها أيضاً أن تُسْتَعْمَل أشعاراً في افتتاح القول وختمه ومواضع الوقف ..."(١٠٤).

وقد نَظَر إلى البلاغة بهذه النظرة المبدعة، حيث استطاع أن يتمثَّل نظريات أرسطو من خلال نشر اللغة العربية وشعرها ... ويستخدم، بطبيعة الحال، الاصطلاحات البلاغية التي سبقه إليها البلاغيون الأعلام قبله؛ إذ يقول مثلاً:

(١٠٣) انظر: تلخيص الخطابة، ص٢٥٠.

(١٠٤) المصدر نفسه، ص٢٥١.

"والاستعارة التي تكون من هذا النوع كثيرة موجودة في أشعار العرب وخطبها، والأقاويل التي يخصّها أهل لساننا من الناظرين في الشعر والبلاغة بالاستعارة هي داخلة في هذا الجنس، ولذلك يقولون: إن المجاز استعارة وتشبيه"(١٠٥).

وكان لابن رشد مجال واسع في التعريب، وكيفية استخدام الألفاظ للدلالة على معان مستجدَّة؛ وكذلك توليد الكلمات عن طريق الاشتقاق وغيره. فقد ذَكَرَتْ لنا المصادر المختلفة بين قائمة كتبه، كلاماً له على الكلمة والاسم المشتق(١٠٦).

ففي حديثه عن تأثير الألفاظ والأصوات في الأقاويل يقول: "والذين وقعوا أولاً على تأثير هذه الأحوال من الألفاظ والأصوات في الأقاويل هم الشعراء، وذلك أن هذا المعنى أظهر ما يكون في الأقاويل الشعرية، مع أن الوقوف على الأقاويل الشعرية هو متقدم بالزمان على الأقاويل البلاغية ..."(١٠٧).

ويُعَمِّق نظرته في استعمال الألفاظ في لغات مختلفة، فيقول: "وأما اللغات فهي صنفان، أحدهما ... مثل أن يستعمل الحجازي لغة حِمْيَرِيّة؛ والصنف الثاني أن يستعمل في مخاطبة أمة ما، لفظاً ليس من ألفاظ أهل لسانهم، وإنما هو من لسان أمة أخرى، مثل ما يوجد في لسان العرب من ألفاظ كثيرة من ألفاظ الفرس والأمم المجاورة لها. وهذا يُستَعمل على وجهين: أحدهما أن يأتي بذلك اللفظ بعينه من

(١٠٥) تلخيص الخطابة، ص٢٩٤.

(١٠٦) انظر: القائمة التي أوردها رينان، ص٤٥٦-٤٥٧. وفق مخطوط الاسكوريال.

(١٠٧) تلخيص الخطابة، ص٢٥٣-٢٥٤.

غير أن يغيِّر بنيته وتركيبه، والوجه الثاني أن يُغَيِّره تغييراً يقرب من الأبنية المستعملة في لسانهم ليسهل بذلك عليهم النطق به؛ مثل: السِّجّيل وغير ذلك مما هو موجود في كتب اللغة"(١٠٨).

فابن رشد يقف هنا موقفاً واضحاً ومتميزاً، تجاه قضية التعريب، سواء أكان ذلك بإحياء ألفاظ ميتة، مثل استعمال الحجازي ألفاظاً حميرية، أم استعمال اللفظة الأجنبية، كما هي، وإدخالها إلى العربية، من ناحية، أو إدخالها بعد إضفاء رونق العربية عليها ... وقد أورد لفظة "السجّيل" وهي لفظة قرآنية ... وهنالك أيضاً ألفاظ موضوعة، يحدّدها ابن رشد من خلال شرحه فيقول: "وهي الألفاظ المخترعَة في لسان جنس ما، يَخترِعها أهل ذلك اللسان، على نحو التركيب الذي لحروفهم"(١٠٩). ويبحث "تلخيص الخطابة" اللفظة من حيثُ أصوات الحروف وتناسقها أو عدمه. وهنا أيضاً، تمتزج آراء أرسطو بآراء شارحه ابن رشد، إلى الحد الذي تَرَى فيه شخصية الشارح واضحة بارزة، وذلك من خلال تقصِّياته وإيراده الأمثلة في نطاق العربية وحروفها وأصواتها، إذ يقول:

"وأما المغَلِّطة فهي الألفاظ التي يعسر النطق بها، وذلك يعرض لأسباب: منها أن تكون تلك الحروف حروفاً يَعْسُر النطق بها، وإن كانت قليلة؛ ومنها أن يكون سبب العسر فيها كثرة الحروف التي رُكِّبت منها، والتي يعسر النطق بها، إمّا أن

(١٠٨) تلخيص الخطابة، ص٢٥٧.

(١٠٩) المصدر نفسه، ص٢٥٩.

يكون من أجل مخرج الحرف نفسه وأن ينطق به وحده، مثل كثير من حروف الحلق، وإمّا أن يكون العسر يحدث له عند تركيبه مع غيره؛ وذلك إمّا لتقارب مخارجها، وهذا هو سبب الإدغام في لسان العرب، وإمّا لتكرارها، مثل قولهم: "قصصت أظفاري". ولذلك بعض العرب يبدلون إحدى الصادين "ياء" في مثل هذا. وربما كان السبب في ذلك تضادّ المخارج. ولذلك قَلَّ في لسان العرب اسم يوجد على وزن "فِعلى" إلا ما حكوا من "الدِّفلى". وأكثر الانقلابات والتغيُّرات التي يضعها النحاة هذا هو سببها"(١١٠).

وهنا نستبين خصائص نظرة ابن رشد في النحو، وقد كانت له مساهمة فيه. ولا عجب من ذلك، فالنحو عند أهل الأندلس، على حد تعبير المقّري "في نهاية من علوّ الطبقة، حتى أنهم في هذا العصر فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويه، لا يزداد مع هرم الزمان إلا جِدَّة؛ وهم كثيرو البحث فيه، وحِفْظ مذاهبه كمذاهب الفقه. وكلُّ عالِمٍ في أيّ علم لا يكون متمكناً من علم النحو، بحيث لا تخفى عليه الدقائق، فليس عندهم بمستحقّ للتميُّز، ولا سالم من الازدراء ..."(١١١).

(١١٠) تلخيص الخطابة، ص٢٥٨.

(١١١) انظر: النفح، ج١، ص٢٠٦.

ولم يخرج ابن رشد عن هذه القاعدة، فقد أسهم في هذا المجال بكتاب سماه "الضروريّ في النحو"[١١٢]. وإن هذه التسمية، تذكِّرنا بكتاب أبي بكر الزبيدي القرطبي الذي وضعه قبل ذلك بحوالي قرنين من الزمن وأطلق عليه "الواضح".

ذكرت أكثر المصادر التي أوردت مصنَّفات ابن رشد، كتابه هذا في النحو، ولكن مع الأسف لم يصل إلينا، ولا نعرف عنه شيئاً؛ فربما ما زال تائهاً في بعض الأقبية أو زوايا المكتبات، وربما فُقِدَ إلى الأبد كما فُقِدَت مصنَّفات كثيرة من هذا التراث الضخم، نتيجةَ النكبات والحروب وما حلَّ بالأندلس من استئصال لجذور حضارة عربية إسلامية أصيلة.[*] وإنَّ التسمية بحدّ ذاتها "الضروري في النحو" توحي لنا باتجاهه العملي، في استخدام ما هو ضروري من قواعد النحو؛ وهذا الاتجاه ينسجم تماماً مع طبيعة فلسفة ابن رشد العقلانية والواقعية ... وهو في ذلك استمرار لهذه المدرسة القرطبية، التي اتّجهت اتجاهاً عملياً مناهضةً لتعقيدات النحاة وانشغالهم بجزئيات لا فائدة منها.

وجملة القول، فقد كانت لابن رشد جهود طيّبة في مجال البلاغة والنقد، وفي مجال النحو والاشتقاق، والترجمة والتعريب والشرح؛ وإن هذه المجالات لتستحقّ الدراسة المتعمقة في مصنفات الفيلسوف الإسلامي، الذي كان على حد تعبير ابن

(١١٢) انظر: قائمة كتب ابن رشد التي أوردها رينان، ص٤٥٦-٤٥٧ وفق مخطوط الاسكوريال.
(*) نُشر هذا الكتاب سنة ٢٠١٠م بتحقيق الدكتور منصور علي عبدالسميع.

الأبار: "كان يُفْزَع إلى فتواه في الطب كما يُفْزَع إلى فتواه في الفقه، مع الحظ الوافر من الإعراب والآداب" ...

خاتمة

ربما كان ابن رشد من المفكّرين القلائل في الدنيا، الذين أهملتهم أمّتُهم وعُنِيت بهم أمم أخرى؛ لقد تجاوزت مصنفات ابن رشد حدود الزمان والمكان، وكانت ركيزة أساسية في النهضة الأوروبية فيما بعد.

عَرَفَت أوروبا القرون الوسطى ابن رشد باسم (Averroes) وطارت شهرته لديها بالطبّ، من ناحية، وبالفلسفة من ناحية أخرى، وربما كان من الطبيعي أن لا يُعْنَى الفرنج بالجوانب الأخرى في فكر ابن رشد، في مجال الفقه واللغة والأدب. وقد بقيت جميع هذه الجوانب، مع الأسف، في زوايا الإهمال والنسيان... ولا شكَّ أن العصور المظلمة التي توالت على الأمة العربية والإسلامية، كانت تقف وراء هذا الإهمال.

لم يكن ابن رشد فيلسوفاً وطبيباً فحسب، بل كان فقيهاً مجتهداً، كما ينمُّ عليه كتابه "بداية المجتهد"؛ كما كان أديباً كاتباً، يعالج أهم القضايا السياسية والاجتماعية والأخلاقية التي تَمَسُّ كيان أمته. وقد سار على درب صديقه "ابن طُفيل" وكثير من الفلاسفة المسلمين الذين سبقوه، في محاولة التوفيق بين الحكمة والشريعة، وبين ما يصل إليه من طريق الوحي والرسل ...

ولذا فنحن نستطيع أن نعتبر بحقّ ما كتبه في "تهافت التهافت" وفي كتابه "فصل المقال" ... وكذلك في "كشف مناهج الأدلَّة ..." وغيرها، من الأدب العقلاني الرفيع الذي يحاول الكاتب فيه معالجة قضايا إنسانية واجتماعية وأخلاقية وسياسية، يهدف من ورائها إصلاح ما فسد في بنيان هذه الأمة.

ولم يقف ابن رشد عند هذه الحدود من الأدب، بل تَعدَّاها إلى قول الشعر، والإسهام في البحوث اللغوية والبلاغية، ولا سيما في مجال النحو والتعريب والاشتقاق والنقد ... الخ ... وإنَّ شروحه لمصنّفات أرسطو لم تكن لتقعد به عند حد النقل، بل كانت تتعداه إلى حد الإبداع في فهم فكر "المعلم الأول" وتَمَثُّله، وتطبيقه على بيئته العربية الإسلامية، ولا أدل على ذلك من تعقيبه في خاتمة كتاب "تلخيص الخطابة" بقوله: "وهنا انقضت معاني هذه المقالة الثالثة، وقد لخَّصنا منها ما تأدى إليها فهمه، وغلب على ظَنِّنا أنه مقصوده ..."[١١٣].

(١١٣) انظر: تلخيص الخطابة، ص٣٣٢.

المصادر والمراجع

ابن الأبار: ابن الأبار القضاعي البلنسي، التكملة لكتاب الصلة، ج١-٢، القاهرة، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م.

ابن أبي أصيبعة: موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي المعروف بابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت، ١٩٥٦م.

ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١-١٢، بيروت، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبدالملك، الصلة، مصر، ١٩٦٦م.

ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف تغري بردي النابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١-١٢، القاهرة.

ابن رشد: أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ج١-٢، القاهرة.

= = : أبو الوليد ابن رشد، تلخيص الخطابة، تحقيق عبدالرحمن بدوي، القاهرة، ١٩٦٠م.

ابن رشد: أبو الوليد ابن رشد، تلخيص السفسطة، تحقيق محمد سليم سالم، القاهرة، ١٩٧٢م.

= = : أبو الوليد محمد بن رشد، تهافت التهافت، ج١-٢، تحقيق الدكتور سليمان دنيا، القاهرة، ١٩٦٤م.

= = : أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد القرطبي، رسائل ابن رشد، حيدر أباد الدكن، ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م.

ابن سعيد: علي بن موسى، المغرب في حلى المغرب، ج١-٢، مصر، ١٩٦٤م.

ابن طفيل: ابن طفيل الأندلسي، حي بن يقظان (لابن سينا وابن طفيل والسهروردي)، تحقيق أحمد أمين، القاهرة، ١٩٥٩م.

ابن العماد: أبو الفلاح عبدالحي بن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج١-٨، مصر، ١٣٥٠هـ.

الأنصاري: أبو عبدالله محمد الأنصاري، فهرست الرصّاع، تونس، ١٩٦٧م.

الذهبي: الحافظ الذهبي، العِبَر في خبر من عبر، ج١-٥، الكويت، ١٩٦٣م.

الضبي: أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، القاهرة، ١٩٦٧م.

رينان: أرنست رينان، ابن رشد، والرشدية، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، ١٩٥٧م.

زيدان: جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج١-٤، القاهرة.

الزركلي: خير الدين الزركلي، الأعلام، ج١-١١.

العقاد: عباس محمود العقاد، ابن رشد، القاهرة.

الغزالي: الإمام الغزالي، تهافت الفلاسفة، تحقيق الدكتور سليمان دنيا، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٦٦م.

فرح: فرح أنطون، ابن رشد وفلسفته، الإسكندرية، ١٩٠٣م.

فخري: ماجد فخري، ابن رشد فيلسوف قرطبة، بيروت، ١٩٦٠م.

المقّري: أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، ج١-١٠، بيروت، ١٣٦٧هـ - ١٩٤٩م.

موسى: محمد يوسف موسى، بين الدين والفلسفة، القاهرة.

النباهي: الشيخ أبو الحسن بن عبدالله بن الحسن النباهي المالقي الأندلسي، كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، بيروت.

- BROCKELMAN- Geschichte d. Arab. Literatur Ers. Sup. LEIDEN. 1927.

- The Encyclopaedia of Islam. LEYDEN. 1927.

- Encyclopaedia of Religion and Ethics. Vol. I-VIII. NEW-YORK. 1927.

اللغة والأسلوب في شعر (عرار)(*)

الأستاذ الدكتور محمود السمرة (ت٢٠١٨م)

- ١ -

قبل ثلاثين عاماً توفي مصطفى وهبي التل، وقبل خمسة وعشرين عاماً صدرت الطبعة الأولى من ديوانه "عشيات وادي اليابس" في عمان.

ورغم أن عراراً مشهور معروف في الأردن، وهو شاعر الأردن دون منازع: يحفظ شعره المثقفون، ويردده حتى من نالوا حظاً قليلاً من الثقافة، إلا أنه لا يكاد يعرفه أحد خارج الأردن.

لماذا؟

لعلّ من أسباب ذلك أن ديوانه الأول صدر في وقت كانت فيه إمكانيات الطباعة في الأردن محدودة جداً: فالحروف صغيرة، والأخطاء كثيرة، والورق رديء، والتوزيع معدوم.

ثم: إن شعر عرار مَحَلّي، مغرق في محلّيته: محلّي في موضوعاته، وإشاراته، وكثير من تعبيراته. وما لم يتمثل القارئ هذه كلها تمثلاً واضحاً، فإن تجاوبه مع هذا الشعر يبقى محدوداً. وقد بذل المرحوم الأستاذ محمود المطلق جهداً طيباً في شرح ما

(*) نُشر هذا البحث في العدد المزدوج (٥-٦) من مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، سنة ١٩٧٩م.

يحتاج إلى شرح، لتقريب هذا الشعر إلى أذواق القراء العرب. وأذكر أنه ما من مرة تذاكرت شعر عرار مع أخوة عرب، وقدّمت لهذا الشعر بما يُعِين على إدراكه وتمثّله، إلا وجدت عندهم استجابة له، ودهشة لأن مثل هذا الشاعر غير معروف عندهم.

ثم: هناك لوم يقع على أدباء الأردن: فهم لم يعنوا أنفسهم بالتعريف بالشاعر وتقديم الدراسات عنه، إلا في نطاق محدود.

* * *

لكلّ هذا وجدتُ أن الحاجة أصبحت ملحّة لإصدار طبعة ثانية من الديوان، وخاصة عندما وُضعت بين يدي أوراق الشاعر، فوجدتُ فيها شعراً يستحق أن ينشر، ولم ينشر.

وهكذا، في سنة ١٩٧٣ صدر ديوان "عشيات وادي اليابس" في طبعة جديدة فريدة، تعكس تقدم فن الطباعة في الأردن الحديث، وتضع بين أيدي القراء شعر الشاعر الأول في الأردن في شكل يليق بجمال هذا الشعر؛ وقد زينته رسومات الفنان الموهوب مُهَنّا الدرة، آملين من ذلك أن نستطيع إيصال الديوان إلى أيدي محبي الشعر الجيد، لا في الأردن فحسب، بل في أكثر عدد ممكن من البلاد العربية الشقيقة.

ولكن ما أردناه لم يتحقق، لسبب بسيط هو افتقارنا إلى مؤسسة، أو شركة، لتوزيع الكتاب الأردني وتسويقه. وبقيت هذه الطبعة يسعى إلى الحصول على نسخة منها، ويجدّ في السعي، من يجد الرغبة في ذلك.

وفي رأيي أنه ما زالت هناك حاجة الى إصدار طبعة جديدة من الديوان، يقوم المحقق فيها بإيراد الروايات المختلفة للأبيات، وترتيبها في القصائد؛ فقد خلصتُ من اطلاعي على أوراق الشاعر إلى أن الصورة التي بين أيدينا للقصائد والأبيات ليست إلا صورة واحدة من صور عدة: ففي كثير من القصائد نجد ترتيب الأبيات مختلفاً، والتغيير في ألفاظ الأبيات كثيراً. ويحضرني هنا التحقيق الأمثل الذي قام به المستشرق Ritter لكتاب "أسرار البلاغة" للإمام عبدالقاهر الجرجاني، وتحقيق الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد لديوان قيس بن الخطيم، وتحقيق الأستاذ الدكتور إحسان عباس لديوان لبيد. على هذه الصورة نريده. وقد شغلتني شواغل كثيرة عن النهوض بهذا العمل الذي يستغرق وقتاً طويلاً.

* * *

وفي رأيي أن أوراق الشاعر التي بين أيدينا، تغري الناقد أيضاً بالقيام بدراسة نقدية نفسية: تدرس حياته، وظروفه، ومجتمعه، باستقصاء. ثم تنظر في زمن نظمه لكل قصيدة، والأسباب النفسية التي دعته لهذا التقديم، وذاك التأخير، وشطب هذه الكلمة أو تلك، ولماذا استبدل بها غيرها. إن قام بهذه الدراسة ناقد بارع موهوب، فربما حصلنا على دراسة نقدية ممتعة، على غرار الدراسة التي وضعها John Middleton Murray عن الشاعر Keats بعد أن حصل على أصول قصائد الشاعر بخط يده.

* * *

وبعد، فإن لي على شعر عرار الملاحظات التالية:

١- شعر عرار بسيط في مضمونه وشكله، يقترب كثيراً من كلام الناس الذين هو منهم: عاش بينهم، يشاركهم أفراحهم، وأحلامهم، وآمالهم، ويأسى لأحزانهم، وتدميه آلامهم؛ ومع هذا فلشعره فعل السحر في نفوسهم.

لماذا؟

في رأيي أن السر في قوّة تأثير شعر عرار في النفوس أنه شعر يعبّر عن تجربة محلية وإنسانية، معاً ... تجربة عميقة، فيها قدر طاغٍ من حدة الإحساس. وهو يعبّر عن هذه التجربة بألفاظ مشحونة بهذا الإحساس. وحالة الانفعال الحاد، حالة تميّز الشعر الجيد عن غيره من الفنون الأدبية الأخرى؛ وهي حالة تصاحب الشاعر في أثناء عملية الإبداع الفني؛ ذلك لأن الشاعر الحق إنسان يتمتع بحساسية غير عادية، تجعله يتعاطف مع أحداث الحياة الإنسانية بدرجة عالية.

واللغة التي يستعملها عرار، رغم محليتها...ورغم بعض الأخطاء اللغوية والعروضية، حافلة بالحياة، تفتح عيوننا على عيوب في المجتمع، قد نمرّ بها دون أن نحسّ بها، وإذا أحسسنا بها، فقد يكون هذا إحساساً عابراً. ولكنها في هذا الشعر دفقات قوية، تنبه العقل، والنفس، والأعصاب.

ومن الخطأ أن نعتبر شعر عرار وثيقة تاريخية ترسم بدقة ما كان يسود شرق الأردن زمنه؛ ذلك لأننا نعرف أن الشعر ذاتي، والشعراء يعبّرون عن أحاسيسهم، وانفعالاتهم الخاصة. ونحن في بحوثنا لا نعتمد شعر الشعراء وثائق نستشهد بها، وإن

كنا نستعين بها في حدود ضيقة. وهذا لا يضير الشعر ولا الشاعر: فالصدق الفني هو غاية الشاعر، أما البحث عن الحقيقة فغاية العالِم.

إن الشاعر لا يعرض لنا الحقائق عرضاً موضوعياً كما توجد في الواقع، بل يحوّرها بفضل ملكة الخيال التي وُهِبَها، ويكوّن منها كُلّاً فنياً موحَّداً. ومنذ أن كان في الدنيا شعر، كان قدر الشاعر أن يرى ويرصد المظاهر المختلفة لهذا الكلّ المعقد الذي نسميه الحياة الإنسانية، ثم يعبّر عن وقع هذا الوجود على وجدانه بصدق وجمال.

وسواء أقُلْنا بعد قراءة الشعر إننا نوافق الكاتب في رأيه، أم لا نوافقه، لأن الحياة في واقعها ليست كما يراها، فهذا ليس هو المهم، وإنما المهم أن قراءتنا لهذا الشعر تجعلنا ننظر إلى الحياة من زوايا جديدة، وتضيف إلى تجربتنا في الحياة تجارب جديدة، قد تكون أعمق وأنضج، حتى أننا لنحس، عندما نطوي آخر صفحة، أننا ازددنا معرفة بالحياة والإنسان.

وأنت في شعر عرار تدخل دائرة التأثير، وتبقى فيها إلى أن تصل إلى نهاية القصيدة؛ ذلك لأن شعره يخلو من سقطات بعض الشعراء الكبار، الذين يجمعون أحيانا بين الرائع والرديء في القصيدة الواحدة، ويجمعون بين صورتين متنافرتين في بيتين متتاليين.

وإذا كنا قد بدأنا القول بأن من صفات شعر عرار أنه شعر مَحَلّي، بالمفهوم الذي حدّدناه، فما موقف الجماليين، والنقاد الجدد (The New Critics)، الذين يسيطرون على دنيا الأدب في أيامنا هذه في الغرب، من مثل هذا الشعر؟ إنهم يرون أن القصيدة

الجيدة مكتفية بذاتها، لا نحتاج للكشف عن أسرار الجمال فيها إلى أن نعرف مناسبتها وظروفها، ولا حتى من نظمها. وفي رأيي أن هذا القول صحيح، ولكن في حدود. وأنا لست من المؤمنين إيماناً مطلقاً بما يقولون، ومن المؤمنين بالمنهج التكاملي الذي يرى الاستفادة من كل النظريات النقدية، لأنها متكاملة، غير متناقضة. والاختلاف بينها هو اختلاف في زاوية الرؤية.

٢- شعر عرار شعر ملتزم.

وقد كان عرار شاعراً ملتزماً، بكل ما في هذا المصطلح من دلالة وأبعاد. وكانت مواقفه واضحة جريئة: فقد وقف إلى جانب الفقراء، والمعوزين، وهاجم المستغلّين، ودعا إلى المساواة، ونادى بالعدالة.

وهذا موقف سيبقي عراراً مذكوراً دوماً كشاعر صاحب رسالة، أجاد التعبير عنها في شعره.

وهذا يجعلنا نقف أمام قضية مهمة في الفن: فنحن كلما تناقشنا في الفن عامة، وفي الشعر خاصة (وسأقصر حديثي هنا على الشعر)، تساءلنا: ما غاية الشعر؟

يرى البعض أن غاية الشعر هي المتعة، وأن القصيدة الجيدة هي التي تولد أكبر قدر منها. وفي رأيي أن المتعة نتيجة، لا غاية، وأن غاية الشعر عرض التجربة الإنسانية عرضاً يُرَسّخ في نفوسنا قيماً ومواقف، وإذا كانت غاية العلم تفسير الوجود، فإن غاية الفن تقييم الوجود. وهذا ما فعله عرار في شعره.

وهذا ما عناه كولردج في كتابه القيم "سيرة أدبية"

Biographia Literaria

عندما قال: إن الشعر ليس مجرد انفعالات وأحاسيس، فأرخص أنواع الأدب قادر على إثارتها. إنه رؤية، وكشف عن أسرار الوجود.

* * *

ورغم التزام عرار العميق الحاد، فإنه كان في الوقت نفسه رومانسياً، مغرقاً في رومانسيته. وإذا كان الرومانسيون الغربيون قد عبّروا بشعر حافل بالعاطفة المشبوبة عن ثورتهم، وهربوا إلى الطبيعة والحياة البسيطة، عندما أدركوا عجزهم عن التغيير، فقد فعل عرار مثلهم: هرب إلى مضارب النَّوَر، وإلى حياة الريف، حيث البساطة، وراحة البال، والمساواة التامة:

الكل زُطٌّ: مساواةٌ محقَّقَة تنفي الفوارق بين الجار والجارِ.

* * *

٣- شعر عرار شعر للرمز فيه دور كبير.

والحديث عن الرمز في شعر عرار حديث قد يطول؛ ولهذا سأقصر حديثي عن الرمز عنده على ثلاثة جوانب بارزة:

أولها: شخصية الهبر: وهي شخصية حقيقية، ورمزية، في آن واحد.

وقد وصف المرحوم الأستاذ يعقوب العودات الهبر، فقال:

"شخصية نَوَريّة، دميمة الخَلْق، مستقبَحة القوام، اختارها عرار لزراية شكلها، وحقارة شأنها، هدفاً لسهام نقده، ومخاطبتها عندما يحلو له خطاب ذوي الشأن، واستفزازهم". (عرار شاعر الأردن، ص١٣٨).

ويقول المرحوم الأستاذ محمود المطلق:

"رأى عرار في هذه الشخصية أنموذجاً كاملاً لشخصية النَّوَريّ، ومثالاً معبّراً عن كل ما في النَّوَر من خير وشر، وسمو وانحطاط. ولهذا فقد اتخذ منه رمزاً للنَّوَر، وأداةً أدبية يستعين بها على التعبير عن آرائه ومقاصده". (المقدمة، ص٢٣).

وتقول الشاعرة سلمى الخضراء الجيوسي:

"لعل عراراً كان أول شاعر عربي حديثٍ اخترع نماذج عليا في الشعر، وجعلها رموزاً لقضايا حيوية. جعل من الهبر رمزاً للإنسان البسيط المنبوذ المضطهد". (مجلة عالم الفكر، العدد الثاني).

وحقيقةُ الأمر أن الهبر في شعر عرار رمز لأكثر من هذا:

إنه رمز لما يتعاطف معه عندما يرى فيه الإنسان البسيط، المنبوذ، المضطهد، والإنسان المشرد الضائع.

وهو رمز لما يثير السخرية عندما يرى فيه الإنسان الذي فَقَد كل إحساس بالكرامة.

* * *

ويبدو الرمز عند عرار، ثانياً، في شخصية الشيخ عبّود النجار. وهي شخصية تُناقِض الشخصية الأولى تماماً: فهي رمز لفئة متزمتة منتفعة: فِقْهُها: "في الجنة الخلودُ"، ومبدأها أنها: "حِصَّةُ مَن في جيبه نقودُ".

وسخريته منها، ورفضه لها، لأنها بسلوكها تساهم في إبقاء الشعب على حاله من الجهل والتخلّف.

* * *

ويبدو الرمز عند عرار، ثالثاً، في كل امرأة تغزَّل بها، وكلّ قرية ذكرها، وكلّ وادٍ تَغَنّى به. إنها كلها رموز لهذا الوطن، الذي أَحَبَّ كلَّ من فيه، وما فيه.

٤- شعر عرار شعر عمودي، منظوم على أوزان الخليل، ما عدا قصيدتين هما: "متى؟" و"يا حلوة النظرة".

ومن الخطأ الشائع ما نردده من أن كل قصيدة نظمت على وزن من أوزان الخليل فهي قصيدة عمودية، مع أن الوزن (أو البحر) ليس سوى شرط واحد من سبعة شروط حَدَّدها النقّاد العرب القدامى، وجعلوها المبادئ التي يجب أن يقتفيها الشعراء.

وكان المرزوقيّ خير من حدّد مفهوم عمود الشعر، وذلك في مقدمته لشرح ديوان الحماسة، في قوله: "إنهم (القدماء) كانوا يحاولون: شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف، والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخيّر من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما. فهذه سبعة أبواب هي

عمود الشعر، ولكل باب منها عيار (أي مقياس)". وجاء ابن طباطبا فكتب كتابه المعروف "عيار الشعر".

وشِعر عرار عموديّ بهذا المفهوم للشعر العمودي الجيد.

ولو تأملنا في هذا التعريف لوجدنا كثيراً من الشعر الذي يُعْرَف بأنه عمودي، ليس عمودياً.

* * *

هذه ملاحظات نقدية عامة على شعر عرار، لعلها تصلح مخططاً لدراسة موسعة.

ويبقى عرار، بعد هذا، شاعراً لم ينل من عناية الدارسين ما يستحقه.

وما زال مجال القول فيه واسعاً.

العشرينات والعشرينيات(*)

الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد (ت٢٠١٥م)

– ١ –

تجري الألسنة والأقلام من حين إلى حين بتعبيرات وألفاظ لا تلبث أن تشيعَ مِن خلال الصحف والإذاعات والتأليف شيوعاً يستوقف الحريصين على سلامة اللغة ونقائها، فإذا هم يُطيلون البحث فيها والطواف حولها ليتحققوا من صحتها، ومن أنها جارية مجرى كلام العرب في الاستعمال، أو في القياس، أو فيهما معاً. وما أكثرَ ما صَدَرَ من كتب في القديم وفي الحديث، بَناها مؤلفوها على تَتَبُّع هذه التعبيرات والألفاظ، وبيان ما فيها من خطأ، والتنبيه على الصحيح الذي يجب استعماله مكانها.

وهذا بابٌ من العلم ظاهِرُه اليُسرُ والإغراء بالدخول منه، وباطِنُه محفوف بالمزالق والمكاره، إذ لا بُدَّ للمتوغّل فيه من أن يكون محيطاً بكلام العرب أو بأكثره، بصيراً بأساليبهم، عالِماً بشعرهم ونثرهم على مر العصور وتَعَدُّد البيئات، حافظاً، ذاكراً، قادراً على الاستشهاد وضرب المثل والإدلاء بالحجّة. وأين مَن يَدَّعي لنفسه كلَّ هذا أو بعضَه؟

(*) نُشر هذا البحث في العدد الأول من مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، سنة ١٩٧٨م.

ومن أجل ذلك كَثُرَت الكتب التي أَلَّفها أصحابها للردّ على مؤلفي الكتب السابقة، وبيان ما وقعوا فيه من تَسَرُّع إلى التخطئة وتوضيحِ وجه الصواب فيما ظَنّوه وهْماً أو مخالفاً لكلام العرب.

وكلا الفريقين من العلماء لا يَنْتَقِصُ مِن علم أحدهم أنه أخطأ في اجتهاده، ولا يَعيبُه أنه غاب عنه أمرٌ عرفه غيره؛ ولهم جميعاً الأجر والثواب إن شاء الله.

وما فَتِئْتُ أطلب هذا الضرب من الثواب، وأرجو أَجْر الاجتهاد، مُلقياً بدلوي بين الدلاء في ألفاظٍ شاعت ورأى غيري أنها خطأ، وكنتُ من الذين رأوا صوابها، ونَشَرْتُ بعض ذلك في مجلّة مجمع اللغة العربية بالقاهرة[1].

وأُحِبُّ الآن أن أستزيد من الخير، فأواصل في مجلة مجمعنا الناشئ ما كنتُ بدأتُه في مجلّة مجمعنا العريق.

– ٢ –

وكان الذي قادني إلى هذا الحديث مقالٌ نَشَرتْه صحيفة يوميّة[2]، في مصرنا العربية، الحبيبة لقلب كلِّ عربي، كَتَبَه عالِمٌ جليل، عضوٌ في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، معروف بالرويّة والتثبُّت، طالَمَا أَنِسْنا بحديثه وأَفَدْنا منه. وتناولَ في مقاله كلمتين نقتصر هنا على الثانية منهما، ونبدأ بنقل ما كتَبَه عنها بحروفه، قال:

(١) الأجزاء ٢٥ و٢٧ و٢٩ و٣٤.

(٢) جريدة الأخبار، ١٩٧٧/٩/٢١، ص٥، بعنوان "الصواب المظلوم".

"وثَمَّت كلمة ثانية يستعملها الناس في عصرنا على أنها صواب، وهي عريقة في الخطأ، وهي كلمة: العشرينات والثلاثينات والأربعينات، وما إلى ذلك من سائر العقود. وَوَجْهُ الخطأ في هذا الاستعمال أن هذه الكلمات جموعٌ لعشرينة وثلاثينة وأربعينة، وليست هذه الكلمات في متن اللغة، إذ كانت لا معنى لها.

والصواب في الاستعمال أن يقول القائل: هذا حَدَثَ في العشرينيّات والثلاثينيّات والأربعينيات، بمعنى أنه حدث في السنوات المنسوبة إلى العشرين والثلاثين والأربعين وما إليها. فالكلمة يجب أن تكون مستعمَلَةً على طريق ياء النسبة، وحَذفُ الياء هذه خطأ، عريق في باب الخطأ الذي يكاد يهبط إلى منزلة الخطيئة، لأن الفصحى من شعائر الإسلام، ولأن الحرص على العربية حرص على لغة القرآن..".

– ٣ –

وَلِحِرْصِنا جميعاً على العربية، لغة القرآن، نستأذنُ الأستاذ الجليل في أن نأخذ بأطراف الأحاديث بيننا، ونستأنف مجالسَ كانت لنا، عَرَفْناه فيها مُحِبّاً للحقيقة والحقّ، حَفِيّاً عنهما، لا يضيق صدره بِرَدٍّ أو سؤال أو تصحيح.

ولقد غاب عني فهمُ ما قصد إليه من قوله إنّ العشرينات، بغير ياء النسبة، "عريقة في الخطأ" وأن "حذف الياء هذه خطأ عريق في باب الخطأ"؛ فلم أفهم معنى "العراقة" هنا! إنَّ الذي يتبادر إلى الذهن من ظاهر اللفظة أنها تعنى القِدَم في الاستعمال على هذه الصورة. فهل وَرَدَت "العشرينات" وأضرابُها في كلام العرب قديماً؟ هل جاءت في شعرٍ أو نثرٍ من عصور الاحتجاج اللغوي؟ إنْ كانت في مثل هذه العراقة فأولى أن نقول: إنها "عريقة في الصواب"! وإن لم تكن قد تَحَدَّرَت

إلينا من تلك العصور، ففي أيّ عصر بدأ استعمالها؟ فإن كانت هذه اللفظةُ لم تَجْرِ في الاستعمال إلّا في المائة الأخيرة أو قبلها بقليل، فليس لنا أن نقول عنها إنها "عريقة"، لا في خطأ ولا في صواب.

وإن كان المقصودُ من العراقة في الخطأ أنها مخالِفَةٌ لطريقة العرب في بناء الكلمة وفي جمعها، وليس في استعمال هذا الجمع بعينه قديماً، فذلك يقودُنا إلى مسالك أخرى من الحديث.

فالعشرينات والثلاثينات والأربعينات ليست بالضرورة "جموعاً لعشرينة وثلاثينة وأربعينة" التي هي ليست "في متن اللغة، إذ كانت لا معنى لها".

والجمع الذي ينتهي بالألف والتاء، والذي يُسَمُّونه جمع مؤنث سالماً، ليس دائماً جمعاً لمؤنث، إذ كثيراً ما جُمِعت عليه ألفاظٌ لمذكَّر غير عاقل، إذا لم يكن لهذه الألفاظ جمعُ تكسير؛ فألفاظٌ مِثلُ: حَمَّام وخَزّان، وسجِلّ، وقرار، ومُسَوِّغ، تُجْمَع على: حَمّامات، وخَزّانات، وسِجلّات، وقرارات ومُسَوِّغات؛ وكلُّها في مفردها تدلّ على مذكّر غير عاقل. بل استعملوه أيضاً في القديم والحديث لجمع الجمع، للمذكر العاقل وغير العاقل؛ في العربية، رجالٌ ورجالات، وجِمالٌ وجِمالات، وبيوتٌ وبيوتات، وبُيوعٌ وبيوعات، وأهرامٌ وأهرامات. ومفردها مذكَّر.

ثم إذا كنّا قد حَكَمنا بأن "العشرينة والثلاثينة ليست في متن اللغة" فإننا كذلك لا بُدَّ حاكمون بأن "العشرينية والثلاثينية والأربعينية" ليست كذلك في متن اللغة على وجه اليقين، ولم يَجْرِ بها لسانُ أَحدٍ من العرب في القديم. ونحنُ نَعْلم أن

مَجْمَعنا في القاهرة قد بَحَثَ هذه الألفاظ وجموعها، وذَهَبَ إلى ما ذهب إليه الأستاذ الجليل، وعدَّ "العشرينات" وأضرابها خطأ، و"العشرينيات" وأضرابها هي الصواب(١).

ثم إن هذه "الياء" المُقْحَمة التي قيل إنها للنسبة، مشكلة في التَّصوُّر والفَهم معاً: فما أَظنُّ أحداً مِمَّن يَستعمل هذه الجموع يَصدُر عن تَصَوُّر النسبة إلى مفرداتها؛ وما أظنُّ أحداً ممن يسمعها أو يقرأها يستقرُّ في فهمه معنى هذه النسبة، وإنما يريد القائل أن يدلّ دلالة عامّة على حقبة زمنية تمتدُّ عشر سنوات، تبدأ بعدد في صورة الجمع، وليس في حقيقته جمعاً، وتتسلسل بعده تسع سنوات تالية، بِوَضْعِ عَدَدٍ قَبْلَه بَينَهُما واو العطف. هذه الدلالة العامة على حقبة زمنية معيّنة هي التي يَقصدها القائل حين يريد أن يتجنَّبَ تحديد سنة بعينها، وهي التي يَفْهمُها السامع، ولا يدور في خَلَد أحد منهما أن ينسب إلى شيء.

وإذا كان لا بُدَّ من استعمال أحد هذين الجمعين، فإنَّ تَرْك الياء أولى، واستعمال العشرينات والثلاثينات والأربعينات، أقرب إلى ذوق العربية وأدخل في أساليبها، وهو ما شاع استعماله واستساغه العرف.

---

(١) في الجلسة التاسعة من مؤتمر المجمع في الدورة التاسعة والثلاثين، وفي الجلسة السادسة والعشرين من المجلس في الدورة نفسها؛ وانظر بحث الأستاذ محمد شوقي أمين، وبحث الأستاذ الشيخ عطية الصوالحي في كتاب "الألفاظ والأساليب" إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١٩٧٧.

ومع ذلك، فقد اعْتَسَفْنا الطريق وأصبحنا مُنْبَتّين، حين تَرْجَمْنا ترجمةً حرفية ما استعملته اللغات الأجنبية من جموع هذه الألفاظ، ثم دخلنا في تيه من الجدل في تخطئة هذه الترجمات وتصويبها، ولم نَرْجِعْ في كلّ ذلك إلى ما استعمله العرب منذ أقدم عصورهم للدلالة على هذه الألفاظ، متوهّمين أنها من المعاني العصرية المستحدَثَة التي لم تَرِدْ في كلام العرب، على حين أنهم عَرَفوها وأداروها كثيراً في كلامهم منذ الجاهلية؛ وهي لفظة العقد نفسه –بغير جمع– مقرونة بالألف واللام، وقد تُجَرَّدُ منهما في الشعر بخاصة، إذا دلّت القرينةُ على المعنى، فقالوا: العشرين، والثلاثين، والأربعين، إلى آخر العقود، بدلاً من العشرينات أو العشرينيات وأضاربهما. وَبِحَسْبِنا شواهد معدودات نأنس إليها في هذا الحكم وتطمئن إليها نفوسنا:

قال سُحَيْم بن وَثِيل الرِّياحيّ (جاهلي إسلامي)[١]:

وماذا يَدَّري الشعراءُ منّي وقد جاوَزْتُ رأسَ الأربعينِ
أخو خمسينَ، مجتمعاً أَشُدّي وَنجَّذني مداورةُ الشؤونِ

فللأربعينَ رأسٌ هو حَدُّها الأعلى ولها "ذَنَبٌ" هو حَدُّها الأدنى، وهي تتدرَّج بينهما. فَسُحَيْم يَذكر أنه جاوز التاسعةَ والأربعين من عمره، وهي رأسُ الأربعين وحَدُّها الأعلى، ثم وَضَّحَ ذلك توضيحاً ما بعده من مزيد حين قال: "أخو خمسين".

(١) البيتان من القصيدة الأولى في الأصمعيات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون.

ويقول دِعْبِل الخُزاعي (عبّاسي)[١]:

أفِيقي مِـن مَلامِكِ يـــا ظَعينـــا كفاكِ اللـــومَ مَـــرُّ الأَربعينـــا

وهذا شبيه بقول سُحَيْم؛ فالأربعون بكلّ سنواتها قد مَرَّت وانقضَت، وصار شاعرنا "أخا خمسين".

وأشهَرُ بيت في هذا المضمار قول عوف بن مُحَلَّم الخزاعيّ (عبّاسي)[٢]:

إنّ الثمانيـــن -وَبُلِّغْتَـــهـــــا- قـــد أحْـوَجَتْ سمعي إلى تَرْجُمانْ

ومَن عَرَفَ طريقة العرب في البيان أدركَ أن الشاعر هنا لا يريد ثمانين سنة على وجه التحديد والتخصيص، لا يتجاوزها، ولكنّه أراد العقد بمجموع سنواته، فهو في "الثمانين" بين أدنى سنواتها و"رأسها".

وقد ذكرنا أن هذه العقود قد تُجَرَّد من الألف واللام في الشعر بخاصة إذا دلّت القرينةُ على ذلك. ومِنْ أطرف ما نَسْتَشْهِد به على ذلك، وأعذَبِه، وأَنفَسِه، قول المَلَليّ[٣]:

ولقـد قالـــتْ لِأَتْـــراب لهـــا كالْمَهـــا يَلْعَبْـــنَ في حجْرَتِهـــا

(١) ديوانه: ١٤٨، تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٢م.

(٢) ترجمته في فوات الوفيات، رقم: ٣٤٠، والبيت من شواهد النحو في إعراب الجمل.

(٣) من أبيات اطّلعتُ عليها في مخطوطة كتاب نوادر الهجري، في مكتبة أستاذنا محمود محمد شاكر.

"خُـــذْنَ عنّي الظِـــلّ، لا يُفْزِعُني" ومَضَـــــتْ تســـــعى إلى قُبّتِهـــــا
بِنْـــــتُ عَشْـــرٍ لم تُعانِقْ رَجُـــــلاً صُـــــوّرَ البَـــــدْرُ علـــــى صورَتِها
ولقـــــد قَبّلْـــــتُ فاهـــــا قُبْلَـــــةً كِـــــدْتُ أَلْقَـــــى اللهَ مـــــن لَذّتِهـــــا

ولا أُحِبُّ لنفسي ولا لِغَيري أن نَعْتَسف الطريق ونَقْتحِم الكلام بغير دليل، ولكنَّ الجوَّ يوحي بأن الشاعر لم يقصد إلى تحديد سنّ العاشرة، وإنْ كان ذلك قد جاز، ولا يزال جائزاً على نُدرة نادرة، وإنما أراد هذه السنَّ التي تزدهر بين العاشرة والتاسعة عشرة، والتي يُطلقون على من كان فيها من الفتيات والفتيان بالإنجليزية "تِيْنْ إيجرز"، ونحار في اختيار كلمة عربية مقابلة لها.

– ٥ –

وبعد،

فمن أراد طريقةَ العرب وما ساروا عليه في كلامهم، فأمامه هذا الشعر المُبِين، ولْيَقُل: "حَدَثَ ذلك في العشرين أو الثلاثين أو الأربعين من هذه المئة، أو من هذا القرن"، ولا يخافَنَّ اللّبْس؛ فنحن لا نقول: حَدَث ذلك في العشرين من هذا القرن، ونقصدُ سنة ١٩٢٠، وإنما نُحَدِّدُها ونقول: حدث ذلك في سنة عشرين، وليس في العشرين.

ومن أرادَ المخالفة عن استعمالهم الذي أَلِفُوه، وأرادَ أن يُحْدِثَ كلاماً جديداً، فلا بأس عليه أن يجمع لفظ العقد فيقول: العشرينات والثلاثينات. وقد وَرَد في كلام العرب تثنية العقد:

"قال الأخفش: أخبرني المبرّد قال: أنشدني سليمان بن عبدالله بن طاهر لنفسه: "وقد مَضَت لي عشرونان ثنتان". فقلت له: أيُّها الأمير، هذا لَحْنٌ لأن إعراباً لا يَدْخُل على إعراب"(١).

وإنكارُ المُبَرِّد لا ينصرف إلى تثنية العقد، وإنما انصرف إلى وجود إعرابَين: فالواوُ والنون للرفع في جمع المذكر السالم، والألف والنون للرفع في المثنّى. ولو قال: لي عشرينان ثنتان، ما أنكر المبرِّد شيئاً.

وإذا جازت التثنية على هذا الوجه جاز الجمع.

أما ما سِوى ذلك، كإضافة ياء النسبة قَبْلَ الجمع، فشيءٌ تنبو عنه الأسماع، وتمجُّه الأذواق، وليس ما يدعو إليه، مَهْما يُزَيِّنه لنا المزيّنون بتخريجاتهم.

(١) المرزباني، الموشح ٣٥٧، المطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٤٣هـ.

في سبيل تعريب التعليم الجامعي في العلوم الطبيعية
مشاكل وحلول(*)

الأستاذ الدكتور أحمد سليم سعيدان (ت ١٩٩١م)

١- في تقديري أننا تجاوزنا مرحلة الدعوة إلى تعريب التعليم الجامعي، والتغزل بمحاسنه، والتأكيد على أنه ضرورة تربوية وقومية؛ فقد عقدت من أجل ذلك مؤتمرات، وأُلقيت بحوث ومحاضرات، واشترك في هذا المضمار باحثون أجلّاء، من العرب ومن غير العرب.

يبدو لي، على كل حال، أنه لم يعد يجدي في هذه المرحلة تعداد محاسن التعريب، ولا رصد مساوئ التعليم في الجامعات العربية بغير اللغة العربية. فإن يكن أحد ما زال في شك من جدوى التعريب، فغاية الأمر عندي أن يقال له: تعال نجرّب، ثم نحكم على النتائج.

إذا تجاوزنا مرحلة الدعوة إلى التعريب، فنحن إذن في مرحلة التنفيذ؛ وإذا كنا قد أجزنا أن نمسك، في هذه المرحلة، عن الخوض في تأييد التعريب ومعارضته، فلا يجوز لنا، ونحن نخطط للتنفيذ، أن نتجاهل حجج المعارضين ودعاواهم. وغنيّ عن البيان أن دعاوى المعارضين تجملها تساؤلاتهم: أين المصادر العربية؟ وأين المراجع

(*) نُشر هذا البحث في العدد المزدوج (٥-٦) من مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، سنة ١٩٧٩م.

التي تبقينا على علم بتطور العلوم؟ ثم أين الدوريات العربية العلمية التي فيها ننشر أبحاثنا. إنهم، بإيجاز، يريدون أن تكون المكتبة العربية في مثل غنى المكتبات الغربية في الكتب والنشرات العلمية. وهذا مطلب حق ينبغي أن نسعى لتحقيقه جاهدين.

ولكني أبادر إلى القول بأن تساؤلات المعارضين، على وجاهتها، تخفي وراءها غير ما تظهر. وإني، وقد سبق أن خضت مع زملاء لي معركة التعريب في قطر عربي شقيق، على يقين أن ما لا يظهره المعارضون هو التهيّب والتحرّج: معلّمٌ تَعَلّمَ بالإنكليزية، وهو الآن بها يعلّم؛ فَهْمُه لها محدود، وفهمُ طلابه له أقلّ القليل؛ ولكن الأمر مَسْتور، فلماذا يخوض هذا المعلّم تجربة التعليم بالعربية، وهذا ما يقتضي فوق تعلّم مصطلحاتها، استذكار قواعدها الصارمة؟ إنه يخشى أن يعلّم بلغة قد يتقنها طلابه أكثر منه. إن دافع المعارضين الباطن هو في أغلبه خوف وكسل؛ وقد ينجلي أكثر هذا الخوف عند بدء التعريب. ولكن يبقى أن المطالبة بإبقاء الكتب والنشرات العلميّة تحت متناول يد القارئ العربي أمر لا بد من السعي الدائب لتحقيقه.

٢- ولقد سمعتُ قولة حقّ قالها غير واحد، مؤداها أن التعريب خطوة سياسية ينبغي أن تأتي بقرار سياسي من عَل. وفي يقيني أن هذا القرار يعطي التعريب دعماً كبيراً؛ ولكن يبقى الخوف من فشل التجربة الأولى، لمجرد أن الجنود المجهولين الذين يمارسون التعليم في قاعات الدرس لا يريدون التعريب لمثل هذا التحرّج الذي أشرت إليه. فمع المرسوم السياسي الذي يأمر بالتعريب، نبقى بحاجة إلى فئة من المعلمين أنفسهم تؤمن به، وتدعو إليه، وتدافع عنه، وترقب، من حيث تشعر أو لا تشعر، تنفيذه؛ ونبقى أيضاً بحاجة إلى خطوات تهيّئ الأسباب للبدء به وللسير فيه.

هنالك خطوتان رائدتان خطوناهما في الأردن، وفي الذهن كل هذه المشاكل التي ألمحتُ إليها. ولأبدأ بثانية الخطوتين:

أقدم رئيس الجامعة الحالي، الدكتور ناصر الدين الأسد، على الطلب إلى عميد كلية العلوم فيها بالإسراع بتعريب التعليم في كلّيته. وسئل الرئيس: هل أقر ذلك مجلس العمداء؟ فقال: وما لكم وله! إن للكلية الحق في أن تعلم بالعربية إذا هي أرادت.

ولما عرف أعضاء هيئة التدريس في كلية العلوم أن رئيس الجامعة يساند التعريب ويلحّ بطلبه، ارتفعت أصوات الداعين له، وخفتت أصوات المعارضين. وإنّ كلية العلوم في الجامعة الأردنية تتطلع الآن لأن تبدأ التعليم بالعربية، في العام الدراسي القادم، في السنة الجامعية الأولى، على الأقل.

ولا شك أن خطوة رئيس الجامعة الأردنية لم تكن لتنجح لولا خطوة سبقتها ومهّدت لها السبيل؛ تلك هي خطوة مجمع اللغة العربية الأردني، وأكثرية أعضائه من رجالات الجامعة الأردنية. ذلك أن المجمع كان قد شرع بترجمة خمسة كتب في العلوم الأساسية، اختارها أساتذة كلية العلوم أنفسهم على أمل استعمالها في السنة الأولى الجامعية، وبعض الثانية.

وقد أُعْلِمَت الجامعات العربية والمجامع اللغوية بهذه الخطوة التي خطاها مجمع اللغة العربية الأردني، وتوالت على المجمع كتب التأييد والتشجيع من مختلف الجامعات والجهات.

٣- ولكنْ غنيّ عن البيان أن أمر ترجمة الكتب العلمية لا ينقضي بترجمة خمسة كتب، ولا عشرة، بل ولا ألف؛ إنه عملية متواصلة دائبة، لها بداية، وليس لها نهاية. إنها تمشي مع التعليم الجامعي جنباً إلى جنب، وكالتعليم، يسلمها كل جيل، مع صفوة خبراته، إلى الجيل الذي يليه.

في أوائل هذا القرن، قام واحد من رواد ما يسمى بالنهضة العربية الحديثة، بترجمة كتاب إنكليزي في الهندسة المستوية. ولعلّ أكثرنا يذكر الكتاب، فقد تتلمذنا كلنا عليه، وكنا نعرفه باسم كتاب "هول واستيفنز". ولقد عاشت هذه الترجمة نحو نصف قرن في مدارس الشرق العربي. ولقد نفدَ الأصل وتوقّف عن الطبع، وظلّت من بعده الترجمة تُطبَع المرة تلو المرة.

مثل هذا لم يعد يحدث؛ إننا نعيش في عصر يتطور فيه العلم بسرعة مذهلة، وتتجدد وسائله وسبل عرضه وتوصيله للناس؛ فما من كتاب علمي يصمد لرياح التطور أكثر من خمس سنوات، بُعَيْدَها أو قُبَيْلَها يُطرَح على الرفّ إن لم يبادر المؤلف إلى تجديده على نحو يتّفق مع ما استجدّ من معلومات وخبرات ومفاهيم وأذواق. لذا نجد الكتب التعليمية تتلاحق، ويزحم بعضها بعضاً: فما كان يُعَدّ كتاباً موفّقاً بالأمس يَسقط اليوم في الميزان.

وليس هذا التغيّر المستمر نقصاً في الفكر العلمي، ولكنه من طبعه وطبيعته؛ فإذا كان الدوام والخلود هدف الأدب، فإن التطوّر هدف العلم. والتطوّر في مقاييس العلم هو الحياة، والحياة هي الخلود. نظرتان مختلفتان، ولكنهما تلتقيان في الأفق البعيد.

مما تقدم نَخْلُص إلى أن ترجمة الكتب التعليمية عمل ينبغي أن يكون دائماً مستمراً لا ينقطع. وهذه ضرورة تزداد إلحاحاً كلّما مضينا قُدُماً في تعريب التعليم. ونحن نراعي في الوقت نفسه أن نبقى مواكبين، على قدر الطاقة، لتيّار التطور العالمي.

فإذا أضفنا إلى هذا السيل من الكتب التعليمية الذي تفرزه المطابع كتب البحوث العلمية والدوريات وأمهات المراجع، نجد أننا أمام أمر جلل يفوق كل وصف. قُدّر ما تخرجه مطابع العالم من الفكر العالمي الرصين، في الدقيقة الواحدة، ما لو جمع في مجلد واحد لبلغ هذا المجلد حجم الموسوعة البريطانية.

والمكتبة العربية لها علينا واجب تزويدها بالفكر العالمي، والقارئ العربي له علينا واجب تقريب هذا الفكر إليه؛ وهذا واجب لا بد من الاضطلاع به إذا كنا نبغي أن تكون الأجيال العربية على علم بروح العصر، وعلى فهم لعقليته. واضطلاعنا بهذا الواجب يستلزم ترجمة دائبة متصلة.

إنني أرجو ألا يظن أني في تحمسي للترجمة خلطت بين مهمتين: ترجمة الكتب التعليمية من أجل التعريب، وترجمة الفكر العالمي الذي يستهدف خلق أجيال عربية تضيف إلى موروثها الفكري والحضاري، الذي نعتز به، فهماً ووعياً لروح العصر الذي تعيش فيه. صحيح أن هنالك فرقاً بين المهمتين، ولكن يخطئ من يظن أن التعليم يمكن أن يمضي سليماً بمعزل عن الحياة، أو أن العلم في أي عصر يمكن أن يُفْهَم الفهم الإيجابي البناء بمعزل عن فكر ذلك العصر. إنه يكون كثمرة قطفت من شجرتها، مهما تكن حلوة فإنها تطعم آكلاً واحداً، أما الشجرة فتطعم الناس أجيالاً

وأجيالاً، وتفيء بظلها على كل مستظل. إني أتمنى أن يكون تعليمنا، لا ثماراً يتخطفها الآكلون، بل أشجاراً تؤتي أكلها الشهي وظلها الظليل ورونقها الغض النضير. لعل من نقائض نُظُمنا التربوية القائمة أنها تقدم ثماراً شهية أكثر مما تغرس أشجاراً ندية.

٤- نحن إذن أمام واجب دائم لا ينقطع، هو واجب الترجمة. وأمر الترجمة لا يجوز أن يبقى فوضى بلا تنسيق، كيلا تصير الترجمة إقليمية، وكيلا يهدر الوقت والجهد بترجمة الكتاب الواحد أكثر من مرة دون مبرر، وكيلا تنزل إلى الميدان مصطلحات متضاربة تدخلنا في دوامة المقابلة، وحساسيات الاختيار والمفاضلة.

المطلوب ترجمة الكتب الجامعية ترجمة تشرف عليها الجامعات العربية، وتباركها المجامع اللغوية. والترجمة لا تتمّ بمجرد أن تُنْقَل مادة الكتاب إلى العربية؛ فلا بد من طباعة، ثم لا بد من نشر. فهل تقوم الجامعات والمجامع بالترجمة، ثم تسلم أمرها إلى دور النشر التجارية؟ إن كان يتحتم هذا في حالات، فهو لا ينبغي أن يكون في الكتب التعليمية التي نؤلفها أو نترجمها لأبنائنا الطلبة وزملائنا المعلمين.

إذن تُحْسِن الجامعات والمجامع صنعاً إذا هي أنشأت مكاتب للترجمة والنشر، تُعْنَى بنشر الكتب التعليمية بأثمان تساعد على تيسير العلم، ولا تستهدف الربح الوفير.

٥- أرجو ألا يغيب عن البال أن الهدف الكبير الذي نهدف إليه هو تعريب التعليم الجامعي؛ ومن أجل التعريب جئت أطرح فكرة الترجمة، وفكرة مكاتب الترجمة والنشر.

وغنيّ عن البيان أننا لا ينبغي أن نؤجل التعريب إلى أن نترجم وننشر، ونُقِيم في كل جامعة أو مجمع مكتباً للترجمة والتأليف والنشر. إن ما أقدَمَ عليه مجمع اللغة العربية الأردني مبادرة فيها كثير من المجازفة، وكثير من الأمل. كان يستهدف وضع نواة تمكّن المعلم في الجامعة الأردنية من أن يمضي مع الطلاب في السنة الأولى الجامعية على نحو لا يختلف كثيراً عما ألفوه في المرحلة التوجيهية. ولكن لا شك أن تعريب التعليم، مهما ساندته الترجمة، يمكن أن يمضي بدونها، ولو مرحليّاً.

أليس أمراً هيّناً أن نحاضر ونشرح ونناقش بالعربية، حتى مع ذكر مصطلحات أجنبية، إذا لزم الأمر، ثم في نهاية المطاف نرجع الطالب إلى مرجع أجنبي؟ لأَن أقول لطلابي: ستقابلكم في هذا المرجع مصطلحات جديدة، إليكم قائمة بها وبمعانيها العربية، أجدى وأضمن لفهم الطالب من أن أحاضره بلغة لا يفهمها، ثم أسلمه إلى كتاب يُحَوّل درسَ العلم عنده إلى بحث في القاموس. بل إني على يقين أن الرجوع إلى كتب أجنبية أمر لا مندوحة عنه، حتى وإن تكاثرت الكتب المترجمة؛ وهو أمر سيتزايد كلما صعدنا في سلم التعليم الجامعي.

٦- ومشاكل الترجمة والنشر ليست سهلة هيّنة، وإنما هي كثيرة متشابكة، آخذ بعضها برقاب بعض؛ ولذا فإني، في سبيل التفكير فيها تفكيراً صافياً بَنّاء، أحلّلها إلى عواملها الأولية. ومن عواملها الأولية: ما الذي نترجمه؟ ومن الذي يترجم؟ وماذا بعد

الترجمة؟ بعبارة أخرى: أبحث في أمر الكتب التي تترجم، وأمر الأشخاص الذين يقومون بترجمتها، ثم أَمْر نشر هذه الكتب.

أ- أما بصدد الكتاب الذي يترجَم، فبين البيروقراطية والمركزية التي تدعو إلى مجلس عربي عام يقوم باختيار الكتب، فيوقعنا في بطء الإجراء ودوامة اختلاف الأذواق والمستويات، وبين فوضى المبادرات الفردية، كأن يقوم كلّ مدرّس بترجمة الكتاب الذي يحلو له، ثم إذا بنا نجد للكتاب الواحد أكثر من ترجمة واحدة، أرى أن نختار طريق المركزيات المحلّية. ففي الأردن، مثلاً، يقوم المدرّسون باختيار الكتب التي يوصون بترجمتها من أجل التدريس، فيعرضون قائمة بأسمائها على مجالس الأقسام، فمجلس الكلية؛ فإذا اقتنع المجلس بجدوى الترجمة، آخذاً بعين الاعتبار عمر الكتاب الحالي من ناحية، وإمكانيات التأليف من ناحية أخرى، يتقدم بطلب إلى مجمع اللغة العربية الأردني؛ فإذا أقر المجمع الترجمة، يخبر بذلك الجامعات العربية والمجامع، كيلا تقوم بترجمة الكتاب نفسه. فإذا انقضى سنتان ولم يظهر الكتاب، تصبح الجامعات والمجامع في حلّ من أمر ترجمته.

فما المشاكل المنظورة التي يمكن أن تقوم في وجه هذا الترتيب البسيط؟

أولاً: الجامعة التي لا تجد إلى جوارها مجمعاً مستعداً للإشراف على ترجمة ما توصي بترجمته من كتب وعلى تمويله يمكن أن تستعيض عنه بمكتب ترجمة تقيمه لهذا الغرض، كي يتولى مهمة المجمع هذه، مستمداً سلطانه من الجامعة ذاتها.

ثانياً: الحصول على حق الترجمة، إذا أمكن، أمر ينبغي أن تسعى إليه المجامع ومكاتب الترجمة؛ فإذا تعذر فمن حسن حظنا أننا لم نرتبط عالمياً باتفاقية حق المؤلف والناشر؛ يكفي أن نخبر المؤلف أو الناشر أو كليهما أننا نرغب في ترجمة الكتاب، وليس علينا بعد ذلك مأخذ قانوني.

ثالثاً: إن النظرة الواقعية قد تغاير توحيد الكتاب الجامعي في جميع أنحاء العالم العربي. ولعلّ في أن يُتَرْجَم في الموضوع الواحد، من المستوى الواحد، أكثر من كتاب، خيراً؛ فأبناؤنا بحاجة إلى كتب مقررة وإلى مراجع؛ وإن من الخطر أن يكون ثمة مرجع واحد يرجع إليه الطالب والمدرس.

رابعاً: ينبغي أن نشجع التأليف الأصيل بقدر ما ينبغي أن نشجع الترجمة؛ فإذا استُعمِل كتاب مؤلَّف محلّيّاً، فينبغي أن يحرص مكتب الترجمة أن يكون هذا الكتاب من مستوى جيد متجدد، فإذا لم يجدَّد وجب تغييره بدون تردد. إن لم يكن ما نؤلفه للجامعة في المستوى العالمي المقبول، فلا خير فيه.

خامساً: بالتأكيد: ما كل ترجمة مقبولة، لا من حيث اللغة، ولا من حيث المحتوى؛ فكل كتاب يُتَرجَم أو يُؤَلَّف ينبغي أن يُعرَض على لجنة تقييم تشهد بسلامة لغته وصحة ترجمته.

ب– نأتي الآن إلى اختيار المترجمين: فهؤلاء طبعاً من أساتذة الجامعة، كل في ميدان تخصصه. والأساتذة منهم قلّة يقدرون على الترجمة، وأكثرهم لا يقدرون. أما أولئك الذين يقدرون على الترجمة فقد أوتوا موهبة عالية، هي القدرة على فهم لغتين

فهماً صحيحاً، وعلى التعبير بلغتهم على الأقل تعبيراً صحيحاً. مثل هؤلاء قادرون على أن يكتبوا للمجلات السيارة مقالات يتقاضون عليها مكافآت عالية. فإن لم يكن المردود المادي للترجمة مجزياً، فسيفضِّل هؤلاء أن ينصرفوا إلى كتابة المقالات؛ وإن هم لم يترجموا فكل ما ندعو إليه مآلُه الفشل. لذلك لا بد من حافز سخيّ يحفزهم للترجمة. وأول ما يتبادر إلى الذهن اعتبار الترجمة الناجحة مبرراً قوياً للترقية. إني أقولها بكل ما أملك من قوة: مهما بلغ ترحيبنا بالبحوث الجامعية الأصيلة، فإن الترجمة الناجحة أكثر منها فائدة وأدعى للترحيب. ولذا فإني أدعو إلى جعلها مميِّزاً يَستَدعي الترقية.

أما الذين لا يقدرون على الترجمة فلا ينبغي أن ندير لهم ظهرنا؛ ذلك أن الترجمة تتحسن بالممارسة، ومن لا يتقنونها الآن فقد يتقنونها في المستقبل؛ ولذا فعلى المسؤولين عن أمر الترجمة أخذ هؤلاء بكثير من الصبر والحكمة والأناة، عساهم يغدون بعد حسن أحسن حالاً. إن من واجبات مكاتب الترجمة أن تساعد على تخريج أجيال ممن يتقنونها.

وبصدد تخريج هذه الأجيال، أقترح بقوّة أن يكون من مساقات كل قسم مساق واحد على الأقل يقتضي أن يقوم فيه الطالب بترجمة كتاب، أو فصل من كتاب، أو بحث في ميدان تخصصه. ويمكن أن تجمع هذه الترجمات وتنشر. وإذا خُطِّط لمثل هذا المساق تخطيطاً سليماً، فسيكون ما يُبْذَل فيه من جهد مثمراً أكثر مما نتصور.

وأود أن أشير إلى العدو الرابض في المحتل من أرضنا. بمثل هذا الذي أذكره خلقوا لهم لغة بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، ونقلوا إلى هذه اللغة أكثر الفكر العالمي الرصين، وكوّنوا لهم مكتبات تنافس أغنى المكتبات.

فإذا تصوَّرنا نشاطاً في ترجمة الكتب العلمية ملء العين، تنظّمه وتشرف عليه مكاتب متخصصة، في رحاب مجمع لغوي أو جامعة، وترجمة أخرى جادة يقوم بها طلاب لاستكمال متطلبات تخرّجهم، لا يمكن إلا أن يرتسم في الصورة سيل من المصطلحات العلمية، منها المعرَّب ومنها المترجم، ومنها القديم ومنها المستحدث، ومن هذا المستحدث ما قد يصمد وما قد يذهب كالزبد جفاء، يرفضه اللسان. ومع هذا السيل الذي يتدفق في كل قطر، مَن ذا الذي يضمن ألّا نفتح أعيننا إلا وقد وجدنا لكل قطر مصطلحات علمية خاصة به، تكرّس الانفصال اللغوي مثلما كرّست الأحداثُ الانفصالَ السياسي؟!

الذي يضمن ذلك قيام مكاتب الترجمة بتنسيق هذه المصطلحات وجمعها وعرضها في مجموعات على المجامع اللغوية، كيما تساعد على إقرار ما تراه مناسباً، وعلى رفض ما لا تراه مناسباً.

وإذا كنا نتردد كثيراً في تقييد المترجمين، ونطلب أن يمضوا قُدُماً في ما يرونه مناسباً من تعريب أو ترجمة للمصطلحات المستحدثة، وإذا كنا ندرك أن مفاهيم بعض المصطلحات يعتريها ما يعتري العلوم ذاتها من تطور، فينبغي ألا نتردد قيد أنملة في إشاعة ما تُقِرّه المجامع اللغوية من مصطلحات مستحدثة، وفي الإلحاح على الالتزام

به ريثما يأتي ما هو أحسن منه. ليست الغاية التي نستهدفها قطع الطريق على استحداث المصطلحات، ولكن الغاية أن نعمل على توحيدها في العالم العربي.

ومكتب التنسيق، الذي يقوم بهذه المهمة خير قيام، ينبغي أن يكون من العلميين المتخصصين الذين يشاركون في الترجمة ذاتها، ويعرفون عمّا يتحدثون. لذا أرى أن يكون هو نفسه مكتب الترجمة: ينظّم الترجمة، وينسّق المصطلحات، ويرفعها إلى المجامع.

جـ – وبعد الترجمة تأتي الطباعة والنشر.

أما الطباعة فتتولّاها المطبعة، والتكنولوجيا تولي الطباعة اهتماماً كبيراً، فما قد نراه الآن أحدث مطبعة نجده بعد سنتين قد فاته قطار التطور السريع. ومع تطور الطباعة يأتي التفنّن بالتلوين والإخراج وعرض الكتاب على نحو جذاب. ولقد أقنعتني الخبرة العملية والممارسة أن المطابع المحلية تجد أسهل عليها وأقل كلفة أن تلبي الطلبات المتزايدة: من إخراج جذاب ذي ألوان وتجليد، باللجوء إلى مطابع في أثينا أو روما. وهذا أمر مؤسف، ولكن لعلّ علاجه من شأن المطابع المحلية. علينا أن ندفع بها للحاق بالركب، وهي عاجلاً أو آجلاً ستستجيب.

ولكن الطباعة غالية التكاليف؛ إنها تبلغ أربعة أضعاف ما تكلفه الترجمة. وإذا كان الكتاب الذي يترجم سيعطى إلى عدد كبير من الطلاب، ضَمِنّا أن تُستَرَدّ تكاليفه في غضون سنتين. ولكن قلّما يتوافر مثل هذا العدد في غير السنة الأولى الجامعية. أما في غيرها من المستويات فقد يكون استهلاك الكتاب المتخصص بطيئاً إلى حد لا

تتحمّله الجامعة ولا المجمع. حتى ولا دعم الدولة يضمن بقاءه طويلاً دون هزّات مبعثها التغيّرات السياسية المحلية.

لهذا أرى أن تتعاون مكاتب الترجمة والتنسيق، وأن يَسند بعضُها بعضاً على نحو يُتَّفَق عليه وتُوَقَّع بصدده اتفاقيات. وأود أن أترك تفاصيل هذا الأمر إلى لجنة العمل التي دعوت إلى تكوينها. قد تكون إحدى السبل أن تسند الدولُ العربيةُ الغنيةُ مكاتبَ الترجمة والتنسيق في الدول الأخرى. ومن السبل التي تتبادر إلى ذهني، والحديث منحصر في الكتب التي تستعملها كليات العلوم، توزيع أعباء الترجمة على هذه المكاتب، بحيث يزوِّد كلُّ مكتب المكاتب الأخرى بعدد من النسخ يضمن سرعة التصريف، ومواكبة التغيُّر السريع في الكتب.

المطلوب على كل حال، أن يكون بإمكان كل مكتب أن يُقْدِم، دون خسارة كبيرة، على ترجمة كتاب علمي يعرف أن عدد الطلاب الذين يستعملونه لا يزيد عن عشرة في كل عام، وأنه قد يضطر إلى إهماله وترجمة غيره بعد خمسة أعوام. مثل هذا الكتاب لن تكون ترجمته مجدية إلا إذا استعمل على نطاق العالم بأسره.

أخلُص مما تقدّم إلى أن مكتب الترجمة الذي في ذهني هو مكتب ترجمة وتعريب ونشر يتبع الجامعة أو المجمع، ويرتبط بالمكاتب الأخرى عن طريق اجتماعات سنوية توزَّع فيها أعباء الترجمة، وتُحدَّد التخصصات والارتباطات.

ليس في النية طرد اللغات الأجنبية من كليات العلوم، بل إني أرى أنه قد يكون من الأجدى تعريف بعض الطلاب في بعض التخصصات بأكثر من لغة أجنبية

واحدة. وأنا أبيح لنفسي أن أنصرف لمعالجة الوضع في بلد كالأردن، اللغة الأجنبية فيه هي الإنكليزية. والسؤال الآن: كيف نضمن رفع مستواها لدى أبنائنا، لا خفضه، في ظل التعريب؟

وإني أنظر في هذا الأمر نظرة واقعية، قوامها النقاط المحددة التالية:

١- إن طلابنا يأتون إلى الجامعة بعد سنوات عدة ظلوا فيها يدرسون اللغة الإنكليزية مع موضوعات تعليمية أخرى. فهم، في ظل هذا النمط التعليمي، لا يجهلون الإنكليزية كلية، ولكنهم أولاً: لم تتح لهم فرصة التحدث بها بالقدر الكافي، ولا فرصة استعمالها في شؤون الحياة العامة؛ ثم هم ثانياً: يجهلون الاصطلاحات والتعبيرات العلمية.

٢- في تقديري أن أي مساق يعطي لهؤلاء الطلاب في اللغة الإنكليزية لا يرفع من مستواهم بالقدر الملموس، سوى مساقات تنصبّ على دراستهم والتحدث معهم في موضوعاتِ تَخَصُّصِهم العلمية. هذه المساقات تعرّفهم بالمصطلحات والتركيبات العلمية، ولكنها، كالمساقات التقليدية التي سبق لهم أن درسوها في المرحلة السابقة، لا تحسّن مستوى توظيفهم للغة في شؤون الحياة اليومية.

٣- إن ما يضمن تحسين مستوى أبنائنا إلى حد ملموس باللغة الإنكليزية، تحدُّثاً وكتابة، هو إرسالهم للعيش في محيط إنكليزي لمدة ثلاثة أشهر إلى سنة. إن أبناءنا يذهبون اليوم للتعلم في بلد لا يعرفون من لغته كلمة واحدة، ثم هم بعد ستة أشهر يصبحون على علم بلغته يمكّنهم من حضور المحاضرات والتحدث مع أبناء البلد.

٤- وغنيّ عن البيان أننا نتمنى أن يحرص جميع أبنائنا على الاستزادة المستمرة من المعرفة، ولكننا نعلم أن هذه أمنية لا تتحقق إلا بقدر محدود.

من هذا كلّه أخلص إلى نتيجة واحدة أجدني مقتنعاً بها، هي تعريب التعليم في كليات العلوم، مع إعطاء مساق تمهيدي باللغة الإنكليزية، يعرّف الطالب بأعم المصطلحات العلمية وبعض التعبيرات؛ ثم مساقين أو أكثر من ميدان تخصصه، بالإنكليزية أيضاً، يراعى فيهما الإلحاح على استعمال الدوريات والبحوث التي تنشر فيها، يخرج لنا طلاباً أكثر ممن نخرجهم الآن إتقاناً لموضوعات تخصصهم، وأقدر أيضاً على استعمال المصادر الإنكليزية العلمية. فمن شاء مزيداً من معرفة الإنكليزية فليعش في جوّ يتيح له أن يتعلم المزيد من الإنكليزية تحدثاً وكتابة.

ولا ينبغي أن ننسى أننا أوصينا بأن يكون من واجبات كل طالب في كلية العلوم أن يمارس الترجمة من اللغة الإنكليزية، استكمالاً لمتطلبات تخرجه.

أرجو أن أكون قد وُفّقت في طرح بعض المشكلات واقتراح بعض الحلول.

دور عضو هيئة التدريس في تعريب التعليم العلمي الجامعي(*)

الأستاذ الدكتور إحسان عبّاس (ت٢٠٠٣م)

بسم الله الرحمن الرحيم

تأملت العنوان المقترح لهذه المحاضرة ملياً، وكررت فيه النظر مستلهماً كلماته فيما يمكن أن أقوله، فتبين لي –والله أعلم– أنه حين وضع إنما كان يهدف لدى من يعالجه إلى تحقيق الأمرين التاليين:

١- الوقوف عند التجربة الذاتية في التعريب، لقيمة التجربة الذاتية في نفسها، إذ هي تتجاوز الموقف النظري إلى الناحية التطبيقية، وهذه الناحية بطبيعتها العلمية تسعف على إثارة قضايا وحل مشكلات قد يظل التنظير بعيداً عن التمرس بها؛ وهذا الموقف يمكّن من رؤية مدى الانسجام بين التنظير والتطبيق، أو مدى التباعد فيما بينهما، والكشف عن هذه الناحية يصحح إلى حد كبير الحركة التنظيرية في التعريب نفسه، ويسدّد من توجهها، إن وجد أنها بحاجة إلى ذلك.

٢- إبراز موقف فردٍ له وجهة نظر في التعريب على مستوى الرأي النظري، لأنه يتمرس بتدريس علم غني بالمصطلحات، وقد استطاع لأنه يعيش في ذلك الجو العلمي الخاص أن يلقي بدلوه في الدلاء، ويخرج باقتراحات جادّة، ينبغي النظر إليها في جدّ أيضاً، لأنها حصيلة جهد يجمع بين المعرفة بذلك العلم والمعرفة بأصول اللغة وطبيعتها، مما يجعل لجهد

(*) نُشرت هذه المحاضرة في كتاب الموسم الثقافي الرابع لمجمع اللغة العربية الأردني، سنة ١٩٨٦م.

صاحبها مكانة هامة في سياق الخطة الكبرى للتعريب، وإن كان جهد فرد لا جهد مجمع أو جماعة.

وإذا كان الأمر الأول هو العير، والأمر الثاني هو النفير، فأنا بالنسبة لهذين الأمرين لا في العير ولا في النفير، ذلك أنني بالنسبة للأمر الأول قد أملك بعض التجربة ولكنها، فيما أقدّر، تجربة يسيرة صغيرة، لأن المادة التي دأبت على العمل فيها من حيث أنا عضو هيئة تدريس هي الأدب وتاريخ الأدب والنقد الأدبي، وصاحب هذه المواد ربما لم يضطر أن يصطدم بقضية التعريب، ولو كنت أمارس تدريس علم من العلوم أو تقنية من التقنيات لكانت لي تجربة أعمق وأكثر خصباً، ولهذا أقدّر لو أن غيري من المشتغلين بالعلوم البحت أو العلوم العملية كلف بعرض نماذج من تجربته لوجدتم في ما يعرضه إثارة ومتعة وفائدة، أضعاف أضعاف ما قد يعرضه امرؤ يعمل في الحقل الأدبي. وأما بالنسبة للأمر الثاني، فإني حقاً قد أطالعكم بوجهة نظر ذاتية في التعريب، لا لأني أدرّس علماً غنياً بالمصطلحات، وإنما لأني أتابع حركة التعريب، أقرأ عنها، وأتحاور فيما بيني وبين نفسي حول الخطوات التي قطعتها، والمشكلات التي تعترضها، والوسائل الضرورية لتشجيعها، وكل ما يتصل بها من قريب أو من بعيد، والقليل القليل من هذا هو الذي أحققه لأني عضو هيئة تدريس، ولكن الكثير الكثير منه إنما يتم لإيماني بقضية التعريب وبضرورته وأهميته ولأنني أحب اللغة العربية، وأحب أن أراها وأرى أمتي صنوين في الأخذ بأسباب العلم والحضارة، دون توان أو تردد أو تخلّف.

بل إنني كلما حمت بفكري حول عنوان هذه المحاضرة "دور عضو هيئة التدريس" وجدت أن هذه الصفة لم تعد تنطبق عليّ، فأنا لم أعد عضو هيئة تدريس، بل أصبحت "مجمعياً محترفاً"، يعيش مع مصطلحات اللحام والخراطة والتدفئة والتبريد وما أشبه ذلك، حتى لأظنني لو رجعت لتدريس الأدب لاستغرب الطلاب لغتي حتى أقول لهم: إن الخضرمة بين عصرين أدبيين تشبه أن تكون عملية لحام بالقوس الكهربائي **(arc welding)** وأن الانفصام بين الشاعر والمجتمع يمكن أن نسميه اللحام المتشقق **(cracking weld)** وأن قضيب اللحام **(electrode)** هو أداة التوصيل بين الشاعر والمتلقي أعني لغة الإفهام وهكذا، وفي الطلبة نابهون دهاة أذكياء يستطيعون أن يخمنوا ما جرى لأستاذهم بعد أن غاب عنهم غيبة امتهن فيها حرفة مربحة هي حرفة "السباكين".

وهبني تجاوزت العقبات النفسية كلها، وقررت النزول على حكم ذلك العنوان المستبد فما قيمة ما يمكن أن أقدمه في هذا الميدان الذي لا تطيقه إلا الخيول الأصلية، أعني ماذا أستطيع أن أقول أو أفعل أنا الفرد الضعيف الأعزل إزاء جهد الجماعة المتواصل منذ قرابة قرن من الزمان، ودعني أقرأ: "لقد لقي موضوع التعريب عناية كبرى من الجامعة العربية والمكتب الدائم للتعريب ومجامع اللغة في جميع البلاد العربية، ونوقش الموضوع في المؤتمر العربي في الإسكندرية (١٩٥٣) والثاني في القاهرة (١٩٥٥) والثالث في بيروت (١٩٥٧) والرابع في القاهرة (١٩٦٠) وأوصى مجلس الجامعة العربية المنعقد بالرياض سنة (١٩٦٢) أن تسرع الجامعات العربية إلى تعريب التعليم في كلياتها المختلفة و... الخ انظر

تلك التوصيات (مجلة اللسان العربي ٢٤: ٧٨ بتصرف). هذا على مستوى القرارات والتوصيات، أما على مستوى التنفيذ العملي فأكتفي بقول الدكتور إبراهيم مدكور رئيس مجمع القاهرة: "إن مجمع القاهرة يتألف من عشرين لجنة فنية متخصصة: واحدة في الطبيعة، وثانية في الهندسة، وثالثة في الرياضيات وهكذا وتعقد هذه اللجان ما يقرب من ستمئة جلسة في العام المجمعي، وتقر كل لجنة ما لا يقل عن ثلاثمئة مصطلح في المتوسط سنوياً، وهكذا أصبح لدى المجمع سنوياً ما يزيد على ستة آلاف مصطلح وتأخذ وضعها النهائي بعد إقرار المؤتمر لها، وبذلك توفرت لديه حصيلة تكاد تقرب من ثمانين ألف مصطلح" (مجلة العربي العدد ١٨٧ سنة ١٩٧٤). فإذا أضفت إلى ذلك جهود مجمع دمشق ومجمع بغداد ومجمع عمان ومراكز التعريب تضاءل كل جهد يبذله فرد وحده، وتضاءلت تجربته الذاتية رغم غناها إن كانت غنية، إزاء هذه الجهود الضخمة.

لم أرد من كل هذه الإحصاءات أن أسأل أين وصل التعريب بعد كل ذلك، وإن كان لي ولكم ملء الحق أن نفعل، ولكني أردت أن لا يظلم جهد فرد قاصر الأدوات إذا وضع إلى جانب إنجازات الجماعات العاملة بدأب، وقد اكتملت لها أدواتها، ثم لعلني بهذا الذي قدّمته أجد لديكم عذراً، إذا أنا تجرأت في التحدث عن تجربتي، سواء أكانت داخل غرفة التدريس أو خارجها، فهي تجربة إنسان عضو في هيئة تدريس (أو كان كذلك) ولعله بسبب هذا الانتماء إنما قام بما قام به من تجربة.

وأحبّ أن أنطلق من حقيقة تعرفونها جميعاً، أسميها أحياناً "جور اللغة على المنطق وعلى العلم"، والسبب في ذلك أنّ اللغة كانت قبل تأسيس قواعد المنطق وقبل وضع مُسميّات للعلم، ولكن لا غنى بنا عنها حين نريد أن نتحدث عن المفهومات المنطقية والمسمّيات العلمية، لأنّنا لا نستطيع في كل حال أن نستعمل الرموز الرياضية. واسمحوا لي أن أشرح ما أعنيه هنا: المقابل المنطقي للفظة كريم هو لا كريم وللفظة شجاع لا شجاع ولكن اللغة وضعت ألفاظاً أخرى، وضعت "بخيل" مقابل "كريم" ووضعت "جبان" في مقابل "شجاع"، وهذا من الناحية المنطقية قائم على التجاوز، مفروض بسبب اللغة، وهو في النهاية يؤدي إلى التحيف من الدقة المنطقية في التعبير؛ يقول ابن حزم في التقريب لحد المنطق: (رسائل ابن حزم ٤:١٥٢) "ومن ظن أن الكثير ضد للقليل والكبير ضد للصغير فظنه فاسد، وإنما ذلك من باب الإضافة، إذ ليس في العالم شيء كبير بذاته ولا صغير بذاته، وإنما الكبير كبير بالإضافة إلى ما هو أصغر منه، والصغير صغير بالإضافة إلى ما هو أكبر منه...." وقد اكتشف ابن حزم مثلاً أنّ الكمية في العربية تفتقر إلى لفظة حول الكمية موجودة في اللغة اللطينية تختص بها الكمية دون سائر المقولات العشر، وإن للكيفية أيضاً في اللطينية لفظة تختص بها اختصاصاً بيناً لا إشكال فيه دون سائر المقولات لا توجد لها ترجمة مطابقة في العربية (ص١٥٣) وإذا كانت اللغة العربية هنا تنقص دقة عن اللاتينية، فلعلها في مواطن أخرى أن تكون أكثر دقة منها، ونستخلص من هذا أنّ المواضعات اللغوية قد تقصّر في التعبير عن الدلالات المنطقية، وأن اللغات مشتركة في تفاوتها من هذه الناحية وأننا عند

التعريب لا نستطيع أن نقسر اللغة الواحدة لتتحمل طبيعة لغة ثانية وستظل هناك فوارق دائمة.

هذا في المنطق، وأما في المسميات العلمية فالأمر أشدّ صعوبة أحياناً، فقد وضعت أثناء تطور اللغة ألفاظ متمايزة ببعض الظلال، ولكن مع مرور الزمن اختفت تلك الظلال، ولم نعد نستطيع التمييز بين تلك الألفاظ في أصل الوضع، نقول مثلاً ليس لي قدرة على هذا الأمر، ليس لي قوة، ليس لي طاقة، ... حول، ... وسع ... الخ هذه الكلمات المتقاربة في الدلالة، فأيها نختار مقابل كلّ من **force**، **energy**، **power** ....، ولكلّ منها في العلم الحديث دلالة متميزة عن الأخرى (بعد أن لم يكن لها تلك الدلالات المتمايزة في لغتها قبل حاجة العلم الحديث إلى تمايزها، تماماً كما هي الحال في اللغة العربية)، ها هنا بداية المرحلة الصعبة التي تسمّى التعريب، وهي أيضاً مرحلة طويلة، وهذه البداية تومئ إلى أمرين مهمين لا غنى عنهما: **أولهما** أن الحركة العفوية الأولى التي نقوم بها تلقائياً ودون تفكير طويل هي أن نعود إلى لغتنا فنفتش فيها عن مقابلات صالحة دقيقة، **والثاني**: أن المصطلح العلمي الذي نختاره مقابلاً للفظة الواحدة يجب أن يكون واحداً لا يتعدد، ولا يحتمل المشاركة (قدر المستطاع)، فإذا تقرر لدينا أن "طاقة" تقابل (energy) فيجب أن يظل الأصل ومقابله متلازمين، لدى كل تصور أو تطبيق في ميدان التعريب. وسأتحدث عن هذين الأمرين بشيء من التفصيل:

١- العودة إلى اللغة:

قلت إنها حركة عفوية، وأقول أيضاً إنها صعبة وغير متيسرة، وذلك لفقدان المعجم الشامل الذي يسجّل كلّ ما دخل اللغة من مصطلحات في شتى أنواع المعارف؛ لقد كان "مفاتيح العلوم" للخوارزمي خطوة مهمة على الطريق، ولكن ما فات الخوارزمي وما تمّ من بعده خلال قرون كثيرة يكاد لا يحصى، وهو متفرق في المظانّ المختلفة. لقد عرضت لي ذات يوم مصطلحات في رسالة للوزير المغربي تتصل بديوان الخراج الذي يعنى بالنظام المالي في الدولة الإسلامية مثل المجموع. الجماعة. الموافقة. المستخرج. الارتفاع. الاستظهار. جاري العمل ... فلم أجد منها إلا القليل لدى الخوارزمي، هذه المصطلحات وأضراب لها كثيرة جداً، قد كانت تدلّ على مواضعات جارية في الحياة العملية، ونحن بحاجة إليها لأننا لا نستطيع في كل لحظة أن نصوغ مصطلحاً جديداً يحظى بالرواج والقبول. ولي في هذا الصدد تجربة متواضعة وذلك حين ترجمت قصة "موبي ديك" للكاتب الأمريكي هرمان ملفل، وأنتم تعرفون أن القصة تدور في عالم البحر وصيد الحيتان؛ والفكرة السائدة لدينا أنّ العرب كانوا قليلي التمرس بشؤون البحر، فإن صح ذلك فإن ترجمة رواية مثل موبي ديك ستكون أمراً عسيراً أو بالغ الصعوبة، ولذلك فإني بعد أن قرأت الكتاب قراءة أولية، ووضعت يدي على بعض أغلاق الصعوبة فيه، تركته جانباً وعشت أسابيع بل أشهراً أتعرّف إلى البحر والمصطلحات البحرية التي درجت في اللغة العربية، ولست أقول إني وجدت جميع ما أطمح إلى العثور عليه، ولكن ما وجدته كان كثيراً، سواء ما يتصل منه بالسفن وأنواعها وأجزائها وحيوانات البحر، وحركة البحر في هدوئه وفي خبّه وتضرّبه، وغير ذلك مما يتطلبه عملي في

الترجمة: وجدت أن ما يسمى (whale) بالإنجليزية قد عرب إلى أوال أو أفال أو غير ذلك، وأن الحوت الذي يسمى (Ballena) قد نقل إلى العربية في صورة "البلينة" وأن "Cetus" (وهو الحوت في الفلك أيضاً) يسمى "القيطوس"، ولست أكثر من الأمثلة طلباً للإيجاز، ولست أقول أيضاً أن تعريب "موبي ديك" يحمل من الصعوبة ما يحمله تعريب علم من العلوم، ولكني أحببت التمثيل وحسب على فائدة العودة إلى الذخيرة اللغوية، وأن يكون هذا المثل مستمداً من تجربة عشتها (وقد أعود إلى موبي ديك في سياق هذه الكلمة إن وجدت في ذلك شواهد مفيدة).

غير أن بعض الناس لا يرى هذه العودة ضرورية، ويرى الاحتكام إلى المصادر التراثية مضللاً، وهؤلاء يذهبون في اتجاه متطرف، إذ العلوم نوعان: نوع استمر يتطوّر من نواة قديمة، وقد عرف بمصطلحات خاصة به على مر الزمان، والتجدد في مصطلحاته توسع على الأصل، ونوع انشق من أصل كبير وهو في جدة أدواته، وتلاحق مبتكراته، لا يمكن أن يستعان على مصطلحه بالعودة إلى اللغة، وفي هذا النوع الثاني أراني لا أتردد في قبول المصطلح كما هو في لغته الأصيلة، مع بعض تحوير بسيط ليوافق طبيعة اللغة العربية في اللفظ، بل وأحياناً دون تحوير. إني لا أرى أي جدوى في إيجاد ألفاظ جديدة لترمومتر وبارومتر بل نأخذها وأضرابها كما هي مثلما أخذنا كيلو متر وسنتيمتر وغيرهما.

من هنا يظهر جلياً أن ليس للتعريب معيار واحد يؤخذ به في كل حالة وفي كل علم، فإن الاحتكام إلى معيار واحد اقتسار للغة إذا أردنا أن نردّ كل جديد إلى أصل قديم، أو تهجين لها بكثرة الدخيل إذا أخذنا كل مصطلح كما هو في أصله.

٢- اقتصار المصطلح العلمي على لفظة واحدة:

من الخير أن يظلّ المصطلح الواحد مقصوراً على مقابل له في لغة أجنبية ما أمكن ذلك، ولكن هذا القانون قد يصحّ بالوجه المطلق، ونحتاج أن نتخذ المصطلح الواحد للدلالة على شيئين أحياناً، وبخاصة إن استعمل المصطلح الأجنبي في علمين بدلالتين بينهما قدر من التفاوت، وهذه تجربة يعرفها زملائي في مجمع اللغة العربية حقّ المعرفة. إن قصر المصطلح العلمي على مقابل واحد يرسم أول فرق كبير بين العلم والأدب، ولهذا يجب الفصل بين هذين الميدانين في المعاملة عند التعريب وعند الكتابة: إنك قد تكرر كلمة "طاقة" في كتاب علمي عشر مرات أو أكثر في الصفحة الواحدة، لأنها ذات دلالة محددة لا يصحّ تجاوزها إلى لفظة أخرى، ولكنك قد تتهم الكاتب في الأدب بالفقر في المعجم اللغوي، إذا هو لم ينوّع في الألفاظ حتى عند اتحاد الدلالات ولهذا لا نجد في الأدب ما يتطلبه العلم من دقة صارمة، وإن كانت الدقة مطلوبة حتماً في المصطلح. لقد سمّى بعض القدماء نظرية أرسطاليس في الشعر باسم "المحاكاة" وسمّاها بعضهم الآخر "التخييل"، واستعمل المصطلحان في نقدنا القديم، ولم نجد في استعمالهما بأساً، وإن كان الاقتصار على واحد منهما أفضل. بل إننا في الأدب قد نركب الاجتهاد الخاطئ ونشيعه بالتداول: لقد حار الدارسون في ترجمة أو تعريب (romantic) فبعضهم قال: رومنتي، وبعضهم قال رومنتيكي وفريق ثالث قال: رومنطيقي، ثم ترك كل ذلك وشاع استعمال "رومانسي" ومع التقارب في أصل الكلمتين فإن البون بينهما واسع: "romantic" نسبة إلى romanticism وهي حركة أدبية بدأت في أوروبا

عند نهاية القرن الثامن عشر تتميز بالتعبير عن المواجد الذاتية (مخالفة بذلك الكلاسيكية) بينما "romance" تعني سرداً قصصياً طويلاً شعراً كان أو نثراً للتغني بالحب والبطولة لدى أبطال ذلك النوع من القصص، ومع ذلك لم يأبه الكتاب في الأدب والنقد لهذا الخطأ، ولم يحتجَّ عليه القراء، ولو حدث مثل هذا في العلم لكان حوباً كبيراً.

وهذا يقودني إلى الحديث عن فرق آخر جوهري بين العلم والأدب عند الترجمة أو التعريب: من التجوز أن نقول أسلوب علمي، والمعنى: أبسط تعبير في أدق لغة، ولكن الأسلوب في الأدب هو جوهره ولبابه، ولهذا كان النقل عن لغة أجنبية في الميدان الأدبي يعني أول ما يعني "تعريب الأسلوب" –وليس المصطلح فقط–. إن آفة معظم ما ينقل عن الآداب الأجنبية إلى العربية في هذا العصر أنه مكتوب بحروف عربية وليس بلغة عربية، ولهذا تجد معظم القراء يضجون من أنهم لا يفهمون ما يقرأون، والسرّ ليس في أفهام القرّاء أبداً بل في أفهام النقلة أولاً ولغتهم ثانياً. وتعريب الأسلوب لا يعني مبارحة النصّ الأصلي والتغيير غير الأمين فيه ليلائم العبارة العربية، بل هو إخضاع النصّ للتقديم والتأخير، ولانتقاء الألفاظ المناسبة ولعدم الخروج عن "مستوى" معين تفرضه اللغة، ولو تطلب ذلك تفكيك الجملة الأصلية إلى جمل.

اسمحوا لي هنا أن أعود مرة أخرى إلى موبي ديك: تفتتح هذه الراوية الضخمة بعبارة "call me Ishmael" وهي فاتحة مهمة، في النص الإنجليزي ولكني حين أخذت في الترجمة كتبت: ادعوني إسماعيل، ثم وجدتها منقطعة الصلة بما بعدها،

إذا كتبت كذلك في العربية، وبعد محاولات، وجدتني أكثر اطمئناناً لمكانها إذا أنا جعلتها في درج الكلام (وإن كنت قد ابتعدت عن غاية المؤلف في تقديمها وجعلها في صدر الكتاب)، فجاءت العبارة عن النحو الآتي: "قبل بضع سنوات لا أدري عددها على وجه الدقة كنت أنا –وليكن اسمي الذي أعرف به هو إسماعيل– خالي الوفاض من الدراهم أو كالخالي، ولم يعد شيء على البر يبعث المتعة في نفسي... الخ". مثل هذا التصرّف يجب أن يؤدى في حذر، بحيث لا ينقل التركيز الأصلي في النصّ عن محوره، وإذا كان لا بدّ من إجرائه فليكن نزولاً على طبيعة اللغة التي ينقل النصّ إليها. على أن كتاب موبي ديك –وهو الوحيد الذي أجده بين يديّ اليوم من كتب نقلتها إلى العربية– يصلح أن يكون نموذجاً معبراً عن منهج ذاتي اعتمدته في التعريب: ففيه قد نقلت الكلمة الأصلية على حالها، أو وجدت لها مقابلاً في العربية الفصحى، أو استعملت لفظة عامية، من عامية السودان أو مصر أو ديار الشام، أو راعيت التشابه الصوتي (مع عدم استبعاد وحدة في الأصل) فجعلت chaos "واقوصة" لأن هذا هو معناه الأصلي، ولمحت في لفظة (the Gam) وهي تجمع قطيع من الحيتان صورة أخرى لكلمة "جمة" وهي تجمع الماء في مصطلحات البحريين، أو هي الجماعة في اللغة، وحرصت أن أؤدي الأصل بأسلوب عربي، لا تكاد تلمح فيه أثراً لبنية اللغة التي نقلت عنها، إلا أن يكون ذلك أمراً مشتركاً بين اللغتين؛ وأنا أورد هنا نصاً –أخذته اتفاقاً دون تعمد– لا استكثاراً لما صنعت، إذ الله أسأل أن يجنبني الغرور– وإنما توضيحاً لبعض ما زعمت: (ص٤٦٣–٤٦٤).

"الصيحات المفاجئة التي أرسلها الملاحون أفزعت الحوت، ولا بد، فقبل أن تنزل القوارب استدار في خيلاء، وسبح مبعداً في اتجاه الريح في سكينة واثقة محدثاً بعض التغضنات في سبحه، فقد ظن آخاب أن الفزع لم يدركه بعد، وأمر أن تتوقف المجاذيف وأن لا يتكلم أحد إلا همساً، وجلسنا على حوافي القوارب كأننا هنود أونتاريو، وسرينا في اليم مسرعين صامتين إذ كان الهدوء المخيم لا يسمح بنشر الأشرعة وإن كان نشرها لا يحدث صخباً، وفيما نحن ننساب في هذه المطاردة رفع الوحش ذنبه عامودياً في الهواء على مدى أربعين قدماً وغاص محتجباً عن الأنظار كأنه قلعة خسفت بها الأرض".

"وارتفعت الصيحة: ها هما شطرا الذنب. وما أن سمعها اسطب حتى استخرج علبة الثقاب وأشعل غليونه إذ أصبح التمهل محموداً وبعد أن قضى الحوت دورة القمس كاملة برز ثانية وهو متقدم أمام قارب الرجل ذي الغليون، وإن كان أقرب إليه من سائر القوارب، فعلل اسطب نفسه بشرف الفوز وبدا واضحاً حينئذ أن الحوت أدرك أنه مطارد، ومن ثم غدا كل صمت طلباً للحيطة قليل الجدوى، فتركنا التجذيف الهين، وأخذنا نعمل المجاذيف الكبيرة جهرة، وأخذ اسطب يشجع ملاحيه على الهجوم وهو ما يزال ينفث دخان غليون".

"نعم حلّ بالحوت تغير خطير الشأن، فقد كان على وعي بأنه يعرض نفسه للتهلكة إذا كان يجري "بارز الرأس" وقد نتأ بانحراف ذلك الجزء منه من خلال الزبد المجنون الذي كان يمخضه".

"وكان اسطب يقول وهو ينفث الدخان بصوت مسموع إذ يتكلم: "أدركوه، لاحقوه يا رجال، لا تتسرعوا، لديكم وقت كاف ولكن أدركوه، اتبعوه كأنكم هزمات رعد، وذلك حسبكم، ها الآن أدركوه، نريد ضربة مديدة سديدة يا طاشطيقو، دراكِ يا طاش يا بني- دراك جميعاً. كونوا هادئي الأعصاب، ظلوا هادئين- في برود كثمر الخيار. هوناً. هوناً. لكن أدركوه كأنكم الموت العبوس والشياطين المكشرة، وابعثوا الموتى واقفين على أرجلهم من قبورهم يا أبنائي. هذا ما نريد. أدركوه.

"وردّ الجايهيدي صائحاً" وو- هو- وا- هي" مرسلاً إلى عنان السماء إحدى صرخات الحرب المعروفة، وعندها وثب كل مجدف عفواً إلى الإمام في القارب المجهد مع الضربة الأولى الهائلة التي أرسلها الهندي اللهيف."

"وأجاب آخرون على صيحاته الوحشية بصيحات مثلها، فزعق دغة "كي هي- كي هي" وهو منتصب يميل أماماً وخلفاً في مقعده كأنه نمر يتحظر في قفصه".

"وصاح كويكوج "كا- لا. كو- لو" كأنه يتمطق بعد أن حشا فمه بشريحة لحم...".

أراني أطلت في الحديث عما أنجزت، ذهاباً مع طبيعة الموضوع في خصوصيته، وبما أنني أصدر عن تجربة أدبية، فإن الذي يلفت نظري هو أثر جمود التعريب في أدبنا المعاصر، إن تعريب العلوم أكثر إلحاحاً مائة مرة من هذه القضايا التي أثيرها، ولكن تعريب العلوم موضوع مفتوح لمئات المجتهدين، لهذا لا ضرر في أن أتحدث، عن موضوع جانبي، ولكنه رغم ذلك يكشف عن نتائج بالغة الخطورة بسبب تجمد التعريب عند حدّ وضع المصطلحات في معاجم خاصة أو

عامة. إلى اليوم لم تصبح العلوم، مادةً حية، أي لم تتحول إلى أفكار ونظرياتٍ وتطبيقاتٍ نتحدث عنها دون خوف أو وجل، في غرفة الصف وفي المجالس الخاصة والعامة، ونتداولها في كتب ومجلات، لم تصبح مادةً يهضمها المتخصص وغير المتخصص على تفاوت ضروري بينهما. لماذا؟ لأن التعريب ظل –إلا قليلاً– اجتهادات بتكوين مصطلحات تدفن في الكتب أو الفصل أو النشرات المعجمية، والمصطلح الذي لا تترد له أصداء صوتية أو كتابية، كأنه ما يزال حبيس الغربة عن لغتنا في لغته الخاصة، وأكبر أثر لهذا في أدبنا المعاصر ابتعاده عن التمرس بالمادة العلمية، إن أدبنا ينحو نحو مشكلات محددة نعالجها ونعيد معالجتها دون سأم وهي الحبّ وما يلحق به من تضحية أو خيانة، والعلاقات الزوجية وما يعتورها من تعقد أو فتور، ومشكلات السكن للذين يريدون تكوين أسرة، والحرب المستمرة بين ما يسمى اعتباطاً خيراً، وما يسمى اعتباطاً شراً، وغير ذلك من أمور. وهذه مشكلات حقاً ولا بدّ من معالجتها، ولكن التكرار باعث على السأم، ويخشى دائماً في مثل هذه الأحوال أن ينقلب السحر على الساحر؛ وأنا أرى أن هذا أيضاً يشبه النظر إلى الوجود بعين واحدة، إن هناك منطقة فارغة هي منطقة التلاقي بين الشكل الأدبي والمادة العلمية، بين دور الأدب والروح العلمية وهذا لا يتمّ قبل أن يوضع العلم المعرّب موضع التطبيق، ويصبح الواحد منا يفكر علمياً من خلال لغته الأمّ، لقد تحدث كثيرون قبلي عن الصلة بين الفكر واللغة، وضمور اللغة بسبب ضمور الفكر العلمي، والعكس بالعكس، وأنا أقول إن ضمور العلم في اللغة الأم هو أيضاً ضمور لأدب تلك الأمة. فالروائي عندنا مثلاً بتحدث عن

الأرض وجمالها وعن قيمة المزارع ولكنه لو أراد أن يتحدث عن "منظر فلاحي" لما عرف كيف يؤديه، وهو يصور أهمية الطب ودور الطبيب في المجتمع ولكنه يعجز عن وصف عملية جراحية بدقة علمية، ولو أدار فصلاً من فصوله حول عامل في شؤون الخراطة أو السباكة جاء فصلاً تعميمياً، دع عنك موضوعات أدق من ذلك. فالجمود عند نقل المصطلح وحده دون إخضاعه للتعليم والتعميم لا يعني تأخراً في مجال العلم وحده بل تأخراً في مجالات الفكر الأخرى ومن أهمها الأدب.

لكلّ هذا أرى –سواء أكنت عضواً في هيئة التدريس أو كنت مؤلفاً أو مترجماً أو قارئاً، أي بصفتي امرءاً ينتمي إلى هذه اللغة– أن التعريب ضرورة لا تحتمل الإرجاء، وأن تراكم المصطلحات العلمية لا يفيدنا في شيء إذا لم توضع موضع التطبيق، ولست أجد مثيلاً لما تتطلبه حالنا اليوم إلا ما حدث للعرب المسلمين عند الفتح: لقد انساحوا في البلاد يسمعون كلمات لا عهد لهم بمثلها، فإذا بها تجري على ألسنتهم دون تردد: قيل لهم: هذا دهقان، وهذا طسق (وظيفة على الزرع) وذلك طسّوج (مقياس مساحة) وهذه أرض استان (أرض مقاسمة) وتلك بزندات (بساتين) وهذا ماه (قصبة البلد) كما قيل لهم تعالوا نعقد بيننا وبينكم "بقطا" (عهداً أو سلماً) إلى عشرات بل مئات من هذه الأمثلة، نحن اليوم بحاجة إلى أخذ كلّ ما ينقصنا، وإيداعه البحوث والكتب والمحاضرات، وهناك قانون اسمه حكم الزمن، وهو قانون يقضي بأن ما يُعَرّب اليوم قد يكون فيه الصالح وغير الصالح، ولكن عملية التصفية يقوم بها الزمن، لقد عرّب العرب في عصر الترجمة بعض الكتب مرتين أو ثلاثاً لأنهم شعروا أن التعريب الأول لم يكن هو الأصلح، ولقد وضع

الكندي في الفلسفة مصطلح الأيسية والليسية مشتقاً ذلك من أيس وليس، ثم وجد التالون له أن مصطلحي الوجود والعدم أقرب دوراناً على الألسنة. وحكم الزمن يقضي بأن نقبل ما ثبت صلاحه، ونحن اليوم نقبل جغرافيا ومتافيزيقا والسيلوجسمس، والمجسطي، ويساغوجي، والفهرست، والدستور، والمنجنيق، والمخل، والإنبيق، والمرقشيشا، والمغناطيس، واللازورد، ومئات بل ألوفاً بل عشرات الألوف من مثل هذه المصطلحات. وليكن دليلنا بعض المبادئ التالية:

١- أن دخول عشرات الألوف من المصطلحات -حتى في صورتها الأصلية- لا ينقل اللغة العربية عن طبيعتها ولا يحولها إلى لغة أخرى.

٢- أن وضع الرموز (في غير العلوم القائمة على الرموز) ليس من طبيعة اللغة العربية، ولا تستطيع اللغة أن تثور على طبيعتها فالإيجاز بالحروف (مثل يونسكو) إن لم يكن مستوراً لا يجرى على الألسنة إلا إذا كان متسقاً واشتقاقات اللغة مثل "باسم" (البنك الآلي السعودي للمصطلحات) و"مآب" (مؤسسة آل البيت).

٣- أن كل متتبع للنحت في العربية يدرك أن مجاله محدود، وتوسيعه متعذر، وأنه قاصر في الأغلب على النسبة إلى الأسماء المركبة تركيب إضافة مثل عبد شمس (فيقال فيها عبشمي) أو على الجمل مثل البسملة أو الحوقلة (قال بسم الله الرحمن الرحيم...) ولهذا لا يمكن أن ننحت كلمة من موصوف وصفة -مثلاً- لأن ذلك يعني أن نعطي للصفة قيمة مثل قيمة

الموصوف فاللجوء إلى النحت يجب أن يكون من الضرورات التي لا معدى عنها.

٤- أن التعريب يجب أن يكون شاملاً، فلا يجوز أن نعرب مصطلحات الهندسة دون أن نعرب مصطلحات الموسيقى ... وهكذا.

٥- أن المجلات العلمية خطوة ضرورية أهم من الكتاب أحياناً، لأن قراءة البحث أيسر، وأقرب متناولاً، وأقل كلفة زمنية، وإيجاد المجلات ذات المستوى العلمي يشجع الأساتذة على الكتابة باللغة العربية، ويخلق جواً علمياً مؤازراً لجوّ التعليم في غرفة الدرس.

٦- أن الإقدام على تعميم التعريب تعليمياً يجب أن يكون انبعاثاً من ذات كل معلم بل على الأستاذ أن يدرب طلابه، على تقديم بحوثهم باللغة العربية وإن كانت مصادرهم غير عربية، وربما لم يكن من الحكمة أن نلجأ إلى سلطة خارج نفوسنا تفرض التعريب فرضاً، فإن السلطة التي تفرضه تستطيع أن ترفضه إذا لم يكن وجوده نابعاً من نفوسنا فرادى ومجتمعين.

٧- لا يمكن الاطمئنان إلى أن التعريب لن يقتل تعلم لغة أجنبية إلا إذا بدأنا برفع مستوى اللغة الأجنبية في المدارس الابتدائية والثانوية. أما إذا ظلّ الحال على ما هو عليه، فإن تخوف المتخوفين من طرد اللغة الأجنبية بعد إقرار التعريب سيظل حجة قوية، وأنا أنطلق من هذا من قول جوته: "إن من لا يعرف لغات أجنبية لا يعرف شيئاً من لغته".

٨- أن للشعب عبقريته الخاصة في نقل المصطلحات، وبخاصة في المجالات الحرفية، ويجب أن لا نرفض المصطلح لكونه قد جرى في التداول بين العامة؛ فالعامي في كثير من الأحيان خير من الغريب المتأبد الذي نحاول إحياءه من داخل معاجم اللغة.

٩- أن ما أخذ منّا يجب أن يظل كما أَخذ حين يعود إلينا (لا أن نعربه من جديد، فـ kiosk هي جوسق، وأراها عادت إلينا في صورة "كشك" وجوالق هي الكيس الذي يجعل للحب وغيره وليست "شوال" وهكذا.

لقد توالت الأعوام بعد الأعوام ونحن نتحدث عن غنى العربية واتساع صدرها ونحوك الأحاديث الخطابية، عن قيمة التعريب، ونتباكى على عدم حلوله بيننا والتعريب عملية تنفيذ، في صوغ المصطلح وفي إخضاعه للاستعمال معاً، فلنقلل - في هذه المرحلة- من تحكيم الذوق فيما يعجبنا وما لا يعجبنا من مصطلح، إذ لم يعد لدينا مجال كبير للانتقاء والفرز، فإلى عمل مثمر نتدارك به ما فاتنا، والله الموفق.